كتاب الأخلاق الدينية والحكم الشرعية

تأليف

عبد الرحمن الجزيري

مفتش أول مساجد الاوقاف

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الانوار بالتبليطه رقم ١٨ بمصر

obeikandl.com

فهرست

الجزء الأول من كتاب الأخلاق الدينية

صحيفة		صحيفة	
٣	﴿ القسم الأول ﴾ صفات النفس	١٥	الزنا واللواط
	الباب الأول فى تعريف النفس وما يتعلق به	٢٠	شهوة المال
٤	وظيفة العقل والبدن		تفاوت أغراض الناس فى طلب المال
	أعوان العقل	٢١	مدح المال وذمه والكلام فى معنى السعادة
٦	الاصول التى تتفرع عليها صفات النفس	٢٤	الاقتصاد
٨	الوساوس التى تعرض للنفس	٢٥	ادلة الاقتصاد
٩	مايؤاخذ عليه الانسان من الوساوس وما لايؤاخذ	٢٦	الشح — تعريفه —
١٠	﴿ أقسام الشهوة ﴾	٢٧	مصار الشح وآثاره السيئة بين الناس
	شهوة الفرج	٢٩	هل الشح صفة طبيعية فى بعض الناس (نوادر البخلاء)
١١	الأسباب المثيرة لشهوة الفرج	٣٠	الجود والسخاء
	النظر	٣٢	الحرص والطمع والقناعة
١٢	الخلوة	٣٥	علاج انفاق المال فى غير حقه
١٣	حديث النفس ووساوسها	٣٨	شهوة الذرية
١٣	الغذاء الدسم أو شهوة البطن	٣٩	تربية الأولاد
١٥	استعمال العقاقير المهيجة لشهوة الفرج		

obeikandl.com

صحيفة	
٤٠	شهوة الجاه والسلطان
٤٥	حب المدح وكراهة الذم
٤٦	الرياء
٤٩	﴿ الباب الثانى ﴾ فى الغضب — تعريفه —
٥٠	درجات الغضب وحكمة خلقه فى الانسان
٥١	أسباب الغضب
٥٤	العفو عند الغضب
٥٥	علاج الغضب
٥٧	الشجاعة والجبن
٥٨	﴿ أنواع الشجاعة ﴾
٦٥	الجدل والمراء والخصومة
٦٨	المزاح
٧١	السخرية والاستهزاء
٧٢	الفحش وبذاءة اللسان
٧٣	اللعن
٧٥	— الغيبة — حد الغيبة — أنواع الغيبة — حكم الغيبة —
٧٦	كفارة الغيبة ـ المواضع التى تجوز فيها الغيبة ـ
٧٧	أدلة تحريم الغيبة
٧٨	إفشاء السر
٨٠	الأمانة والوفاء بالوعد
٨١	منافع الوفاء والأمانة ومضار الخلف والخيانة
٨٢	مايغتفر من خلف الوعد
٨٣	الصدق والكذب
٨٦	مايعفى عنه من الكذب
٨٨	النميمة ـ تعريفها ـ أنواعها
٩١	علاج النميمة
٩٣	الكبر والعجب ـ تعريفهما ـ

صحيفة	
٩٤	سبب الكبر
٩٥	مضار الكبر وآثاره السيئة
٩٧	أقسام الكبر بالنسبة للمتكبر عليه وأدلة تحريمه من الكتاب والسنة
١٠٢	علاج الكبر
١٠٤	مضار العجب
١٠٦	الغرور ـ أقسام الغرور ـ
١١٧	الحقد والحسد ـ تعريفهما ـ
١١٨	مضار الحسد أسباب الحسد
١١٩	مراتب الحسد
١٢٠	علاج الحسد
١٢٢	﴿ الباب الثالث ﴾ فى ذكر بعض صفات النفس الممدوحة
	تمهيد
١٢٦	العدل
١٢٧	أقسام العدل
١٣١	الرحمة والاحسان والرفق
١٣٣	آثار الرحمة
١٣٧	الاحسان
١٣٨	الرفق
١٣٩	الحلم وكظم الغيظ وما يترتب عليهما
١٤٤	التواضع
١٤٧	الحياء والعفة
١٤٧	أنواع الحياء
١٤٨	آثار الحياء ومضار المجاهرة بالعصيان وتهتك النساء
١٥٢	الصبر
١٥٣	أقسام الصبر
١٥٤	منافع الصبر

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين لا إله إلا هو سبحانه اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وهوالذى بيده ملكوت كل شيء واليه المرجع والمآب . فمنه وحده أستمد المعونة وأسأله التوفيق واعوذ به من محبطات العمل وعوامل الزلل واستمنحه العفو والعافية فى دينى ودنياى وآخرتى انه غفوغفور رحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق . ويخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم صراطا مستقيما . وعلى آله الأطهار . واصحابه الأبرار . ومن تبعهم باحسان

﴿ وبعد ﴾ فهذا كتاب فى علم الأخلاق الدينية يتضمن المهم من مباحث ذلك العلم المعروفة في كتبه المشهورة كاحياء العلوم للامام الغزالى وغيره

على انى نهجت فى وضعه نهجا مناسبا لمقتضى حال اهل زماننا وسلكت فيه سبيلا واضحا لاعوج فيه ولا ابهام فى نواحيه. وأكثر ما عولت عليه فى عملى كتاب الله عز وجل وسنة رسولنا الصحيحه فلم أحفل بالقصص التى لاتستند على شئ منهما ولم أبال بالأحاديث الموضوعة أو الضعيفه : وكلما أوردت آية أوحديثا شرحت منهما ما يحتاج الى الشرح والبيان . ولم أدخر وسعا فى جمع ماتفرق من مسائل ذلك العلم بأسلوب خال من التشويش والتعقيد لتكون قريبة المأخذ سهلة التناول على كل طالب . ولم اترك شيأ من المباحث الفلسفية التى يحتاج اليها المقام وتنطبق على قواعد الدين الحنيف كى لايفوت الطالب شيء يحتاج اليه فى فهم قواعد علم الأخلاق

ولما كان ذلك العلم يبحث فيه عن افعال المكلفين التى تصدر باختيارهم وهى لاتخرج عما يوافق

الدين الاسلامى فيما أمر به أو نهى عنه أو يخالفه فى ذلك والأول انما يصدر عن الصفات النفسية الممدوحة التى يعبر عنها بالفضيلة ويسمى مايترتب عليها خيرا كالآثار المترتبة على الكرم والعدل والحلم والشجاعة والفعة والقناعة ونحوذلك مما يأتى . والثانى انما يصدر عن الصفات النفسية المذمومة ويعبر عنها بالرذيلة وتسمى الآثار المترتبة عليها شراً كالآثار المترتبة على ضد هذه الصفات من الشح والظلم والجهل والجبن والشره والدناءة والطمع وغير ذلك مما يأتى . ويتناول ذلك فعل ما يجب على الانسان من حقوق الله وحقوق عباده . فقد قسمت الكلام فيه إلى قسمين ﴿ القسم الأول ﴾ فى صفات النفس وما يترتب عليها من الافعال الممدوحة والمذمومة فى نظر الدين ﴿ القسم الثانى ﴾ فى الواجبات الدينية سواء كانت اعتقادية أو عملية متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده مع بيان حكمها وأسرارها بقدر المستطاع وخصصت كل قسم من ذينك القسمين بجزء من الكتاب ليسهل الرجوع إليه عند الحاجة وهذا — هو جهد المقل — فان كنت قد وفقت فذاك وإن كانت الاخرى فأرجوا أن يعفو الله عنى بمنه وكرمه

هذا وإننى أرجو أن أكون قد قمت ببعض ما يجب على من خدمة الوعظ والارشاد فى بيوت الله التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه مرضاة لله تعالى وشكراً له على ما شرفنى به من خدمتها وأن أكون قد قدمت ما ملكت يداى من إصلاح فى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فؤاد الاول ﴿ ملك مصر المعظم ﴾ ايده الله فان جلالته قد بعث فى أمته روح التنافس فى الاصلاح وطبع فى نفوس العاملين ماحبب اليه من العمل على سعادة شعبه وصلاح رعيته فى كل شأن من شؤونها المادية والادبية خصوصا ما يتعلق من ذلك بتهذيب النفوس وتقويم الاخلاق فان عنايته الكريمة بذلك أظهر مايكون قولا وعملا . فلقد غمرت نعماؤه معاهد الدين وشمل بره إصلاح طرق الوعظ والارشاد فى بيوت الله تعالى فعمرت بالعلماء والمرشدين فى كل أرجاء القطر . ولو شئنا أن نعدد مواقفه التى هى المثل الاعلى لمكارم الاخلاق لضاق بنا المقام فهو ﴿ خلد الله ملكه ﴾ دائما قدوة حسنة لأمته فى التمسك بالفضيلة والقضاء على الرذيلة ومحاربة التهتك والمجون ومطاردة الخارجين على الادب والدين فجزاه الله عن الفضيلة احسن الجزاء وابقاه ذخراً لشعبه مؤيداً منصوراً وحفظ له حضرة صاحب السمو الملكى الامير فاروق ولى العهد المحبوب حرسه الله وسائر الانجال

obeikandl.com

القسم الاول

صفات النفس

الباب الاول فى تعريف النفس

ومايتعلق به

النفس والعقل والروح والقلب الفاظ مختلفة ولكنها تارة تكون متحدة المعنى فترد كلها على شيء واحد ومعنى واحد وهو — سر الهى لايعلم حقيقته الا الله تعالى — متعلق بالانسان تعلقاً معنويا ليدبره فى أموره ويسلك به الطريق القويم والصراط المستقيم . والى ذلك المعنى يشير قول الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فذلك السر الالهى يسمى نفسا وعقلا وروحا وقلبا . وتارة تكون هذه الالفاظ مختلفة المعانى فيطلق كل لفظ منها على معنى يغاير الآخر فالنفس تطلق على مجموع الشهوة والغضب وهذه هى النفس الشريرة عند الصوفية. والعقل يطلق على العلوم والمعارف . والروح تطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة وهذه يتعلق ببحثها غرض الاطباء . والقلب يطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل الموجودة فى الجهة اليسرى من الحيوان والانسان

ومن هذا يتضح لك أن لكل لفظ من هذه الالفاظ معنيين فالنفس تطلق على ذلك السر الالهى الذى لايعلم حقيقته الا الله وتطلق على مجموع الشهوة والغضب . والعقل يطلق على ذلك السر الالهى وعلى العلوم والمعارف. والقلب يطلق على ذلك السر ويطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل . والروح تطلق على ذلك السر وتطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة . فاذا سمعت قول الله تعالى (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء) أدركت أن معنى النفس هنا هو مجموع الشهوة والغضب لانهما هما اللذان يأمران المرء بالسوء ويسوقانه الى العصيان . واذا سمعت قوله تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) كان معنى النفس هنا ذلك السر الالهى الذى خلقه الله فى الانسان ليهديه الى سواء الصراط . واذا سمعت قول الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فهمت منه أن معنى القلب فى الآية هو ذلك السر الالهى لاقطعة اللحم الصنوبرية الشكل وهكذا كلما ذكر القلب فى كتاب الله أو سنة رسوله فانه يراد منه ذلك المعنى الا أن يعبر بقطعة اللحم ويراد منها السر المتعلق بها

وظيفة العقل والبدن

اذا علمت ذلك تبين لك أن الانسان ليس هو مجرد الجسم المركب من الدم واللحم والعظام والعناصر المختلفة المادّية لأن ذلك قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوان وانما الانسان هو مجموع امرين أحدهما ذلك الجسم المادى والآخر معنى زائد عليه يمتاز به الانسان عن الحيوان وذلك المعنى هو السر الالهى الذى تقدّم لك الكلام فيه وقد تضاربت الأفهام فى تصويره واختلف الناس فى بيان حقيقته ولكنهم حتى الآن لم يهتدوا الى بيان مستند الى دليل مادى يدل على حقيقة ذلك السر الذى به الادراك والتفكر على ان القدر الذى تستريح له النفس من ذلك هو أنه امر مجرد عن المادة متعلق بذلك الجسم المادى تعلقا معنويا. والمجرد عن المادة يعجز العقل عن ادراك حقيقته وماهيته وان عرفه بخواصه ومزاياه. على أن مميزات الانسان كلها فى الحقيقة مبنية على وجود ذلك السر الذى به الادراك والتفكير فبالعقل يكون الانسان محلا للمدح والذم وأهلا للمطالبة بالواجبات الدينية والتكاليف الشرعية وغير ذلك من شؤون الحياة الدنيوية والأخروية لهذا جعل الله له سلطة كاملة على البدن فلا يعصى له أمراً ولا يخالف له نهياً فان قال لليد تحركى فعلت وان أمر الرّجل بالمشى أجابت واذا قال للعين اغمضى أطاعت. وإذا قال للسان تكلم فعل وهكذا سائر أعضاء البدن فانها جنود مسخرة للعقل يتصرف فيها كملك مطاع لا يرد أمره. على أن له أعوانا تساعده على تدبير مملكة الجسم على الوجه الأكمل حتى يقطع مراحل الحياة آمنا من الخطر. فان أحسن تدبير مملكته وسلك السبيل التى سنها الله له فقد نجا. وإن أساء التدبير وحاد عن جادة الصواب واستسلم لعوامل الفساد كان من الهالكين. من ذلك تعلم أن وظيفة العقل هى الهيمنة على سائر أعضاء الجسم وان وظيفة الجسم انما هى الطاعة العمياء للعقل فى تصرفه

أعوان العقل

تنقسم اعوان العقل إلى قسمين قسم يشترك فيه الانسان والحيوان. وقسم يختص به الانسان فأما الأول فهو ثلاثة أمور: الاول قوة الحواس كالبصر والشم والذوق واللمس والسمع. ويتبع هذه الحواس الخمس قوى مخلوقة فى الدماغ كالخيال والحافظة فان الانسان بعد رؤية الشىء يغمض عينيه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال. ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب القوى الحافظة ونحو ذلك مما لا تتعلق بشرحه غرضنا الآن. ووظيفة هذه الحواس ادراك الأشياء وتعرفها

الثانى قوة الشهوة والغضب . وتلك القوة من أخطر القوى على العقل لأنها تنازعه دائما مملكته وتريد أن تتغلب عليها دونه فاذا لم يستعملها فيما خلقت لاجله ضاع ملكه وخسر نفوذه وعرض نفسه للشقاء فى الدنيا والآخرة . ووظيفة هذه القوة التى خلقت من أجلها هى الحث على جلب النافع ودفع الضار فالذى يحث على جلب النافع الى البدن هى الشهوة . والذى يحث على دفع الضار عنه هو الغضب

فالشهوة تدفع أعضاء البدن إلى طاعة العقل فيما يأمر به من العمل للحصول على مايرفع الألم ويحصل اللذة مهما كان العمل صعبا شاقا . وكذلك الغضب يهتاج بالاعتداء على العرض والمال والنفس والدين فيدفع الأعضاء للبطش بالمعتدى ومقاومة عدوانه طوعا لأمر العقل ولولا ذلك لهلك الانسان كما سيأتى فى باب الغضب . تلك هى وظيفة قوة الشهوة والغضب الحقيقية وذلك هو حدها الذى يطلبه الله من الانسان فاذا سمح العقل لها بالطغيان ومجاوزة الحد الذى رسمه الله لها فقد عرض نفسه للهلاك والردى واصبح الى الحيوان اقرب منه إلى الانسان فان تغلب عليه الغضب كان شبيها بالحيوان المفترس . وان تغلبت عليه شهوة البطن والفرج كان شبيها بالبهائم الأخرى التى لاهم لها إلا ملء بطونها وقضاء شهواتها من ذلك تنشأ الجرائم وترتكب الموبقات كما سيأتى مفصلا فاذا فقد الانسان حمية الغضب فلم يتأثر للاعتداء على دينه أو عرضه أو ماله كان جبانا واذا فقد الشهوة كان جمادا والكمال فى ان يستعملهما فيما خلقا لأجله وذلك هو الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الثالث هو القدرة وهى القوة المنبثة فى سائر الاعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار ووظيفتها تحريك العضلات الى تحصيل مايراد منها تلك هى أعوان العقل المشتركة بين الانسان والحيوان فان الحيوان لديه قوة الحواس وقوة الشهوة والغضب والقدرة . فالشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتفر منه كما يرى الانسان عدوه فيهتاج غضبه فيدفع عن نفسه

وأما القسم الثانى وهو مايختص به الانسان دون الحيوان فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية والارادة فان ذلك من خصائص الانسان وحده كما سيأتى فان الحيوان مهما أتيح له من التعلم لايستطيع ان يدرك المعانى الكلية الدقيقة التى يدركها العقل الانسانى بل كل مدركات الحيوان ترجع الى الحواس الظاهرة والباطنة فقط فلا يستطيع ان يقيس ماغاب عنه على ماحضر لديه . ولا يمكنه أن يستنتج من المقدمات النظرية شيئا بخلاف العقل الانسانى. أما وظيفة العلوم والمعارف الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فهى مساعدة العقل على سلوك سبيل السعادة والبعد عن طرق الشقاء فمن تعلم ماله وما عليه فى حياته وأدرك مايضره وما ينفعه فى دنياه وآخرته وعرف حقائق الأمور فوقف عند حدها فقد حصل على أكبر عون للعقل على كسر الشهوة والغضب فان الزانى مثلا اذا أدرك سوء مغبة الزنا من ضياع نسله وهتك عرض غيره وما يتبع ذلك من ضياع للمال وتعرض للأمراض القاتلة ومن وراء ذلك عذاب الله وغضبه اطاع العقل فى الكف عن الزنا وكذلك المريض الذى يعلم أن الأكل يؤذيه وقد يذهب بحياته فانه يطيع العقل فى الامتناع عن الأكل. وهكذا. وكذلك الغضب فانه إذا اهتاج وقف العلم أمامه فألزم صاحبه أن لايخرج عن الحد الذى سنه له الدين وتطلبته منه البيئة التى يعيش فيها فلا يخرجه عن

طوره ولا يدفعه الى اتيان مايخل بمروءته وشرفه . ولا يسوقه الى ظلم أحد من خلق الله . ولا يذهب به الى مجاراة الاشرار والفجار . ولا يفضى به الى الحقد . والحسد . والغيبة . والنميمة وغير ذلك من الأخلاق الفاسدة التى تترتب على طغيان الغضب وخروجه عن الحد الذى خلقه الله من أجله كما ستعلمه فى مباحث الغضب فالعلم والتفكير خير سلاح للعقل يحارب بهما الشهوة والغضب ويوقفهما عند حدهما فلا يخرجان عن وظيفتهما التى خلقا من أجلها وهى المعونة على تحصيل الحلال الطيب من اللذات . والحث على الدفاع عن النفس . والعرض . والمال . والدين . فاذا استطاع العقل أن يفعل ذلك فقد سلمت مملكته من الأخطار وقطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا . وعاش عيشة راضية مرضية . لايكون لأحد عليه تبعة ولا يخاف بعد ذلك عقابا فان الله تعالى يكون راضيا عنه ومن يرض عنه ربه فلن يشقى أبداً

الاصول التى تتفرع عليها صفات النفس

قد علمت أن الانسان مركب من جسم مادى وروح مجردة عن المادة وهو بذلك التركيب البديع قد اجتمعت فيه الصفات النباتية . والحيوانية . والربانية . والملكية . والشيطانية . فهو من حيث يتغذى ويتناسل نبات . ومن حيث الحس المخصوص والحركة بالاختيار حيوان — ومن لوازم الحيوانية الشهوة والغضب — ومن حيث العلم والمعرفة بحقائق الاشياء ملك وربانى . ومن حيث اجتماع الشهوة والغضب مع التميز شيطان لأنه يستعين على قضاء شهوته بالحيلة والمكر كالشيطان . ومن هنا يتبين أن أصول صفات النفس اربعة السبعية . والبهيمية . والشيطانية . والربانية فاذا غلب عليه غضبه التحق بالسباع والحيوانات المفترسة فأصبح شرسا يفعل كما تفعل السباع من العداوة والبغضاء والتعدى على خلق الله بالسب والضرب والايذاء وغير ذلك . واذا غلبت عليه شهوته التحق بالبهائم التى لاهم لها الا ملء بطونها وقضاء شهواتها فأصبح شرهاً فى مأكله ومشربه شبقا تدفعه شهوة الفرج الى ارتكاب الفواحش . واذا غلبت عليه صفة الربانية فانه ينبعث إلى معرفة حقائق الأشياء والوقوف على المعلومات الدينية والدنيوية وتلك هى خاصية الانسان التى امتاز بها على الحيوان وشابه بها الملائكة المقربين . فالعلم هو أجل معنى يوجد فى الانسان وأحسن معين للعقل على قهر الشهوة والغضب كما سبق ولولا العلم ماخلق الانسان . ألا ترى ان الله سبحانه وتعالى قال للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فلما علم سبحانه آدم اسماء الكائنات ومسمياتها وسأل الملائكة عنها فعجزوا عن الاجابة وسأل آدم فأجاب أدرك الملائكة أن النوع الانسانى يمتاز بصفة العلم وأن من كان هذا شأنه فهو جدير بالوجود والبقاء مهما ترتب على وجوده من المضار لان منفعة العلم وحدها ترجح على كل مايحيط بها وأفضل العلم ماكان موصلا لسعادة الدنيا والآخرة وما كان سببا فى ضبط الشهوة والغضب وعونا للعقل على اتباع سبيل الدين وسلوك طريق المهتدين

على أن صفة الربانية الموجودة فى الانسان لها طغيان أيضا فقد يعدو الانسان طوره وتحمله تلك الصفة على ادعاء ماهو خاص بالله وحده فيدعى الاحاطة بجميع المعلومات ويغضب اذا نسب اليه الجهل فى أمر من الأمور مع أن الاحاطة بجميع المعلومات مختص بها الله وحده اما الانسان فانه مهما أوتى من العلم فلا يصل إلا إلى القليل منه قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومع ذلك فقد يعجز عن إدراك أوضح الحقائق وأيسر الأمور وربما جهل ماهو بديهى عند غيره وذلك آية النقص وعلامة الحدوث فيجب أن يتنبه العقل لذلك ولا تحمله صفة الربانية على الغرور وادعاء مالا يقدر عليه ولم يخلق لأجله فاذا لم يتنبه لذلك فانه يتصف بكثير من الصفات الذميمة كالغرور وانكار الحق والجهل بكثير من الحقائق وغير ذلك

كذلك قد تحمله صفة الربانية على حب الاستيلاء على الناس وقهرهم واستعبادهم والتفرد بالرئاسة والاختصاص بالأمور الى غير ذلك مما هو مختص بالله وحده فذلك أيضا مما يجب التنبه له والوقوف عند الحد المقدور عليه للمكن وترك ماهو من اختصاص الواجب ورحم الله من قال — لكل امرئ من الناس حدّ وهلاك الفتى جواز الحدّ —

تلك هى أصول صفات النفس ويتفرع عليها كثير من الصفات الذميمة فيتفرع على طغيان صفة الشهوة اللازمة للحيوانية كثير من الصفات الفاسدة ومن هذه الصفات الوقاحة . والخبث . والتبذير . والتقتير . والريا . والتهتك . والمجون . والعبث . والجشع . والملق . والحسد . والحقد . والشماتة . ويتفرع على طغيان الغضب كثير من الصفات الذميمة أيضا ومنها التهوّر . وتحقير الناس . والاستخفاف بهم . والاعتداء عليهم ظلما . وإرادة الشر . وغير ذلك ويتفرع على طغيان صفة الشيطانية المكر . والخداع . والحيلة . والدهاء . والجراءة . والغش . والتلبيس . وتضليل الناس . والتغرير بهم . وغير ذلك . وكل هذه الصفات تتعلق بالنفس وتتراكم عليها فتصير طابعا يحول بينها وبين معرفة الله تعالى وادراك حقائق الأشياء على وجهها وإلى ذلك الاشارة بما رواه ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال «الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل فاذا انتهكت الحرمة وعمل بالمعاصى واجترئ على الله بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا » رواه البزار والبيهقى . وذلك لأن العقل هو الملك المتصرف فى جميع الجوارح والمسيطر على كل الحواس الظاهرة والباطنة فيجب أن تكون لديه الوسائل الكافية لتنفيذ أمره ونهيه والمحافظة على مملكته فاذا أهمل الوسائل التى يستعين بها على ذلك وتقهقر أمام شهوته وغضبه فان المعاصى تتراكم عليه وتطبع فيه كما ينطبع الخاتم فيفقد الصفة التى خلق من أجلها وهى تدبير البدن والسير به فى سبيل النجاة ولم يعد يعقل شيئا من واجبه الذى يجب أن يكون عليه وانعكست عليه القضية فأصبح محكوما بعد أن كان حاكما . مملوكا بعد أن كان ملكا . خادما بعد أن كان سيداً ولا همّ له بعد ذلك الا استنباط الحيل فى مرضاة شهوته وغضبه . ولا تفكير له إلا فى تحصيل مايتطلبانه منه لايبالى بنصيحة ناصح . ولا ينظر إلى موعظة حكيم . ولا يسمع لداع إلى هدى . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال انه لايعقل

شيء ؛ وذلك هو الظلم البين والضلال البعيد . قال تعالى : (أن لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون) وقال : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)

أما اذا تنبه العقل من أول الأمر واستعمل العلم والحكمة فى ضبط شهوته وغضبه ووقف لها بالمرصاد فلا يسمح لها بمجاوزة الحدّ الذى خلق له فانه يكون انسانا كاملا متصفا بأحسن الصفات وأجل الأخلاق إذ يترتب على ضبط شهوتى الفرج والبطن . العفة . والقناعة . والهدوء . والتقوى وحسن الهيئة . والحياء . والظرف وغير ذلك من مكارم الأخلاق . ويترتب على ضبط الغضب والوقوف به عند الحدّ الواجب من الدفاع عن العرض والنفس والمال والدين وما فى حكم ذلك صفة الشجاعة . والكرم . والنجدة . وضبط النفس . والصبر . والحلم . والاحتمال . والعفو . والثبات . والشهامة . والوقار . وغير ذلك . ومثال العقل فى ذلك كله مثال المرآة . وآثار الشهوة والغضب كالدخان الذى يتصاعد اليها فيطمس نورها وآثار العمل بالعلم والحكمة كالمعدن الذى يجلوها ويزيد فى صفائها والمرء إما شقى فتتغلب عليه الشهوة والغضب فيكون من الهالكين . وإما سعيد فيتغلب عليه العقل والحكمة فيكون من الناجين

الوساوس التى تعرض للنفس

ومما يجب على العقل أن يتنبه له ويكون دائما على حذر منه تلك الوساوس النفسانية والهواجس الشيطانية التى تهيج بها الشهوة ويثور بها الغضب فهذه هى من أعداء العقل التى يجب محاربتها . والقضاء على أسبابها المتولدة منها فان هذه الوساوس قد تتولد بسبب الحواس الظاهرة . أو الباطنة إذا أساء الانسان استعمالها مثال ذلك فى الحواس الظاهرة أن يطلق العنان لبصره فى النظر إلى مالا يحل له أو فى النظر إلى المباهات التى يترتب عليها تمنيات فاسدة ومحاولات غير مجدية كما اذا تعمد النظر الى امرأة حسناء لاتحل له أو الى غلام امرد جميل فان ذلك من بواعث تهييج الشهوة وإثارة الوساوس النفسانية . والهواجس الشيطانية التى قد تحمل ضعيف النفس على طاعة شهوته وقضاء لبانته فيسعى وراء تلك المرأة أو ذلك الغلام ان وجد لذلك سبيلا والا انتقل الى مايمكنه الحصول عليه ليرضى شهوته الهائجة ولا يبالى بارتكاب الفاحشة وكذلك قد ينظر الى مايملكه غيره من القصور الجميلة والحدائق الغناء ونحو ذلك فتدخل الى نفسه الوساوس الفاسدة وتزين له انه كان أحق بملك هذا وأن مالكها غير أهل لها فيترتب على ذلك الحقد والحسد والغيرة وما الى ذلك من الصفات الذميمة التى تضر بالمجتمع الانسانى ضررا بليغا . وقل مثل ذلك فى حاسة السمع فان الانسان قد يسمع صوتا حسنا من غانية او غلام فتهيج شهوته ويترتب عليها ماذكرناه فى المثال الاول ومثل ذلك اذا تعمد النظر الى ما يثير غضبه وهكذا فى سائر الحواس الظاهرة كلمس مالايحل او شمه

ومثال ذلك فى الحواس الباطنة أن الصور التى تدخل الى النفس بسبب الحواس الظاهرة تبقى فى الخيال ولو كف عن الاحساس فتترتب عليها الوساوس التى ترتبت على نفس الاحساس وقد تهيج الشهوة

بعامل داخلي محض كما إذا أكل كثيرا اوكان فى مزاجه قوة طبيعية تهيج بسببها الشهوة فان كل ذلك تتولد منه الوساوس النفسية والهواجس الشيطانية فواجب العقل بازاء ذلك أن يزجر الحواس عن كل مايترتب عليه ذلك فلا يسمح لبصره أن يتطلع إلى مايثير شهوته ولا ينظر الى مايحرك غيرته او يثير غضبه. ولا يسمح لسمعه أن يسمع مايهيج شهوته او يثير غضبه ومثل ذلك فى سائر الحواس. واذ قد عرفت أن الحواس الظاهرة والباطنة قد تكون سببا فى الوساوس الفاسدة والخواطر الضارة فاعلم ايضا أنها قد تكون على العكس من ذلك فانها اذا استعملت فى النظر الى مصنوعات الله تعالى مثلا والى نظمها وفى سماع المواعظ والحكم ونحو ذلك فانها تفضي الى خواطر روحانية وهواجس ربانية يترتب عليها اليقين بالله تعالى والبعد عن المعاصي والخطايا وتأييد القلب فى حكم الشهوة والغضب والسير بهما فى الطريق القويم والصراط المستقيم فالقلب بين عاملين قويين يتنازعانه. وساوس شيطانية. وخواطر ربانية ولكل منهما اسباب ظاهرة واسباب خفية. فأما الاسباب الظاهرة فانك قد عرفتها واما الاسباب الخفية فهى الشيطان والملك فاما الشيطان فانه يعد بالشر ويامر بالفحشاء ويخوف من هم بعمل الخير بالفقر وأما الملك فانه يكشف الحق ويعد بالخير ويامر بالمعروف كما قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فمن كان سعيدا فى دنياه وآخرته فانه يحارب وساوس الشيطان ووسائلها ويطرد عن نفسه مايضعفها من عوامل الشهوات والفساد والله ولى المؤمنين

مايؤاخذ عليه الانسان من تلك الوساوس

وما لا يؤاخذ

للانسان حالة قسرية لااختيار له فيها وتلك الحالة لايؤآخذه الله عليها لأن الله تعالى لايؤآخذ العبد على ماليس له فيه اختيار قال تعالى: (لايكلف الله نفسا الا وسعها) اما الحالة الاختيارية فانه يؤآخذ عليها إذا وصلت الى حدّ الجزم بالفعل ولنذكر لك مثلا يوضح ذلك المقام. اذا نظر المكلف إلى امرأة حسناء عفواً بدون قصد فهاجت شهوته فانه لايؤآخذ على ذلك رأسا لأن النظر لم يكن باختياره وهيجان الشهوة أمر طبيعي لااختيار له فيه أيضا فلا عقاب على شيء من ذلك فاذا أهاجت الشهوة وساوسه وتردد فى أنه يتبع هذه المرأة أو لايتبعها فانه لايؤآخذ على هذا التردد أيضا. فان جزم بذلك وهمّ بفعل الفاحشة ولكنه لم يفعل خوفا من الله تعالى كتبت له بذلك حسنة لأنه جاهد شهوته وقهرها بعد أن دفعته إلى أحرج المواقف أما إذا لم يفعل خوفا من أمر دنيوى أو لمانع آخر فانه يعاقب على مافى نفسه والى ذلك يشير قوله تعالى (إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وقوله صلى الله عليه وسلم «اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه» وهذا نص فى أن

ارادة قتل صاحبه جزما كاف فى العقاب فالذى يؤآخذ عليه المرء من حديث النفس هو الجزم بالفعل الاختيارى اما الخواطر التى تعرض وتزول ولا تترتب عليها آثار فهى كالخواطر الاضطرارية لامؤآخذة على شئ منها

أقسام الشهوة

تتنوع الشهوة الى أنواع شتى . شهوة الفرج . وشهوة البطن . وشهوة البنين . وشهوة المال . وشهوة الأنعام . وشهوة الحرث والزرع . وشهوة الجاه وبعد الصيت . وشهوة الحكم واستعباد الناس . وغير ذلك ولكن أشد الشهوات خطراً وأكثرها أثراً شهوة النساء . والأموال . والأولاد والى ذلك يشير قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) الآية فتلك هى الأمور التى يجرى الناس خلفها متزاحمين ويسعون وراءها مسارعين . فمنهم من يعرف القدر اللازم له فى حياته ويعرف الطريق السوى التى ينفذ منه اليها فلا يتعثر فى مشيته ولا يضل طريقه المستقيم وذلك هو الذى يغلب عقله على شهوته فلا يسمح لها بالطغيان ولا يرضى لها بالعصيان فيعيش سعيداً فى دنياه ويكون فى آخرته من الفائزين . ومنهم من يطلق لها العنان فلا يعرف لها حداً ولا يقف معها عند نهاية وذلك هو الذى تغلب شهوته عقله فيتخبط فى طريق الوصول اليها ولا يبالى أن يتعدى حدود الله التى حدها لها بل يصرف كل همه الى السعى وراءها من أى طريق والدخول اليها من أى باب ولو كان فى ذلك هلاكه وشقاؤه فى دنياه وآخرته وذلك هو الخسران المبين

شهوة الفرج

ركب الله تعالى فى الانسان شهوة الفرج تركيبا قويا وجعل لها عليه سلطة شديدة فاذا هاجت كانت أشد الشهوات عصيانا على العقل فلا تقبل منه صرفا ولا عدلا فاذا لم يكن قوى الارادة شجاعا انقاد لها صاغراً وأطاعها ذليلا . وانما جعل الله سبحانه تركيب هذه الشهوة على ذلك النحو من القوة والباس لما يقتضيه نظام الناس ويتطلبه بقاء العمران فى هذه الحياة الدنيا فلولا قوة هذه الشهوة وشدة سلطانها على الانسان لأبى أن يحتمل ما يترتب عليها من مشاق البيتوتة وتكاليف الزوجية وتربية الأولاد والكد من اجلهم والرضى بالآلام التى تنتابه اذا مرضوا أو أصيبوا بمكروه الى غير ذلك من

متاعب التربية وأثقالها. خلق الشهوة على هذا النحو من القوة من أوضح الدلائل على قدرة الخالق وكمال علمه وجليل حكمته فان الانسان مسوق الى التناسل رغم انفه مقهور على احتمال كل مايترتب عليه من العناء وهو مع هذا راض كل الرضى. وكذا المرأة فانها ما كانت لتستطيع حمل عبء الولادة والحمل ومشاق تربية الاولاد وهم صغار والسهر بهم الليالى والقيام على حراستهم ودفع الاضرار المكروهة عنهم وهم اطفال صغار واحتمال مايعتريها من الآلام وعدم الراحة لولا هذه الشهوة القوية وأيضا فان الله قد خلق النساء على حالة من الضعف لا يقدرن معها على احتمال تكاليف الحياة ومشاق الجهاد فى معتركها فسخر الله لهن الرجال يحملن عنهن كل مايعجزن عن احتماله فى سبيل حياتهن بدافع هذه الشهوة القوية ولولاها لما كان للنساء هذا السلطان على النفوس

الأسباب المثيرة لشهوة الفرج

وإذ قد علمت أن شهوة الفرج لها من القوة والتأثير هذه المنزلة وأنها إنما خلقت كذلك لحكمة يقتضيها نظام العمران وبقاء التناسل إلى الأمد الذى قدر له. فاعلم أن العقل مسئول عن تصريف هذه الشهوة والوقوف معها عند الحد الذى خلقت من أجله فلا يسمح لها بمجاوزة هذا الحد ولا يذرها تهيج بالوسائل المختلفة بل يجب عليه أن يبعد عن كل المناظر التى تحركها والاسباب التى تبعثها من مكمنها وأن يتبع معها سبيل الاعتدال فلا يفرط فيها ولا يفرط لأن الافراط فى شهوة الفرج تشبه بالبهائم والتفريط فيها تشبه بالجماد والاعتدال هو خير الأمور اللائقة بالانسان

أما الاسباب التى تثير هذه الشهوة وتهيجها فهى أمور. النظر. والخلوة. وحديث النفس. والغذاء الدسم الكثير. واستعمال بعض العقاقير والمخدرات وغيرها

النظر

فاما النظر إلى من لايحل سواء أكان أمرد جميلا أم امرأة حسناء فانه مثير للشهوة وموجب للوساوس النفسانية والخواطر الشيطانية المضعفة لقوة العقل فيتقهقر أمام هذه الشهوة ويفعل كل ماتطلبه منه ولو كان فيه هلكته وفناؤه لهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر الى من لايحل النظر اليه وقد ورد فى هذا أحاديث كثيرة. منها مارواه الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم او ليكسفن الله وجوهكم » ومنها مارواه أحمد باسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزنى » إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة النهى عن النظر إلى من لايحل النظر اليه. وليس النظر إلى الجمال فى ذاته منهيا عنه لأن الجمال دليل على عظم الصانع وبديع قدرته وانما المحرم النظر المفضى إلى تهييج الشهوة وطغيانها والتفكير فى الاسباب والدواعى التى تسوقه إلى إتيان الفاحشة والقضاء على العفة ومكارم الأخلاق ولذا لم

ينه عن أول نظرة تصادفه بدون اختياره فاذا وقع بصره على امرأة جميلة عفواً بدون قصد فانه لايؤآخذ على هذا ولو هاجت شهوته وإنما المحرم أن يتبعها بأخرى فيثير شهوته باختياره وينزل تحت حكمها ولا يبالى بحكم العقل والدين. ولذا روى عن جرير رضى الله عنه أنه قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال اصرف بصرك » رواه مسلم وأبو داود والترمذى فلم يرتب رسول الله ﷺ شيئاً على النظرة الاولى وإنما أمره بصرف بصره فلا يتبع الاولى بغيرها لأنه فى هذه الحالة يكون قد خضع لسلطان الشهوة وتعمد إثارتها ورضى أن يتبعها فيما تتطلبه منه وفى هذا من الخطر ماقد علمته . وكما أن النظر المفضى الى اثارة الشهوة حرام على الرجال فهو حرام على النساء أيضا فلا يحل لهن أن ينظرن الى رجل بشهوة ولو كان أعمى أما النظر بدون شهوة فانه لاحرج فيه فلو نظر الى غلام أمرد جميل أو الى وجه امرأة نظرا خاليا من الشهوة واللذة فانه ليس بحرام حتى ولو أدرك معنى الجمال فان هناك فرقا بين الانفعال الحاصل للنفس عند ثوران الشهوة وبين تكيفها بمعنى الجمال . مثلا اذا نظر الى شجر نضر . أو نبات منسق بالأزهار المختلفة . أو نظر الى ثريات الانوار المنتظمة فانه بلا ريب يدرك معنى جميلا تتكيف به نفسه ولكن لايبعثه هذا الادراك الى المعنى الذى تتطلبه الشهوة من تقبيل الازهار أو عناقها مثلا فالنهى على الحقيقة انما هو عن اثارة الشهوة والاندفاع معها الى مالا يحل . على أن الأولى للانسان البعد عن النظر الى ماعساه أن يهيج الشهوة على أى حال فانه قد يقع فى شراك الشهوة من حيث لايدرى وقد يترتب على النظر بلاء وفتنة للمرء لايستطيع الافلات منها كما اذا أوقعه النظر الى الجمال فى العشق والغرام ولم يكن له قدرة على الوصول الى معشوقه فانه فى هذه الحالة لم يستفد سوى تعذيب القلب وشغل النفس بما لايجديه نفعا وقد يوقعه ذلك فى أشد الأخطار وأصعب المحن كما وقع لكثير من العشاق الذين هلكوا بسبب الهجران أو أضاعوا دينهم وكرامتهم مرضاة لمعشوقيهم وذلك هو البلاء المبين

ويعجبنى فى هذا المعنى قول بعضهم .

وكنت اذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فينبغى للمرء أن لايجعل بصره رائداً لقلبه فيقوده الى مالا يستطيعه وفى هذا خطر جسيم. وبلاء عظيم

الخلوة

واذا كان النظر الى من لا يحل النظر اليه بقصد التلذذ به محرما فالخلوة بمن لاتحل محرمة من باب أولى لان الوساوس الشيطانية تجد لها مجالا فى هذه الحالة وثوران الشهوة يجد له مبرراً فيضعف العقل عند هذا ولم يكن له تأثير على زجر الشهوة فتسوقه الى ارتكاب الفاحشة كما يسوق الرجل دابته المطيعة لهذا نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لايخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » رواه البخارى ومسلم

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « قال إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحم قال الحم الموت » وقد فسر بعضهم الحم بأنه ابو الزوج وأخوه وعمه وابن عمه ونحوهم وقيل المراد أقارب الزوج أو أقارب الزوجة ومعنى قول رسول الله ﷺ الحم الموت أنه يموت ولا يفعل ذلك . وإذا كان فيه رواية عن نهى أبى الزوج عن الخلوة بامرأة ابنه مع كونه محرما فما ظنك بالقريب الذى ليس بمحرم لاشك أن فى ذلك منتهى الزجر عن الخلوة بالمرأة التى تشتهى ولو كان لايحل له تزوجها كأخت امرأته . وعمتها . وخالتها . وامرأة ابنه . بل وأم امرأته خصوصا عند فساد الزمان فان كثيراً من الناس أصبحوا عبيداً لشهواتهم وأصبحت أنفسهم ضعيفة لاتقوى على التفكير فى نتائج الفاحشة وفضائحها فخير للمرء ان يتجنب الوسائل التى تهيجها وتسلطها عليه

حديث النفس ووساوسها

وأما حديث النفس ووساوسها فقد تقدم الكلام فيه وقد علمت أنه إنما يترتب على الحواس الظاهرة . أو الباطنة كالنظر . واللمس . وغير ذلك إذا أسىء استعمالها فارجع اليه إن شئت

الغذاء الدسم أو شهوة البطن

إن شهوة البطن من شر الآفات التى تجعل المرء عرضة للأخطار وهدفا للأمراض البدنية والعقلية فهى سبب فى كثير من الأمراض التى تنتاب البدن وربما أفضت به إلى الهلاك كما أنها سبب فى بلادة العقل وضعف سلطانه على البدن. لذلك ورد فى السنة كثير من الأحاديث التى تنهى عن الشبع وملء البطن منها ماروى عن المقداد بن معديكرب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ماملأ آدمى وعاء شراً من البطن بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » رواه الترمذى وحسنه ورواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وفى هذا الحديث إشارة صريحة إلى أن الغذاء الذى يحتاج اليه الانسان فى قوام حياته يسير لايملأ ثلث المعدة وأن الاقتصار عليه نافع للانسان فان أبى إلا أن يأكل كثيراً فيجب أن لايزيد على ثلث المعدة ليترك الثلثين الباقيين للشراب والنفس وليس معنى كونه يترك الثلث للنفس أن يتنفس من المعدة كما قد يظنه بعض العامة بل المراد أن ملء المعدة ينشأ منه مضايقة الرئتين والقلب فيضر النفس ضرراً واضحاً

وهذا من أجل الحكم وأعظمها قدراً فان التجارب دلت دلالة قاطعة على أن معظم الأمراض التى تنتاب الانسان مصدرها المعدة وكثرة الطعام فكلما أمعن الناس فى التشهى والتفنن فى أنواع الطعام كلما كثرت امراضهم وتفشت بينهم الأدواء وكثير منهم يذهب ضحية الشره وملء البطن فلو فتشت القبور لوجدتها مملوءة بضحايا أكل اللحوم الكثيرة والأدهان والحلوى ونحوها وقد أجمع علماء الابدان

(الاطباء) على أن الغذاء الزائد على حاجة الانسان شديد الضرر وأن خير علاج للامراض الكف عن الشره وإعطاء المعدة القدر الذى تحتاج اليه من الغذاء

فاذا لم يكن فى الشره والأكل الكثير سوى ذلك الضرر المادى المحسوس لكان كافيا فى زجر النفس والوقوف بها عند الحدّ المطلوب منه فما بالك إذا كانت فيه غوائل أخرى تضر بالاخلاق وتؤثر فى الدين وتقضى على سلطان العقل . ومن أهمّ تلك العوامل أنه مثير لشهوة الفرج التى سبق الكلام فيها بل الشبع أشد تأثيراً فى تهييجها من النظر لان النظر أمر خارجى يستطيع العاقل أن ينصرف عنه بدون عناء . أما الشبع فهو أمر داخلى موجود مع المرء مادام شبعان. فاما المتزوج فقد تحمله شهوته على الافراط مع أهله فيضر بصحته ضرراً بليغاً وربما دفعه هيجان الشهوة والخضوع لمطالبها إلى ارتكاب الفاحشة مع غير زوجه شرها ولؤما . وأما الاعزب فان هيجان شهوة الفرج عنده من أخطر الامور عليه وأشدها ضرراً به فان سلطان العقل فى هذه الحالة يضيع وأمره ونهيه يذهبان سدى فاذا اعتدل الانسان فى غذائه واقتصر على القدر الذى يحتاج اليه بدنه ويكفى لمعدته اعتدلت شهوته واستطاع أن يوقفها عند الحدّ المطلوب منها

ومن مضار الاكل الكثير ثقل الجسم المفضى إلى الكسل وترك العمل المطلوب للدين والدنيا فان الاكول يزيد وزن جسمه فيثقل ويذهب نشاطه وخفته ويكثر نومه فلا يؤدّى واجبه على الوجه المطلوب منه

روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت « أول بلاء حدث فى هذه الامة بعد نبيها الشبع فان القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم » رواه البخارى فى كتاب الضعفاء . وقال رسول الله ﷺ « إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة » رواه البخارى ومسلم فالشره فى الطعام ضار بالابدان ضار بالعقول ضار بالدين لذلك نهت عنه الشريعة الاسلامية وحذرت الناس من شره وليس المراد النهى عن التمتع بنعم الله تعالى والطيبات من الرزق(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإنما المحرم هو القدر الضار بالابدان والعقول فالشريعة الاسلامية تنهى الناس عن استعمال وسائل الهلاك سواء كانت مادية أو معنوية وتحذر الناس تحذيراً شديداً من الافراط فى الشهوات على اختلاف انواعها وكذلك تنهى عن التفريط فيها فان الله سبحانه ماخلقها الا ليتنعم بها عباده ولكن الحذق والمهارة انما هو فى الوقوف معها عند الحدّ الذى خلقت من أجله ولا ريب فى أن القدر المباح من الشهوات الذى لايترتب عليه ضرر للجسم والعقل كاف فى النعيم بل هو عين النعيم وما زاد عليه شقاء وبلاء فان الانسان إذا أكل من كل شئ مباح يشتهيه قدراً يسيراً لايضايق المعدة فانه يتلذذ لذة لايعقبها ألم . ولا ينشأ منها ضرر وذلك هو معنى النعيم الصحيح أما اذا أفرط فى غذائه وأكثر من تناول الانواع المختلفة فقد كلف معدته حملا ثقيلا لاتستطيع النهوض به وكلف باقى أعضاء البدن مالا طاقة لها به وتلك لذة من شر اللذات لان عاقبتها بلاء وسقم فواجب على العاقل أن يمنعها ويكف عنها . وكذلك الحال فى شهوة الفرج وسائر اللذات

ومن هنا قال رسول الله ﷺ « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام فأولئك شرار أمتى » رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط . وبديهى أن ذلك الحديث يتضمن نهياً شديداً عن الشره فى الطعام والاسراف فى الشهوات . وانما النهى عن ذلك القدر الذى قررناه لك وهو الافراط فى الشهوات والخروج بها عن حدها الذى خلقها الله من أجله وهو ضار بالانسان ضرراً بليغاً خصوصا إذا أفضت به الرفاهية الى ترك الواجبات الدينية والدنيوية وأصبح لا يعنيه من حياته إلا التفنن فى أنواع الطعام والشراب والتفنن فى الزينة واللباس والتشدق فى الكلام الذى لا يفيد فانه فى هذه الحالة يخرج عن معنى الانسان ويكون أقرب شبهاً بالحيوان

استعمال العقاقير المهيجة لشهوة الفرج

من الناس من تستولى عليه تلك الشهوة وتملكه من جميع نواحيه فيصبح كالعبد المخلص لمولاه فى غيبته وحضوره لا يفكر الا فى طاعته ولا يعمل الا فيما يرضيه فترى كثيرا من هؤلاء تسكن فيهم تلك الشهوة بسبب طبيعى فيسعون فى اثارتها وتهييجها باستعمال العقاقير وتعاطى المخدرات وذلك منتهى الحماقة والجنون فانك اذا سمعت ان انسانا نام عنه عدوه وانصرف عنه فاذا به يسعى لايقاظه وإثارته عليه فانك لا تتردد فى الحكم عليه بانه مجنون لا ينضبط له عمل ولا يقام له وزن . كذلك شأن من تسكن شهوته بطبيعتها فيهيجها بالعقاقير والمخدرات فاذا هاجت اصابه من شرها فى دينه ودنياه ما كان فى مأمن منه وفى غنى عنه وعجيب أن مثل هؤلاء لا يفكر الواحد منهم فيما يعود عليه من الاضرار التى تنشأ من استعمال العقاقير والمخدرات فوق الأضرار التى تترتب على شهوة الفرج فان تلك العقاقير ينشأ منها للبدن أضرار قد تفضى به الى الهلاك فضلا عما يترتب عليها من التأثير على العقل ومخالفة الدين فشهوة الفرج اذا طغت وخرجت عن الحد الذى خلقت له تجر وارءها من البلاء والأذى مالا يقف عند حد . فيجب على المرء ان يجعل للعقل سلطانا كاملا على تلك الشهوة فلا يصرفها الا حيث يأمن غائلتها فى دينه وبدنه وماله فليس من الحكمة ان تسوقه تلك الشهوة الى تعاطى الحشيش والمخدرات والسموم التى يظن انها مثيرة لها فيقضى بذلك على عقله وبدنه وماله ودينه وكرامته وعند ذلك يندم حيث لا ينفعه الندم ولا تغنى عنه تلك الشهوة شيأ

الزنا واللواط

وشر مضار شهوة الفرج على النوع الانسانى الزنا واللواط ولهذا قد ورد النهى عنهما فى كتاب الله تعالى وسماهما سبحانه فاحشة قال تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) وقال تعالى فى توبيخ آل لوط (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) الآية وقد حرم الفواحش صريحا بقوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ولقد وردت فى النهى عن الزنا

واللواط أحاديث كثيرة منها ماروواه البخارى ومسلم وغيرهما « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» . وكفى بذلك زاجراً للزانى لأنه فى حالة زناه ينزع الله منه الايمان كما ورد فى حديث آخر رواه ابوداود عن ابى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «اذا زنى الرجل خرج منه الايمان فكان عليه كالظلة فاذا اقلع رجع اليه الايمان» فالزانى الذى لايتوب من جريمته ولايندم على فعلته لايعود اليه ايمانه ولايحسب فى عداد المؤمنين الذين يرجون رحمة الله تعالى ورضوانه. وكذلك اللواط فقد ورد فى النهى عنه احاديث كثيرة منها ماروواه الطبرانى فى الاوسط عن ابى هريرة ان رسول الله ﷺ قال « لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سمواته وردد اللعنة على كل واحد منهم ثلاثا . ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه . قال ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من ذبح لغير الله . ملعون من أتى شيأ من البهائم . ملعون من عق والديه . ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ملعون من غير حدود الارض . ملعون من ادعى الى غير مواليه» الى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة زجراً شديدا عن هاتين الجريمتين . وما كان الله تعالى ورسوله ليحرما على الناس لذة من اللذات الا لما يترتب عليها من المضار والمفاسد التى تلحق النوع الانسانى فتؤذيه ماديا أو أدبيا . ولا ريب فى أن مضار الزنا المادية والأدبية لاتخفى على أحد من العقلاء . ولكن سلطان تلك الشهوة الفاسى يلهى الزناة عن تلك المضار وينسيهم عظمة الله الواحد القهار الذى نهاهم عن اقتراف تلك الجريمة وأوعدفاعلها شر العقاب وسوء المصير . ولو قام العقل بأداء واجبه واستعرض المضار التى تترتب على الزنا وزجر تلك الشهوة البهيمية وحذرها عاقبة الزنا وشره فى الدنيا وعذاب الله فى الآخرة لوقفت عند الحد الذى خلقت من أجله وأمن الانسان شرها . فمن مضار الزنا وآثاره السيئة فى المجتمع الانسانى ضياع النسل والجناية عليه . فالزانى والزانية لو أدركا مافد يترتب على زنيتهما التى تنقضى على الفور من الآثام لهان عليهما أن يفنيا من هذا الوجود ولا يرتكبا تلك الجريمة فقد يترتب على عملهما وجود ولد قد تخنقه تلك العاهرة فى مهده . وقد تسقطه جنينا . وقد تلده إنسانا كاملا ثم تنبذه بالعراء معرضا لمحن الحياة ومصايب الايام . لايعرف له أماً تحنو عليه . ولا أبا يرحم طفولته ويحفل بتربيته وقد تقذف به الاقدار فى حضانة من يربيه على غير دين أبويه أو على أخلاق فاسدة فينشأ عضواً ضاراً بالمجتمع الانسانى وذلك بلاء عظيم وضرر مبين . فاذا كانت الزانية متزوجة كانت خيانتها أشد وجنايتها أعظم فانها تدخل عنصراً غريباً بين أبنائها تغش به زوجها وقد يكون فى آخر أمره تكية على الاسرة بتمامها فانه قد ينزع إلى أبيه الحقيقى ويتبعه فى أخلاقه وفساده

قد يقول بعض الفساق إنه يمكن اتقاء خطر حدا باستعمال الوسائل التى تمنع الحمل والولادة وتلك لعمر الله أشد ضرراً على المجتمع الانسانى وأكبر جناية على العمران فان هذه البدعة إذا فشت فى أمة انقرضت جميعها فى وقت قريب لانها تكون قد قضت بيدها على ذرينها ونسلها وحكمت على نفسها بأن تكون أقل إدرا كا من الحيوانات التى تتناسل وتتوالد لبقاء العمران الى الامد الذى أراده الله . وأى جناية أكبر من أن يصبح الانسان لاهم له فى هذه الحياة الا قضاء شهوة بهيمية

لايعرف لها غاية . ولايدرك لها ثمرة مع انها لم تخلق الا للتناسل وبقاء النوع الانسانى . فاذا وجد بين الناس ذئب من الذئاب او بهيمة من البهم لايقدر ذلك ولايحفل به فماذا يصنع فى الاعتداء على اعراض الناس وافساد أخلاق نسائهم وبناتهم وأهليهم بل افساد اخلاق نسائه وبناته واهله فى آخر الأمر واى وسيلة يتقى بها ذلك الخطر الايظن أن الجناية على الاعراض اشد ضرر اواسوأ اثرا من الجنايات على الأموال فان الرجل يسهل على نفسه ان يضحى ماله فى سبيل المحافظة على عفاف زوجه او بنته او اخته او اهله بل كثير من الناس يهون عليه الموت والفناء فى سبيل ذلك . فليتصور الزانى والزانية قبل الاقدام على تلك الفعلة الشنعاء أن أمرهما قد انكشف وأن الزوج او الأخ او الأب داهمهما وهما على تلك الحالة فماذا يكون موقفهما حينئذ . هل تبقى ثورة الشهوة وسلطانها فلا يحفلان بمن داهمهما او تخور عزائمهما وتنخلع قلوبهما وتكاد ارواحهما تزهق ولا يبقى للشهوة فى تلك اللحظة اثر كأنها لم تخلق فيهما من قبل ثم ليتصورا ماذا يكون حال ذلك الزوج المسكين او الاب او الاخ او القريب الذى يتعير بتلك الفاجرة افلا يهون عليه فى هذه الحالة ان يضحى بكل ماله ولو خير بين ضياع المال وهذه الحالة لاختار ضياع المال بلا نزاع وكثير من الناس يطيش لبه من هول ذلك المنظر فيقتلهما ثم يقتل نفسه وهو لايدرى . وليس ذلك من باب الفرض والتقدير وانما هو أمر كثير الوقوع بين الناس وقد تكرر غير مرة . وهذا يدل دلالة محسوسة على فظاعة تلك الجريمة وصعوبة اثرها على نفوس من لهم علاقة بالزانية فما بال الزناة لايقدرون ذلك حق قدره ويعلمون أنهم ان نجوا فى الدنيا من الفضيحة فأنهم سيفتضحون فى الآخرة وأنهم سيؤدون ثمن ذلك لأصحاب الحقوق غاليا يوم يسأل الظالمون عن اعمالهم ولا يجدون لهم وليا ولا نصيرا فيساقون الى جهنم وبئس المصير . ألا يعلمون انهم ان ستروا أنفسهم عن اعين ولاة امر الزانية فان الله مطلع عليهم وانه خبير بأعمالهم وانه لن يترك مثقال ذرة من حقوق العباد بل يأخذها من حسنات هؤلاء المجرمين ان كانت لهم حسنات او يحملهم سيئات ارباب الحقوق ان لم تكن لهم حسنات ثم يساقون الى العذاب الأليم . فاذا وجد فريق من الناس قست قلوبهم وعميت بصائرهم واصبحوا لايبالون بحقوق الناس ولا يستحيون من الله تعالى ولايحسبون حساب يوم كان شره مستطيرا افلا ينبغى لهم ان يحسبوا حساب نسائهم وذريتهم فان الزانى لابد ان يهجر زوجه ان كان متزوجا فيحملها ذلك على البغاء مثله ويكون هو وزوجه مثالا سيئا لذريتهما وفى ذلك من فساد الاخلاق مافيه وقد ورد ما يشير الى ذلك فى السنة المطهرة فقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم» رواه الطبرانى باسناد حسن . ومعنى هذا أن العفة تجعل الرجل قاصرا على زوجه فتستغنى به عن غيره ومتى كانت المرأة ذات عفاف والرجل صالحا ذا عفة . نشأ من بينهما ابناء صالحون وذرية تقتفى أثرهما وتقتدى بهما وذلك هو الأدب ومكارم الأخلاق التى يدعو اليها دين الاسلام ويأمر بها الناس فى كل حركة وسكون. فاذا وجد فريق من الناس لايبالى بنسل ولا يحفل بعرض ولايعنيه أن يفسد نساءه وذريته كما لايضره فساد نساء الناس وذراريهم فذلك مالا يصح اقناعه لأنه يكون قد انحط عن درجة حمار الوحش والقردة وغيرهما من بعض الحيوانات التى تغار على اناثها فاذا فشت هذه الروح فى أمة من الأمم — وهى روح الاباحة

والفوضى — فانها تزول سريعا . وتنقرض عاجلا ولا يبقى لها ظل فى الوجود . وأظن أن ذلك كاف فى زجر النفس عن الزنا فلا حاجة إلى تذكير الناس بما ينشأ من الأمراض التى تترتب على اختلاط الزناة ببعضهم ذلك الاختلاط الممقوت مهما اتخذوا من أساليب الحيطة والحذر فان ذلك الاختلاط لابد أن يكون له أثره على أى حال ولا ما ينشأ عن الزنا من ضياع الأموال والجرأة على ارتكاب المحرمات فانك ترى كثيراً من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة فاجرة واصبحوا لا قيمة لهم فى الوجود وترى كثيراً منهم قد فسدت كل أخلاقهم وأصبحوا أعضاء أشلاء بسبب هيامهم بزانية وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى فمن أجل ذلك حرمته الشريعة الاسلامية تحريما شديداً وقرنه الله تعالى بالشرك والموبقات الكبيرة فى قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب)

أما اللواط فانه رذيلة من أسوإ الرذائل وخصلة من شر الخصال التى لا تليق بالانسان فان الله قد خلق الانسان من ذكر وأنثى وجعل الأنثى محلا لقضاء تلك الشهوة ومكانا لذلك العمل الخاص فهو مسوق بفطرته إلى ذلك المعنى ومخلوق بحسب نظام الكون على تلك الحالة . واللواطة خروج غريب عن النظام الفطرى واعتداء صريح على ما تقتضيه طبيعة الانسان لانه يقلب الذكر أنثى ويجعل الرجل كالمرأة فى أخص أوصافها التى خلقت لها وذلك شر وبيل وفساد كبير . ومن أجل ذلك يقول الله تعالى توبيخا لآل لوط (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) ويؤخذ من تلك الآية الكريمة أنهم أول من خرج عن طبيعة الانسان فى ذلك فدفعتهم شهواتهم الفاسدة إلى تغيير خلق الله وقلب نظام الطبيعة فسنوا تلك العادة الشائنة وجعلوا الرجال محلا للشهوة التى اختصت بالنساء ومجيب أن نرى عدوى تلك العادة تنتقل من هؤلاء الأشرار — الذين خسف الله بهم — إلى غيرهم من النوع الانسانى مع أنها لم تكد توجد فى الحيوانات الأخرى . فانك لا تكاد تجد حيوانا من الذكور يأتى ذكراً مثله فى دبره اللهم إلا قليلا نادراً كبعض الحمر الأهلية على أن من الحيوانات من يشعر بعار تلك الخصلة ويحس بما يحيق بالمفعول به من الذلة والهوان . كالجمل فانه إذا أريد إذلاله يؤتى له بجمل آخر يركب فوقه ويحاول إتيانه ومتى فعل معه ذلك يصبح مكروبا ذليلا . وإلى ذلك تشير الآية الكريمة فانه تعالى يقول لهم إن تلك الفاحشة لم يسبقكم بها أحد من العالمين والعالم كل ما سوى الله فيشمل الانسان والحيوان

واذا كان الانسان تسوقه شهوته إلى أن يفعل ما تأباه نفوس الحيوانات العجماء فماذا يكون حاله . أليس من أكبر المصائب أن تنحط درجة الانسان فى شهوة الفرج عن درجة الحيوان . اللهم إن فى ذلك من الخزى والعار مالا تطيقه النفوس الكريمة . ولا تحتمله الطباع السليمة فاذا لم يكن فى رذيلة اللواطة سوى ذلك لكفى بها ذماً يصرف عنها الناس ويزهدهم فيها ولكنها فوق ذلك يترتب عليها من المضار والمفاسد ما يؤذى المجتمع الانسانى وينافى طبيعة العمران . واليك البيان. أولا إذا فشت تلك العادة فى أمة من الأمم وأصبحت داء خلقياً فيها لا تلبث أن تتعرض للفناء بانقراض

نسلها ولو بعد حين لأن الرجال فيها تنصرف لامحالة عن النساء فيقل النسل تدريجاً وتنقرض الأمة فى وقت ما . ثانيا أن اللائط يستغنى بالذكر عن المرأة فان كان متزوجاً يهمل زوجه فيعرضها للخناوالفساد . وإن كان أعزب لايفكر فى الحصول على زواج أبداً وإذا عمت اللواطة أمةاستغنت رجالها عن نسائها وأصبحت النساء ضائعات لايجدن موئلا . ولا يظفرن بمعين يرحم ضعفهن وفى ذلك من الخطر الاجتماعى والعمرانى مافيه .

لعل بعضهم يقول إن النساء كالرجال يمكن استعمالهن كذلك فالحاجة اليهن مستمرة . ولكن المعروف عن اللائط أن داءه يبعثه إلى الذكور خاصة . فداء اللواطة مآله الانصراف عن النساء على أىّ حال . ومع ذلك فان إتيان النساء فى غير محل الولد عادة مرذولة يترتب عليها ضياع النسل كما قدّمناه لك آنفاً . ثالثا ان اللائط لايبالى أن يستهوى الأحداث الذين لايدركون العار ولا يعرفون الفضيحة فيمرنهم على فساد الاخلاق ويولد عندهم ذلك الداء فاذا مابلغوا حدّ الرجولة وجدوا أنفسهم منغمسين فى الرذيلة فيضيع الحياء من وجوههم ولا يبالون بارتكاب الجرائم الاخلاقية ولا يتعففون عن المحرمات الدينية ويكون وزر ذلك فى عنق هذا اللائط الذى عمل على إفساد أخلاقهم وكان سبباً فى نزع ماء الحياء من وجوههم وذلك عظيم عند الله تعالى ومن يفعله يضاعف له العذاب يوم القيامة لأن عليه وزرين وزر ذلك العمل الشائن ووزر إفساد الغلام الذى لم يكلف فسحقاً لتلك الشهوة الفاسدة التى تخلف وراءها ذلك البلاء المبين والعار المهين

رابعاً أن داء اللواطة قد يوقعه فى الغرام بغلام لايستطيع الوصول الى اتيانه فيكون ذلك سببا فى تهتكه وضياع شرفه ودينه وعرضه ومروءته وقد يفضى به ذلك الى ارتكاب الجرائم الاخلاقية جميعها بدون مبالاة فيموت قلبه ويضيع حياؤه ويصبح عضواً فاسداً لايخشى فضيحة ولا يخاف عاراً وقد يكون ذلك سبباً فى هلاكه فى الدنيا وله فى الآخرة سوء العذاب

ذلك بعض مضار اللواطة وهى كما ترى لها من الأثر السىّ فى أخلاق الناس مايؤذى المجتمع الانسانى ويضر بطبيعة العمران . ومن أجل ذلك قال الله تعالى لآل لوط (بل أنتم قوم مسرفون) وقال لهم فى موضع آخر (بل أنتم قوم تجهلون) فانهم حقاً يجهلون نظام الطبيعة ونواميس العمران ويجهلون فوق ذلك مايترتب على ذلك العمل من المضار التى تؤذى المجتمع الانسانى كما علمت آنفاً ولقد غضب الله على آل لوط غضبا شديداً فلم يؤخر عذابهم الى يوم القيامة بل عذبهم فى الدنيا فطبق عليهم مدائنهم التى كانوا يسكنونها وجعل عاليها سافلها ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.فرحم الله امرءاً أثرت فى نفسه العظات وزجرته الزواجر فلم يجعل للشهوات الفاسدة القاتلة عليه سلطانا . وقاتل الله من اتبع غيه وهواه وانقاد لتلك الشهوة الذميمة حتى صار كالأنعام بل هو أضل سبيلا

شهوة المال

تفاوت أغراض الناس فى طلب المال

تختلف طباع الناس وأغراضهم فى طلب المال اختلافا عظيما كاختلافهم فى كل ما يرون فيه السعادة والنعيم فمنهم من يقدس المال فى ذاته ويعتبره مقصدا من المقاصد التى يجد فى الحصول عليه اكبر لذة ويرى فى المحافظة عليه أكبر نعمة وإن لم يصل به الى أى غرض من أغراض الحياة ماديا كان أو أدبيا بل همه منحصر فى كنزه وادخاره وهؤلاء هم البخلاء الذين يحرصون على القليل منه كما يحرصون على الكثير ويبخلون على أنفسهم وأهليهم بما قد يكون ضروريا للحياة ولا ريب فى أن طبائع هذه الفئة قد انعكست وأحوالهم قد تبدلت فهم يعيشون عيشة الفقراء ويحاسبون حساب الاغنياء ولقد ورد فى ذم هؤلاء كثير من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه فى مبحث البخل

ومن الناس من يطلب المال لينفقه فى سبيل شهواته سواء أكانت حلالا أم حراما ضارة أم نافعة وهؤلاء هم المبذرون الذين يجعلون المال وسيلة للشهوات الفاسدة واللذات القاتلة وهم أشد ضررا على أنفسهم وعلى المجتمع الانسانى من فريق البخلاء لأنهم سرعان ما يقضون على مالهم ويعيشون عالة على أمتهم فضلا عما تجره شهواتهم وراءها من الشرور والمفاسد

ومن الناس من يحصل المال ليكون ذا عظمة فى أعين الناس ومكانة فى أنفسهم كى يتصدرهم فى مجالسهم ويرأسهم فى محافلهم ويتقدمهم فى الشؤون العامة والخاصة ويسيطر عليهم فى احوالهم ويكون له السلطان التام . وهؤلاء قسمان قسم يظن أن المال وحده كاف فى ذلك فيحب العظمة من غير بذل والسيطرة من غير انفاق وهذا الفريق ينعكس عليه الغرض فان حب العظمة مع الشح سبب فى السخرية والاستهزاء ويعجبنى قول بعضهم

عثمان يعلم أن المدح ذو ثمن * لكنه يشتهى مدحا بمجان
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وقسم يبذل المال ليكون عظيما ذا نفوذ وسلطان وهذا الفريق اذا هذب مقصده وحسنت نيته فانه ينتفع بهذا الخلق انتفاعا عظيما فانه اذا أنفق الفضل من ماله فى أعمال البر والاحسان مرضاة لله تعالى فان الناس يعظمونه بطبيعتهم ويجلونه بفطرتهم والانسان أسير الاحسان وقد قيل

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فليس فى حاجة الى أن يشترى العظمة والجاه بالمال وإنما هو يشترى ما عند الله من الرضى والثواب وذلك وحده كاف فى حصول غرضه الذى يريده «وإنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرء مانواه»

أما من جعل المال وسيلة للعظمة والكبرياء واستعباد خلق الله واذلالهم فلا يبالى أن يرشى الحاكم ليستبد له بمن يريد ولا يبالى أن ينفق المال فى اغراء الأشرار على ايذاء من يحب ايذاءه ولا يبالى أن ينفق المال فى التنكيل بخصمه ظلما وعدوانا فذلك مفتون بماله فتنة شديدة نعوذ بالله من شرها لأن المال فى هذه الحالة يكون شرا وبيلا على صاحبه يفضى به لا محالة الى غضب الله وعقابه الشديد وذلك هو الخسران المبين

ومن الناس من يطلب المال ليستعين به على خيرى الدنيا والآخرة فيربى به ابناءه تربية صالحة تنفع المجتمع الانسانى ويصل به رحمه ويواسى منه الفقراء والمساكين وينفق منه على أعمال البر والاحسان ويحفظ به كرامته ويصون به عرضه ويستمتع منه بما أباحه الله له من الحلال الطيب من غير تبذير ولا تقتير ينفق منه ما فرضه الله عليه وهو قرير العين منشرح الصدر . فذلك هو الموفق الذى يكون المال له مطية للآخرة وسفينة للنجاة ينفعه فى حياته وبعد مماته ويخلد له ذكرى صالحة فى الدنيا وله عند ربه أحسن الجزاء

مدح المال وذمه

والكلام فى السعادة

أما وقد علمت تفاوت أغراض الناس فى جمع المال وتباين مقاصدهم ونزعاتهم فى الحصول عليه فانه يمكنك أن تمدحه وتذمه باعتبارين مختلفين فكلما كان الغرض شريفاً والرغبة صحيحة كان المال ممدوحا وبالعكس . وكذا الحال فى جميع أحكام الشريعة الاسلامية وقضاياها فانها إنما تنظر إلى جلب المصالح ودرء المفاسد كما تقدم .

فيمدح المال إذا كان طريقا للخير ووسيلة للسعادة الحقيقية وهى النعيم الدائم الذى لا يفنى والملك المقيم الذى لن يزول . وذلك هو نعيم الجنة فى الحياة الآخرة . ومن أجل ذلك قال الله عز وجل (وأما الذين سعدوا ففى الجنة) الآية أما ماعدا ذلك من لذات الدنيا ونعيمها فان الحصول عليه ليس سعادة حقيقية لانه مقترن بالفناء . والجهل . والعجز . والفقر . والسعادة انما تتحقق بالبقاء الدائم . والعلم الكامل . والقدرة بلا عجز . والغنى الذى لا يزاحمه الفقر . ولن يكون هذا إلا فى الدار الآخرة حيث يكون النعيم الدائم والملك المقيم

ولقد جعل الله سبحانه سعادة الآخرة مرتبطة بوسائل فى هذه الحياة الدنيا لا تدرك إلا باتباعها ولا تنال إلا بالحصول عليها قال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) الآية فاذا سميت وسائل السعادة سعادة كانت جديرة بهذه التسمية

أما وسائل السعادة فهى أمور منها الفضائل النفسية . والأخلاق الدينية الكريمة التى حث الدين على التخلق بها . وأصول هذه الفضائل أربعة أشياء . الأول العقل وانما يكمل العقل بالعلم . الثانى العفة وانما تكمل بالورع . الثالث الشجاعة وانما تكمل بالمجاهدة . الرابع العدل والانصاف

ومنها المال الحلال اذا أنفق فى طريق حلال . ومنها الصحة . والعافية اذا استعملت فى طاعة الله . فتلك أهمّ وسائل السعادة الأخروية وما عداها تابع لها ومتفرع عليها فيجب على العاقل أن يسعى لاستكمال فضائل نفسه فيتعلم العلم النافع الذى هو أكبر عون للعقل على سلوك الطريق القويم وأن يتخلق بخلق العفة كى يقف مع الشهوات عند الحدّ الذى خلقت من أجله فلا يذرها تطغى عليه . وأن يتورع عما فى أيدى الناس من متاع الدنيا ولذاتها مما لايحل له . وأن يكون شجاعا يناضل عن الفضيلة. فيقول الحق . ويفعل الحق . ويدفع عن المجتمع الانسانى كل مايضره فى دينه وماله . وعرضه . وأن يعدل فى قوله وفعله فينصف الناس من نفسه ومن غيره وأن يعمل على مايحفظ صحته ويصونها من الضعف فلا يفرط فى الشهوات الضارة ببدنه ولا يعمل مايؤذيه كى يقوى على أداء الحقوق الدينية وأن يسعى لتحصيل المال من طريق حلال كى يستعين به على أداء الواجبات الدينية والحقوق الانسانية من حج . وصدقة واغاثة ملهوف . واعانة بائس . وخدمة وطن. بانشاء الأعمال الخيرية من مساجد . ومعاهد . وملاجئ يأوى اليها اليتيم والمضطر الى غير ذلك من أعمال البر والاحسان فان المال هو الذى يستطيع به مريد السعادة أن ينفقه فى كل هذه الأمور وقد يساعد المال على تحصيل الفضائل النفسية أيضا فان صاحب المال يسهل عليه الحصول على العلم والعفة ووسائل الصحة أكثر من غيره فمن فعل ذلك وهو مؤمن فقد أطاع الله تعالى وسعى للآخرة سعيها فكان سعيداً موفقاً فمن هذه الجهة يكون المال ممدوحا كل المدح لأنه فى هذه الحالة يكون وسيلة هامة من وسائل السعادة التى يجب على كل مؤمن أن يسعى لها ويعمل للحصول عليها

من أجل ذلك سمى الله تعالى المال خيراً فى مواضع من القرآن الكريم قال تعالى : (ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) الآية والخير فى اللغة ضد الشر وهو قسمان خير مطلق وهو ما كان مرغوبا فيه من جميع نواحيه كالفضائل النفسية وخير مقيد وهو ما كان مرغوبا فيه من جهة دون جهة كالمال الذى نتكلم فيه فانه قديكون خيراً لشخص . وشراً ووبالا على آخر كما علمت. لهذا قال رسول الله ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد والطبرانى بسند صحيح وقال تعالى ممتناً على بعض عباده (يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين) الآية الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مدح المال . أما ماورد منها فى ذمه أو ذم الدنيا فهو محمول على ماأذا أنفق فى غير طريقه . أو جاء من طريق حرام وكذلك الأحاديث الواردة فى ذم الدنيا فاذا سمعت حديثاً فيه ذمّ للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالات المذمومة التى تنشأ من المال واذا سمعت حديثا فيه مدح للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالة الممدوحة التى يساعد عليها المال . وذلك لأن الشريعة الاسلامية على صاحبها أفضل الصلاة . وأزكى التحية . كالطبيب الحاذق الذى يصف لكل حالة علاجها ولا يتعلق له غرض بعقاقير الدواء فى ذاتها وانما كل همه منصرف الى محاربة المرض ونجاة المريض فكل ماتعنى به الشريعة الاسلامية انما هو تأديب النفوس وتطهيرها من أدران الشهوات وأقذارها والعمل فى هذه الحياة على ماتقتضيه الحكمة وتتطلبه مكارم الأخلاق يدل على ذلك ماروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وانفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة يقول الله (كلما خبت زدناهم سعيراً) » رواه البيهقى وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقه بورك له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار » رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات

فهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن جمع المال من طريق حلال وانفاقه فى طريقه المشروعة ممدوح فى نظر الشريعة الاسلامية يثاب عليه فاعله ويدخل به الجنة . اما جمعه من طريق حرام وانفاقه فى الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة على الوجه الذى بيناه لك فانه مذموم ولصاحبه النار يوم القيامة . وأشار رسول الله ﷺ بقوله خضرة حلوة الى أن اللون الأخضر يلفت النظر لوضوحه . والحلاوة تجذب الانسان اليها . فالدنيا مرغوب فيها بطبيعتها تجذب اليها الناس قسراً ولكن الوصول اليها محوط بالأخطار . وفى الانسان عوامل الشهوات ودواعى اللذات تسوقه اليها سوقا عنيفاً فالعاقل هو الذى يتقى مواطن الخطر ويحذر طرق الهلاك فلا يندفع أمام شهواته الى تحصيل الدنيا من أى طريق لايرضاها العقل ولا يقرّها الدين بل يعمل بجدّ واجتهاد فى الوسائل المشروعة التى بينتها له الشريعة وبذلك يحصل على ماقدر له وهو آمن مطمئن ولذلك يشير عليه الصلاة والسلام فى الحديث بقوله « من اكتسب فيها مالا من حله وانفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته . ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان » وهى جهنم وبئس المصير . وقد أشار الحديث الى الانفاق فى غير حقه بقول . رب متخوض فى مال الله ورسوله . أو رب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة الا النار . فذلك هو الذى جعل المال ذريعة الى الخوض فى الشهوات . والانغماس فى اللذات واستعماله فيما يؤذى خلق الله واتخذه آلة للطغيان ووسيلة للعصيان فهذا لاينفعه ماله الكثير الذى يخوض فيه خوضاً . ولا تنفعه لذاته الكثيرة التى ينعم بها بل تضره ضرراً شديداً وتهلكه هلاكا مبيناً لأنها فانية زائلة ومن ورائها عذاب النار .

من ذلك تعلم تأويل الأحاديث الواردة فى الزهد فى الدنيا بما يطابق أغراض الشريعة الاسلامية واسرارها . فاذا سمعت ماروا ابن أبى الدنيا عن عبد الله بن عمر من قول النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لايصيب عبد من الدنيا شيئاً الا نقص من درجاته عند الله وان كان عليه كريما » . فانك تفهم منه أن المراد بالدنيا هى التى تشغله عن عمل له عليه أجر فيضيع ذلك الأجر منه ولا ينتفع بها فى وجه من وجوه البر ولا يستعين بها على عمل الخير فيعوّض مافاته من الأجر .

يرشد الى ذلك معظم الاحاديث الدالة على الاجمال فى طلب الرزق ونحوه فانها ترمى كلها الى شئ واحد وهو التحذير من الحرام . خذ مثلا قول النبى ﷺ « ياأيها الناس ان الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وان الله عز وجل يؤتى عبده ما كتب له من الرزق فأجملوا فى الطلب

خذوا ماحل ودعوا ماحرم » رواه ابو يعلى فهذا نص فى التحذير عن الحرام وانه يجب على العاقل أن لاتدفعه شهوة المال والحرص على الغنى الى كسبه من طريق حرام وكذلك سائر الأحاديث الواردة فى ذلك الموضوع فانه يجمل تطبيقها على ما بيناه لك لأنه هو الذى يطابق احكام الدين من جميع الوجوه وجملة القول فى ذلك ان كسب المال والمحافظة عليه ان كان من طريق ترضاه الشريعة الاسلامية وتحث عليه فهو ممدوح وصاحبه مأجور وان كان على العكس من ذلك بان يكسبه من طريق حرام وينفقه فى لذاته المحرمة وشهواته الفاسدة ويستعين به على الاضرار بالناس ويحمله على الظلم والطغيان والعظمة والكبرياء فهو مذموم. أما من لاينفق فى هذا ولا ذاك فهو البخيل ويقابله الكريم وهو عكس البخيل ويتعلق بالبخل والكرم حالة أخرى وهى الاقتصاد او الاسراف والتبذير ما يتعلق بالرغبة فى المال العفة والحرص والطمع وسنعقد لكل منها مبحثا خاصا نذكره فيما يلى

الاقتصاد

هو ادخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة اليه . ولقد علمت فيما مضى أن للمال جهتين . جهة مدح. وجهة ذم . فاما الأولى فهو مااذا أنفق فى سبيل السعادة الأخروية التى سبق بيانها فى مبحث مدح المال . ومنها الاستعانة به على حفظ العرض . والنفس . والدين . والتعفف عن الشهوات المحرمة . والزهد عما فى أيدى الناس . وكذلك الاستعانة به على أداء الواجبات الدينية من حج وزكاة . وصلة أرحام . وانقاذ حياة انسان من الهلاك ونحو ذلك مما يوصل الى السعادة الخالدة والنعيم المقيم فانفاق المال على هذا الوجه لازم ضرورى لايتصور فيه اقتصاد ومن يضن بانفاق ماله فى سبيل السعادة الخالدة فهو اما شحيح لايعرف الغرض الصحيح من جمع المال والمحافظة عليه . واما مبذر ينفق ماله على اللذات الفانية . والشهوات الفاسدة التى لانتيجة لها الا الافلاس والبؤس فى الدنيا والشقاء يوم الدين فهناك حالتان . ضن بالمال وشح . فلا ينفق على الواجبات الضرورية . ولا على اللذات والشهوات وتبذير واسراف بان ينفق فى سبيل اللذات والشهوات وهاتان الحالتان مذمومتان وانما الممدوح هو الوسط وهو انفاق المال فى سبيل السعادة التى ذكرناها ويتبعه الانفاق على الأهل والولد من غير تبذير . ولا تقتير . أما ماعدا ذلك من زخارف الحياة وزينتها . كالقصور والرياش الفاخرة والسيارات . والجياد المطهمة . وزيادة الخدم . والتفنن فى أنواع الطعام . والشراب . واللباس . وغير ذلك من أنواع اللذات فانه مباح مادام منطبقاً على قواعد الدين لايخرج عن حدوده لأنه حينئذ يكون من طيبات الرزق والله تعالى يقول (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) انما تكون حراما إذا ترتب عليها حرام كأن ينفق فى سبيلها مالا يحتمله ماله فيفضى به

ذلك إلى الافلاس فى تجارته . أو زراعته . أو صناعته . أو غير ذلك لأن ذلك هو التبذير الحرام الذى نهى عنه الله ورسوله كما ستعلمه بعد هـذا . وكذلك إذا استغرق الانفاق على هذه الكماليات كل ربحه فيضر برأس ماله فلم يستطع القيام بالواجبات الدينية أوالعمرانية ولم يتمكن من ادخار شئ ينفعه عند الحاجة اليـه . أو ترتب عليها ضياع مال الناس كما إذا كان مدينا لغيره فانفق ماله فى تلك الزخارف واللذات . أو ترتب عليها اغراق فى الرفاهية ومبالغة فى التنعم فقسا قلبه بذلك وانصرف عن طاعة ربه او تكبر على خلق الله تعالى الى غير ذلك من الآثار السيئة التى لايقرها الدين ولا ترتضيها شريعة سيدالمرسلين عليه الصلاة والسلام

وبالجملة فان زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها ونعيمها متى كانت حلالا طيبا ولم يترتب عليها إسراف أو خروج عن دين الله تعـالى فانها مباحة فى نظر الدين والا كانت حراماً

ومن هـذا البيان يمكنك أن تعرف معنى الاقتصاد ومعنى التبذير . والاسراف فى نظر الدين فقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « التبذير إنفاق المـال فى غير حقه »ومعنى هذا أن المبذر يجهل مقادير الحقوق التى تستوجب انفاق المـال فيتجاوزها إلى غـيرها أو يعلمها ولـكن تدفعه شهواته إلى مجاوزتها ومعنى التبذير والاسراف واحد فى نظر الدين لأن مآلهما واحد وهو إنفاق المال فى غير موضعه وإن كان بينهما فرق فى اللغة وهو أن الاسراف جهل بمواقع تلك الحقوق أى أنه ينفق ولا يعرف كيف ينفق بخلاف التبذير فانه جهل بمقادير تلك الحقوق كما علمت فالأول جهل بالكم والثانى جهل بالكيفية . وروى عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد أن الاسراف هو الانفاق فى المعاصى والقتر هو الامساك عن الطاعات . وقال عون بن عبد الله الاسراف أن تنفق مال غيرك وكل ذلك يشمله كلامنا الذى أوضحناه لك آنفاً

أدلة الاقتصاد

ورد النهى عن الاسراف والتبذير والحث على الاقتصاد فى كتاب الله وسنة رسوله فمن ذلك قوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) ومعنى قواماً وسطا وعدلا .وقال تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً)

فالآية الأولى حثت على الاقتصاد وهو الانفاق الممدوح الذى بيناه لك . والآية الثانية نهت عن التبذير وهو الانفاق المذموم الذى علمته وفيها إشارة إلى ما ينبغى الانفاق عليه وهو أن يكون فى سبيل البر والخير وقياما بالواجبات التى فرضها الله تعالى على عباده كحقوق الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ولقد ذم الله المبذرين فجعلهم إخوان الشياطين وقرناءهم فى كفران أنعم الله تعالى التى

أنعمها عليهم فبدلا من أن يشكروه سبحانه عليها بامتثال امره فى شأنها فانهم وضعوها فى غير موضعها فانقلبت عليهم نقما وكانت نتيجتها العذاب مع الشياطين . ومن ذلك ماأخرجه الترمذى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة » ومعنى الحديث أن هذه الخصال من شمائل أهل النبوة وجزء من أجزاء فضائلهم فينبغى الاقتداء بهم فيها . ولا ريب فى أن هذه الأمور جديرة بأن تكون من أخلاق النبيين لما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات فأما السمت الحسن وهو الهيئة الحسنة فان صاحبه يكون محبباً عند الناس لاتنفر منه طباعهم ولا تستنكره أنفسهم فيقربونه منهم ويستفيدون منه ويستفيد منهم . وأما التئد فى أموره التأنى فى أقواله وأفعاله فان كل مايصدر عنه منها يكون مأمون العاقبة لايترتب عليه ضرر لنفسه ولا لغيره فلا يسارع فى إساءة الناس ولا يستعجل فى إيصال المكروه اليهم ولا يعمل مايعود عليه بضرر أدبى أو مادّى فهو دائما حافظ لسانه ويده فلا يقدم على أمر إلا إذا درسه من جميع نواحيه ولا يدخل فى مأزق لايستطيع الخروج منه ولا يستمسك عليه أحد بذلة ولا يؤآخذه بخطأ وذلك هو العاقل الذى يزن أموره بموازين الحكمة والصواب .

وأما المقتصد فهو دائما عزيز الجانب كريم النفس لاتدفعه الحاجة إلى أن يذل لغنى يستدين منه . أو يستجديه . ولا تضطره الشهوات إلى الملق والنفاق لمن يظن أنه يسد حاجته ولا يسوقه التوسع فى المأكل والمشرب والمسكن وغيرها إلى الجبن والصغار . ولاتزين له عوامل الزينة والزخرف اقتراف الحرام أو جمع المال من أى طريق . ولا تذهب به الرغبة فى سكنى القصور إلى قول الزور . ولا تحمله الرفاهية على مساعدة المبطلين والتنكيل بالأبرياء والمظلومين . ولا يقضى عليه ذلك النعيم الزائل بافناء ذاته وتضييع كرامته فى سبيل الحصول عليه إلى غير ذلك من الصفات الذميمة التى تنشأ عن الاسراف والتبذير . ويحسمها الاقتصاد . من أجل ذلك كان الاقتصاد من أخلاق النبيين وحث الله عليه فى كتابه الكريم

الشح

تعريفه

الشح هو الامساك حيث يجب البذل سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال والنفقة على الزوج والعيال ونحوهم ممن تجب عليه نفقتهم . وكذلك الانفاق على احياء نفس يتوقف عليه احياؤها ونحو ذلك . او كان واجبا مروءة بأن ينفق ماينا سب حاله فلا يليق أن يكون ذامال كثير ثم يبخل على نفسه بالطيبات

من الرزق. او يضيق على أولاده وأهله فيحرمهم من انعم الله تعالى. او يضيق على ضيفه .او يسقط كرامته فى اعين البيئة التى يعيش فيها كأن يسفل فى مسكنه او ملبسه او مركبه او ينحط الى مرتبة لاتليق به فى المعاملة فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس اياه ونحو ذلك. فاذاحفظ الانسان نفسه من هذا لايكون بخيلا فى نظر الدين اما كونه كريما فى نظر الناس فذلك تابع لحالة الرجل المالية وتفاوت انظار الناس فى تقدير الكرام فمن كان ذا مال كثير أو متوسط ثم أنفق منه ماينا سبه كان كريما فى نظر الناس أما من كان ذامال كثير فاقتصر فى الانفاق منه على الواجب دينا ومروءة فانه لايسمى كريما عندهم خصوصا اذاوجد بجواره من يبذل كثيرا من ماله فى سبيل البر كتشييد المدارس وتعمير المساجد وتربية الأيتام وبناء المصحات ونحو ذلك فان الذى يقتصر فى الانفاق على الواجب مع كثرة ماله يعده الناس فى جانب هذا بخيلا وان ارتفع عنه مايترتب على البخل من المؤآخذة الدينية .هذا ولا بد فى الكرم من أن يكون صاحبه مدفوعا بطبيعته كما تقدم فمن بذل المال تكلفا بسبب قسرى كأن يرغمه عليه حاكم اولغرض من الأغراض الأخرى كالحصول على جاه او رتبة اومدح اوشهرة فانه لايكون كريما

مضار الشح

وآثاره السيئة بين الناس

شر مضار الشح وأكبر آفاته فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتوادّ من بينهم وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك لأن الشحيح يبغض التعاون بطبيعته ولا تسمح نفسه ببذل شئ من ماله ولو يسيرا لمساعدة الضعفاء فتمتلئ قلوبهم ضغنا عليه وتثور انفسهم حسداً عليه فاذا فشى الشح فى أمة كانت نتيجته فوضى الاشتراكية التى يترتب عليها سفك الدماء واستحلال المحارم لذلك يشير قول النبى ﷺ «وإياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » من حديث رواه ابو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا أمرهم عن الكف عن معونة الناس وقيل الشح الحرص على ماعند غيره . والبخل الحرص على ماعنده. وكذلك قوله ﷺ «اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على ان يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » رواه مسلم

فذلك صريح فى أن الشح خطر اجتماعى كبير يترتب عليه هلاك الامم وفناؤها لأن الانسان بحسب تكوينه الطبيعى وفطرته التى فطره الله عليها محتاج الى التعاون مع غيره فى هذه الحياة فلا يمكنه

أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفرداً بل لابد له من ذلك في الاستناد الى غيره والتعاون معه في كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى في التراب. وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره فتراه في حال طفولته محتاجا الى غيره في كل شيء فاذا ما نشأ وترعرع استقل في بعض أموره ولم تنقطع حاجته في البعض الآخر حتى بعد أن يبلغ أشده وتتعلق به تكاليف الحياة التي تسوقه الى مزاحمة غيره في وسائلها فانه لا يمكنه أن يقطع مراحلها الا بمساعدة غيره والتعاون معه

ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الانساني وبقاء العمران وكذلك التراحم بين الناس بان يرحم قويهم ضعيفهم ويساعد غنيهم فقيرهم ويواسي صحيحهم سقيمهم فانه لازم من لوازم الانسانية والشح ينافي التعاون والرحمة جميعا فمحال على الشحيح ان يعين غيره وهيهات ان تجد الرحمة الى نفسه سبيلا لأن الشح يدعوه الى أن يقاطع ارحامه وأقرب الناس اليه واعلقهم به فضلا عن البعيدين عنه. يدعوه الى القسوة والغلظة فلا يغيث مكروبا ولا يعين ضعيفا ولو توقفت حياته على معونته. يدعوه الى أن يكسب المال من اى طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام. يدعوه الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شيء منه ولو كان من أبنائه وأهله وقد يفضي به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء. يدعو الناس الى كراهة صاحبه والحقد عليه وهم لا يتأخرون عن أذيته متى وجدوا لذلك سبيلا. فلا ريب في أن الشح من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الانساني وتقضي على صلاح العمران وهلاك الأمم لا محالة كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام. ومن أجل ذلك فرض الله على أرباب الأموال أن يجعلوا للفقراء جزءا من أموالهم قال تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) كما فرض عليهم التعاون على البر والتقوى قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقد حث رسول الله ﷺ على التراحم بين الناس فقال «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» من حديث رواه البخاري ومسلم. وقال لا تنزع الرحمة الا من شقي رواه ابو داود وغيره الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على ضرورة التراحم بين الناس والحث على التعاون في جميع شؤون الخير والشحيح لا يبالي بأمر الله ولا يتأثر بزجر رسول الله ولا يعنيه في سبيل الحرص على ماله. أخربت الدنيا أم عمرت. أشقي الناس أم سعدوا. أضلوا أم اهتدوا وذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من الشح فقال «اللهم انا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات» رواه مسلم وغيره

ونحن نستعيذ مما استعاذ منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنسأل الله الوقاية من الشح إنه سميع الدعاء

هل الشح صفة
طبيعية فى الانسان

هو رذيلة من الرذائل النفسية وصفة منحطة من أسوإ صفات الانسان تنشأ غالبا من فرط الحرص على المال والأمل فى استمرار الحياة والخوف من الفاقة والفقر وهل هو صفة طبيعية لازمة لبعض الأنفس فلا ينفع فيه العلاج . أو هو صفة عارضة تأتى وتزول وينفع فيها العلاج رأيان لعلماء الأخلاق. فمنهم من يقول إن بعض صفات النفس صفات طبيعى كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعور والصمم وغير ذلك . وبعضهم يقول إنها صفات عارضة تأتى وتزول . والواقع أن بعض صفات النفس قد تتمكن منها وتتملكها من جميع نواحيها لأسباب مختلفة فتصبح لازمة لها فيتعذر زوالها . لافرق بين أن تكون صفة مدح كالحلم والكرم . أو صفة ذم . كالبخل والحسد فاننا نعلم من أحوال بعض الكرماء . والبخلاء مايجعلنا نجزم بذلك . فمن الكرماء من لايبالى بذهاب كل ماله وروحه فى سبيل الكرم ولا يمكن أن ينثنى عن ذلك بأى حال ومن البخلاء من يضحى شرفه وكرامته ويعيش بائساً متسولا فى سبيل جمع المال والحرص عليه ولا يتحول عن ذلك بأى وسيلة من الوسائل . وإذا رأيت واحداً منهم يرغم على بذل شئ فذلك لاينافى الشح لأن الكريم هو الذى يكون مسوقا للبذل بطبيعته فتى تمكنت الصفة من النفس أصبح زوالها متعذراً ولكن لم يكن ميؤسا من زوالها كاليأس من زوال العمى مثلا . أما إذا لم تتمكن الصفة من النفس ولم تصبح داءاً عضالا لها فانها تزول بالعلاج والوسائل الفعالة . وذلك مشاهد أيضا . فانك ترى بعض الناس يبخل زمنا ثم يتصدق فى نهاية أمره بجزء عظيم من ماله . وبعضهم يكون كريما ثم يعرض له الخوف من الفقر فينقلب شحيحا . فالذى يظهر أن الانسان ليس مفطوراً على صفات نفسية خاصة بل كل صفات النفس مكتسبة إلا أن بعضها قد يتمكن من النفس فيصبح ملكة لها يتعذر زواله وبعضها لايكون كذلك فيسهل علاجه على أن الناس متفاوتون فى الاستعداد لقبول المرض والبرء منه

نوادر البخلاء

وللبخلاء نوادر غريبة نروى بعضها عن الامام الغزالى . منها أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا شديد البخل وكان له نسيب بائس فقال له بعضهم أنت منه بهذه المنزلة واثوابك ممزقة

فقال إنى لاأقدر على إبرة أخيطها بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوءاً إبراً ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب أبو يوسف يستعيرون منه إبرة ليخيطوا بها قميص يوسف الذى قدّ من دبر مافعل . فقال صفلى مائدته قال هى فتر فى فتر وصحافها من حب الخشخاش ولا يأكل معه إلا الذباب ولا يحضره إلا الكرام الكاتبون. ومنها أن مروان بن أبى حفصة كان لايأكل اللحم حتى تشتد شهوته اليه فاذا اشتهاه أرسل غلامه فاشترى له رأسا . فقيل له لماذا لاتأكل إلا الرءوس فى الصيف والشتاء . فقال لأننى آمن عليها فلا يستطيع أن يأخذ أحد منها شيئا ومع ذلك فاننى آكل منها ألوانا كثيرة . وخرج مرة للقاء أمير المؤمنين فقالت له واحدة من أهله إذا أعطاك جائزة فاذا تعطينى منها قال إن أعطانى مائة الف أعطيك درهما فاعطاه ستين ألفا فاعطاها أربعة دوانق . ومنها أنه كان بالبصرة رجل موسر بخيل فقدم له بعض أصدقائه طعاما لذيذاً فاكل منه وأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ وأصابه كرب شديد فوصف حاله لأحد الأطباء فقال له يتقيأ فأبى أن يتقيأ ذلك الطعام اللذيذ وقال الموت ولا ذلك

واننا نشاهد بيننا أمثال هؤلاء كثيرين لم نر حاجة إلى التطويل بذكرهم .

الجود والسخاء

ذكرنا لك أن الشح من الأمراض النفسية المرذولة التى يجب على العقلاء علاجها وتطهير أنفسهم منها لما يترتب عليها من المضار الاجتماعية والعمرانية . ويقابل الشح الكرم ويسمى الجود والسخاء وهو من الصفات النفسية الممدوحة التى يسود بها صاحبها ويكون له السلطان الكامل على نفوس الناس والمكانة الرفيعة فى قلوبهم . وقد علمت مما تقدم أن القوانين الشرعية تجعل لانفاق المال حدوداً فيجب مراعاتها وعدم الخروج عنها حتى يتمكن الانسان من قطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا قادرا على أداء الوظائف المطلوبة منه بدون انقطاع فلا يقتر ولا يسرف عملا بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) فانه اذا بخل حمله البخل على الكف عن أداء الحقوق والواجبات . واذا أسرف نفد المال فاعجزه ذلك عن القيام بتلك الحقوق . فالنتيجة فى الحالتين واحدة وهى عدم أداء الحقوق والواجبات إن عاجلا أو آجلا إلا أنها فى البخيل أشد ذما والخش أثراً لأنه متمكن من الأداء قادر على الوفاء ولم يفعل ضنا بالمال . أما المبذر الذى ينفد ماله ولم يجد مايقوم به من الحقوق فهو وإن كان ملوما محسوراً إلا أن لومه أقل وذمه أهون وقد بينا أن الشح هو الامساك حيث يجب الانفاق كالامساك عن الانفاق على الواجبات الدينية والنفقات الشرعية كالنفقة على الأهل والزوج والولد والنفقة على مايحفظ الكرامة والعرض والدين فكل ذلك ضرورى . وكذلك بينا أن التبذير هو أن ينفق المال فى غير موضعه فيضيعه

فى شهواته الفاسدة ولذاته المحرمة ويصبح محتاجا يائسا . أما الاقتصاد فهو التوسط فى الأمور بان ينفق فى الواجبات والحقوق ويدّخر شيئا من ماله ينفعه عند الحاجة اليه كما تقدم

وأما الكرم والجود فهو أن ينفق ماتقتضيه الواجبات والحقوق وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع . وقد وردت أحاديث كثيرة فى مدح الجود . منها قوله ﷺ « ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور » رواه الطبرانى وغيره واسناده صحيح .

فالكرم يحبه الله تعالى لأنه صفة من صفاته كما يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها . فالكرماء محبوبون من ربهم ومن أحبه الله فقد أمن غوائل الحياة الدنيا والآخرة وأصبح ظافراً بسعادة الدنيا والآخرة . وكذلك حال الكرماء فانهم لن يمسهم سوء فى دنياهم . فانك ترى الناس يقدسونهم ويسعون فى مرضاتهم وخدمتهم . ويبادرون الى إنقاذهم مما قد يصيبهم من مكروه لأن آثار إحسانهم تدفع الناس الى ذلك بدافع الرغبة الطبيعية وتحثهم على احترام الكرماء واجلالهم واحلالهم أرفع محل وأعظم مكان . ذلك فى الدنيا . وأما فى الآخرة فانك قد علمت أن انفاق المال فى الواجبات الدينية والحقوق الشرعية من أكبر وسائل السعادة الأخروية . والكريم لايحجم عن الانفاق حيث يجب الانفاق فهو محبوب لله عز وجل من أجل ذلك وله الجنة خالدا فيها جزاء كرمه وطاعة ربه وهذا جزاء المحسنين

وقد يبلغ الكرم من النفوس مبلغا عظيما فيملكها من جميع جهاتها ونواحيها . ولهذا أمثلة كثيرة ونوادر لاتقف عند حدّ مذكورة فى كتب الأدب والتاريخ وأغلبها منقول عن العرب فانهم كانوا يتعشقون صفة الكرم ويرونها من ضروريات الحياة . ومن ذلك أن عبد المطلب جدّ النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يطعم الطير والوحش مبالغة فى الكرم ورغبة فى الانفاق . وقد حذا حذوه ولده هاشم فكانت له مائدة مستمرة لاترفع شتاء ولا صيفا وكذلك حاتم طىّ فان نوادره فى الكرم مضرب للأمثال . وغيرهم كثير . كمعن بن زائدة الشيبانى ونحوه .

أما كرم رسول الله ﷺ فانه لاحدّ له فيوصف . ولا نهاية له فيعرف قال أنس « إن رسول الله ﷺ لم يسأل عن الاسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال ياقوم أسلموا فان محمداً يعطى عطاء من لايخشى الفاقة » رواه مسلم . وفى هذا الحديث دلالة على أن الكرم له من السلطة على نفوس الناس ماليس لغيره من الأمور فقد فعل فى أنفس هؤلاء مالا تفعله السيوف من تغيير العقيدة التى كانوا يقدسونها على أنه ينبغى أن يلاحظ القانون الشرعى المارّ ذكره فى الانفاق وهو عدم التبذير والاسراف ومجاوزة الحقوق والواجبات لأن فى هذا نفاداً للمال الموجب للعجز عن أداء الحقوق والواجبات والاحتياج الى الناس وهو شر عظيم على المرء لأنه يذله ويضيع كرامته ويسقط مروءته وكل هذا لايرضاه الدين ولا يقره العقل ولهذا قال الأعرابى إن محمداً ﷺ يعطى عطاء من لايخشى الفاقة وقد كان ﷺ آمنا من شر الفاقة عالما بان الله تعالى لن يخزيه فكان ينفق على ذلك الحساب ﷺ

الحرص والطمع

والقناعة

لانزاع فى أن المال مرغوب فيه بطبيعته ومحبب الى الناس على اختلاف أحوالهم وتباين أغراضهم كما تقدم فى مبحث مدح المال وذمه وقد ذكرنا هناك بعض الأحاديث التى تشير لذلك وسنذكر لك هنا بعضا آخر . فمن ذلك مارواه أحمد والبيهقى بسند صحيح عن أبى واقد الليثى قال « كان رسول الله ﷺ اذا أوحى اليه أتيناه يعلمنا مما أوحى اليه فجئته ذات يوم فقال ان الله عزوجل يقول انا أنزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون اليه الثانى ولو كان اليه الثانى لأحب أن يكون اليهما الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب » وما رواه مسلم وغيره من أن النبى ﷺ قال « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » والحديث الاول يشير الى الغرض الذى من أجله خلق الله المال وهو أن يستعين به الناس على أداء الواجبات الدينية والحقوق الشرعية وينفقونه فى سبيل السعادة والبر . فمن كمل عقله واستنارت بصيرته فانه لايندفع بعامل الحب الطبيعى للمال الى الشح به فى مواطن الحقوق والواجبات كما لايليق به أن تدفعه الشهوات واللذات الى الاسراف فيه وانفاقه فى غير حقه فالحديث الشريف يشير الى ماقد تستلزمه الرغبة الشديدة فى المال من الشح به . أو التبذير فيه ويقول إنه ماخلق من أجل هاتين الحالتين وانما خلق لينفق فى الواجبات الدينية والانسانية التى يقرّها الدين . وكذلك يحذرنا الحديث عن كسب المال من طريق حرام ويلفتنا الى أنه لاينبغى أن يدفعنا حبه الى الشره وجمعه باى وسيلة ولو لم تكن شريفة مشروعة . فمن غلبه حب المال الى شئ من ذلك فيجب عليه أن يتوب ويندم ويعمل بما أمره الله به فان الله يتوب على من تاب . وأما الحديث الثانى فهو نص فى أن حب المال يستمر قويا فى الانسان حتى فى حال هرمه فان المرء يهرم وحب المال يبقى شابا فيه لايضعف ومثله طول العمر . وقول رسول الله ﷺ بيان لأمر طبيعى صحيح لاشك فيه والغرض منه لفت الناس الى مايترتب على ذلك الحب القوى والرغبة الشديدة من الخروج عن حدود الدين فلا يذهب به الى الشح والحرص والطمع وهى من الرذائل المذمومة فى نظر الدين وقد بينا لك مافى الشح من المفاسد والمضار . وأما الحرص على تحصيل المال فانه من أسباب هلاك المرء ونقصان مروءته فقد يقوده الحرص الى أن يلقى بنفسه فى المخاطر ويزج بها فى المآزق التى لايستطيع الافلات منها كأن يزين له الحرص التزوير . أو النصب والاحتيال فيوقعه فى العقاب الدنيوى والأخروى . أو يحسن له الغش والكذب أو يدفعه الى

مزاحمة من هو أقوى منه فيسعى فى هلاكه فضلا عما يستلزمه الحرص من الذل والخضوع لمن هو أدنى منه قدراً متى استطاع أن يأخذ منه درهما . وقد يفضى الحرص بالمرء إلى أن لايبالى بعرضه ودينه فى سبيل الحصول على المال وذلك نهاية الانحطاط وغاية الضعة وأن من يفعل ذلك لايصح أن يكون فى عداد الانسان بل هو إلى الحيوان أقرب شبها من الانسان .

وأما الطمع فصاحبه مرذول عند الناس ثقيل على أنفسهم محتقر مهان ناقص القدر والقيمة فى نظرهم لأنه يطمع فيما لاحق له فيه ويريد أن يزاحمهم فيما كسبوه بجدهم واجتهادهم وما كان له ان يقف وهم سائرون ويكسل وهم مجدون فذلك شر وبيل يجر إلى الفاقة والفقر والانصراف عن العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والطمع فانه هو الفقر وإياكم وما يعتذر منه» أخرجه الطبرانى فى الأوسط فضلا عما يترتب على الطمع من الرذائل التى تترتب على الحرص كالذلة والهوان واسقاط المروءة وغير ذلك من رذائل الصفات فلا غرو إن حثت الشريعة الاسلامية على القناعة ونهت عن الحرص والطمع فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس » متفق عليه . وقد تقدم فى مدح المال . فليس الغرض من الحياة أن يجمع الانسان المال من أى طريق مهما ترتب على ذلك من الضعة والانحطاط والذلة والهوان إنما الغرض من الحياة أن يعيش الانسان فيها كريماً لايسخر منه عظيم ولا يحقره غنى لتعففه عن الناس وتمسكه بالوسائل الشريفة فى جمع المال . وذلك أحسن الأدب وأفضل التربية وأجل النصائح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

فالقناعة بما أتيح للانسان فى هذه الحياة من مال ومتاع هى خير مايحرزه من وسائل الكرامة والعزة وأفضل مايذخره ويكنزه ليستغنى عن الناس عند الحاجة ومن استغنى عن الناس فقد عز وعلا . قال عون بن مالك الأشجعى « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون رسول الله ﷺ قلنا أو ليس بايعناك يارسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا . وأسر كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط صوته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه » ومعناه النهى عن سؤال الناس مالا يستحق . أما المعونة بالناس فى أمور الحياة فهو لازم متى كان بالوسائل المشروعة ولكن هؤلاء الذين بايعوا النبى ﷺ قد بالغوا فى تنفيذ بيعته عليه الصلاة والسلام واحتاطوا فى ذلك إلى أبعد مدى وهذا شأنهم رضوان الله عليهم فى الحرص على تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك به من جميع النواحى والجهات وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة فلننقل لك منها شيئاً .

قال عمر رضى الله عنه إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإن من يئس مما عند الناس استغنى عنهم رواه هشام بن عروة عن أبيه . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم سلمة بن دينار الأعرج يعزم

عليه إلا رفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجى إلى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت . وقال عمر رضى الله عنه ألا أخبركم بما استحل من مال الله عز وجل جلبانى لشتائى وقيظى وما يسعنى من الراحلة لحجى وعمرتى — أى الراحلة التى يركبها ليحج عليها — وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ووالله ماأدرى أيحل ذلك لى أم لا . فقد حملته العفة والزهد فى أموال الناس إلى أن يشك فى ان هذا القدر زائد عن حاجته أم لا وليس بغريب أن يصدر مثل ذلك عن سيدنا عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه . وقال أبو محمد اليزيدى دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآنى بسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما وقد اضفت إليهما ثالثا وأنشدنى .

إذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فان قراب البطن يكفيك ماؤه * ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولاتك مبذالا لعرضك واجتنب * ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

أخرجه ابن أبى الدنيا فى أخبار الخلفاء وقال بعضهم :

إذا أعطشتك أكف اللئام سقـ * ـتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى * وهامة همته بالثريا
فان إراقة ماء الحيا * ة لدون أراقه ماء المحيا

وقال عبد الله بن سلام لكعب الأحبار مايذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج ومعنى ذلك أن تلك الصفات لاتجعل للعلم ثمرة فان الطمع وشره النفس وطلب الحوائج تجعل صاحبها أسيراً لمن يطمع فى ماله . أو يطلب منه حوائجه فيتبعه فى هواه حيث كان فلا يحفل بما يقتضيه الدين . ولا يبالى بما يوحى به العلم فيصبح العلم ضائعاً بضياع آثاره وثمراته إذ لافائدة للمعلومات التى يشغل بها الانسان رأسه اذا لم يعمل بما تقتضيه من نصرة الحق والفضيلة . وخذلان الباطل ومحاربة الرذيلة . وخدمة المجتمع الانسانى وتربيته تربية صالحة فهذا هو مايتطلبه العلم الصحيح وما يقتضيه الدين الحنيف . ولكن الحرص على المال والطمع فى لذات الحياة وزخارفها وشره النفس فى طلب الحاجات يقضى على ذلك قضاء مبرماً ويجعل العالم شراً من غيره لأنه يحاول أن يبرر موقفه فيقلب الحقيقة ويجعل الحق باطلا والباطل حقا وبذلك يكون حرباً على العلم والدين يهدم فيهما بمعاول الشره والطمع وحب المنصب والجاه والمال . وتلك هى فتنة المرء فى دينه ومروءته .

نسأل الله تعالى الوقاية من شرها إنه سميع الدعاء .

علاج انفاق المال فى غير حقه

بينا لك فى مبحث الشح أن الباحثين اختلفوا فى صفات النفس فمنهم من قال انها فطرية غير قابلة للزوال كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعور ونحوها . ومنهم من قال إن كل صفات النفس قابلة للزوال وأن الانسان فى هذه الحياة مستعد للانتقال من حسن إلى سيء ومن سيء إلى حسن . فانا نرى كثيراً من الناس ينتقلون من جبن إلى شجاعة ومن شجاعة الى جبن ويتحولون من بخل الى كرم ومن كرم الى بخل بحسب مايكتنفهم من العوارض والأحوال . الا أن بعض النفوس أكثر استعداداً لقبول الصفات من البعض فتتمكن منها . ويعسر زوالها وقد قدمنا لك مانراه فى هذا الموضوع هناك فارجع اليه إن شئت انما الذى نريد أن نقوله هنا هو أن الشريعة الاسلامية تدعو الناس جميعاً إلى مكارم الأخلاق وتحث كل فرد من أفراد المكلفين على التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل وذلك يؤيد الرأى الثانى لأنه لافائدة من تكليف الأعمى بابصار النملة مادام العمى غير قابل للزوال كما لافائدة من تكليف الشحيح بالكرم مادام الشح غير قابل للزوال أيضاً وهكذا. ولا يصح أن يقال إن الشريعة جاءت بالتكاليف العامة بالنظر للغالب من أحوال الناس فاذا وجد من غير الغالب من كان مفطوراً على صفة لايمكن التحول عنها فهو غير معتبر فى التشريع . لاننا نقول إن كل فرد من الأفراد مأمور بالفضائل منهى عن الرزائل فلو كانت الرذيلة صفة طبيعية فيه فانه لايصح تكليفه بازالتها والعمل على غيرها . فمن أجل ذلك ينبغى للمسلمين أن يعالجوا أنفسهم من أمراضهم الباطنة وأن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويتواصلوا بالحق والصبر عملا بقول الله تعالى (والعصر انّ الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه أقسم بصلاة العصر — لما لها من الفضيلة وسمو المنزلة عند الله تعالى — ان الانسان لفى خسران فى مساعيه فى حياته الدنيا مادام لايتوسل بها الى السعادة الأبدية فلا ينفعه مال ولا تفيده لذة ولا تغنى عنه تجارة ولا غيرها من عذاب الله شيئاً الا المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويعملون الصالحات كما أمرهم الله تعالى ونهاهم فانهم هم الذين ربحوا فى تجارتهم وظفروا فى مسعاهم وهم الذين يوصى بعضهم بعضا بالحق قولا وفعلا فلا ينطق الواحد منهم الا بالحق ولا يحكم الا بالحق ولا يعامل الناس الا بالحق وعليه أن يغضب من أجل الحق

وان يبذل كل ما استطاع من جاه وسلطان لتأييد الحق وحد الحق هو الثابت الذى لا يصح انكاره فيشمل الايمان بالله تعالى ورسله وكتبه والأعمال الصالحة. وكذلك الذين يوصى بعضهم بعضا بالصبر عند المصايب حتى لا يستفزهم الجزع الى الخروج عن حدود الدين . والصبر على نوائب الزمان حتى يتغلبوا على حادثاتها فلا تلعب بدينهم ومروءتهم . والصبر على لقاء الأعداء الذين يريدون استذلالهم واستعبادهم . والصبر على شهوات النفس ولذاتها فلا تتغلب عليهم ثورتها فتقودهم الى ما تريده من المفاسد والموبقات. والصبر على علاج الصفات الذميمة التى علقت بالنفس كالشح والعجب والكبرياء وغير ذلك فان على المرء أن يعالجها حتى تبرأ نفسه منها وتتطهر من شرها . الى غير ذلك . كل هذا داخل تحت التواصى بالصبر وهو معنى التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر وهو خير علاج لتفشى الذنوب والموبقات فان الصفة الذميمة لا تترتب عليها آثارها السيئة مادام الناس يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ولا يرضون عن المجرمين الذين يقترفون السيآت . ومن أجل ذلك لعن الله الذين لا يتناهون عن المنكر فقال تعالى (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية

فلو أن الناس تضافروا على استنكار الرذائل وتناهوا عن اقتراف المنكرات بتلوب صادقة وعزائم ثابتة لقضوا عليها قضاء مبرماً وأصبحت الفضيلة سائدة بينهم محببة اليهم . وانزوى المجرمون وأصحاب النفوس الخسيسة ولم يعد لهم أثر بينهم ولا وجود فى بيئتهم وذلك أحسن العلاج الذى كان المسلمون به مستمسكين فى أوائل أمرهم فلم يكن للرذيلة فيهم مقام ولأجل هذا مدح الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وسيأتى الكلام فى هذا فى مبحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ان شاء الله تعالى .

فالشحيح الذى لا ينفق على الحقوق والواجبات يجب على الناس أن ينهوه عن ذلك قولا وفعلا . فاما القول فان على المرشدين أن يبينوا له مضار الشح وآثاره السيئة فى المجتمع الانسانى وأن يفهموه أن الشح يأتى بعكس المطلوب له من الزيادة فى المال لأن الشحيح ينصرف الناس عن معونته فلا يقبلون على معاملته ولا يتعاونون معه فى تنمية ماله وأن يبينوا له أن الغرض من المال انما هو الانتفاع به فى هذه الحياة والا كان مثل الحجر الملقى على الأرض فانه نوع من الحجر جعله الله وسيلة للتعامل وقضاء الحاجات فليس من العقل أن يكنزه الانسان وهو محتاج اليه ويعيش فى هذه الحياة فقيراً محروما من لذائذها وطيبات رزقها ثم يكون فى الآخرة مسؤولا عن ماله معذبا على مافرط من أداء الحقوق والواجبات . وذلك هو الخسران المبين

فان كان قد اكتسب الشح من المعاشرة والمخالطة فيجب أن يزهدوه فى معاشرة الأشحاء ويرغبوه فى معاشرة الكرماء ومطالعة أخبارهم وشرح ما كسبوه من الحمد الخالد والثناء الدائم وما مدحوا به أمتهم من الانفاق على دور العلم وترقية الأخلاق . وغير ذلك مما يبقى ثوابه مستمراً وأجره لا ينقطع حتى بعد الممات .

وأما الفعل فانه يجب على الناس أن لايجاملوه فى أموره وأن يظهروا له الاشمئزاز من عمله وأن لاينزلوه فى معاملته منزلة الكريم . وأن يبالغوا فى احترام الكرماء وخدمتهم والحفاوة بهم فى حضرة الشحيح كى تبعثه الغيرة الى الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وقد تكون التربية بذلك من أحسن ماينفع ويفيد . وما قصة الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بخافية على أحد فلقد عوقبوا بمقاطعة اخوانهم اياهم مقاطعة تامة فى كل أمر من أمورهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . ثم تاب الله عليهم كما قصه الله تعالى فى كتابه العزيز .

أما المبذر الذى ينفق المال فى غير حقه فانه يجب أن يحذره المرشد عاقبة الاسراف والتبذير من افلاس يقوده الى الاحتياج الى الناس ويذهب به الى المذلة والهوان . ويزهده فى الشهوات التى لانتيجة لها الا القضاء على صحته وكرامته . وان كان الاسراف حاصلا عنده من المعاشرة والمخالطة فانه يجب عليه أن يزهده فى معاشرة المبذرين الذين لاهم لهم الا القضاء على أنفسهم وأموالهم فى سبيل الشهوات واللذات وأن يضرب له الأمثال بمن قضى الاسراف على مجدهم وكرامتهم فأصبحوا أذلة بعد أن كانوا أعزة وعبيداً بعد أن كانوا سادة وان فى ذلك لأكبر زاجر للنفوس عن تقليد المترفين فى ترفهم والاقتداء بهم فى التوسع فى المأكل والمشرب والمسكن ومباراتهم فى اللذات والشهوات بدون حساب لما يترتب على ذلك من نفاد المال والرجوع الى شظف العيش وذل الحاجة وربما لايجد بعد ذلك قوتاً ضروريا فيصبح بائسا يتكفف الناس أو يصبح عالة على غيره وقد تدفعه تلك الحالة الى الهلاك كما وقع لبعض من لاخلاق لهم ولا عزيمة عندهم . فان التوسع فى الشهوات قد أفضى بهم الى الافلاس فكبر عليهم الرجوع الى خشونة العيش وشظفه فقتلوا أنفسهم ظلما وعدوانا ظنا منهم أن القتل يريحهم من التعاسة والشقاء وهؤلاء يكادون يكونون غير مؤمنين لأنهم لو استيقنت أنفسهم الدار الآخرة واطمأنوا لها لعلموا أن الانتقال اليها على هذه الحالة انما هو انتقال الى شقاء دائم وعذاب أليم لايقاس عليه شيء من بؤس الدنيا وشقاؤها مهما اشتدت أمره وزاد خطره فينبغى لمن وقع فى تلك المصيبة أن يقابلها بالصبر والشجاعة وأن يحتمل مايترتب عليها من خشونة العيش وبؤس الحياة وأن يرجع الى الله تعالى ويتوب مما كسبت يداه وأن يوطن نفسه على أن يعمل كل مايتاح له عمله فى هذه الحياة مادام ذلك العمل مشروعا . فلعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمراً . وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت . (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب)

شهوة الذرية

لاريب فى ان الانسان مفطور على حب البقاء بل البقاء الذ شئ لديه ولكنه يعلم انه هالك لامحالة وأنه لابد لوجوده من نهاية ينتهى اليها سواء أكانت قريبة أم بعيدة وذلك ما يحزنه ويكدر صفوه فى هذه الحياة فمن اجل ذلك اقتضت حكمة الله تعالى ان يجعل له فى نسله وذريته بعض العوض عن ذلك فانه يرى بقاءه مستمرا فى ولده فلا يندم على جهاده فى معترك الحياة ولا يأسف على مابذله من مجهود فى ترقية العمران . ولا يحزن على مفارقة ماحصل عليه بكده من مال ومتاع لأنه يعلم أنه تركه لولده وهو جزء منه فكأنه هو الذى يستمتع به وكأنه باق لم يدركه الفناء تلك نظرية بديهية يجدها فى نفسه الذكى والغبى ويدركها العالم والجاهل فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاءه مستمرا ويعلم أنه خليفته فى هذه الحياة الدنيا وان كان بعض الناس لايحسن التعبير عن ذلك

وأيضا فان كل واحد يشعر بحاجة الى معين مخلص يحمل عنه بعضا من متاعب الحياة وأعبائها ويكون عدته عند نوائب الزمان ومحن الايام ومن عساه أن يكون احق من الولد وأجدر بثقة الوالدين . فشهوة الذرية وحب الولد وان كانت عواملهما تتفاوت عند بعض الناس ولكنها من أقوى الشهوات عند المجتمع الانسانى من حيث هو فمن اجل ذلك يقول الله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) كما ذكرناه لك آنفا

واذ قد علمت ذلك فاعلم ان هذه الشهوة هى كسائر الشهوات تارة تكون ممدوحة وتارة تكون مذمومة فاما المذمومة منها فهى ان يفتتن المرء باولاده وذريته فلا يبالى ان يرتكب من اجلهم الجرائم ويقترف بسببهم الموبقات والآثام. يشتهى الأولاد والذرية من اجل ان يجمع لهم مالا حراما ويظلم خلق الله ويستسهل فى سبيلهم الفسوق والعصيان. يشتهى الأولاد وهو لايقدر على تربيتهم تربية صالحة فيذرهم اعضاء عاطلين يضرون المجتمع الانسانى ويؤذون الناس بشرهم . يشتهى الأولاد ولكنه لايعدل بينهم فيفضل ذكورهم على اناثهم او يفضل بعض ذكورهم على بعض مع ان النبى ﷺ رغب فى المساواة بين الذكور والاناث فى المعاملة فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ انه قال «من كانت له انثى فلم يئدها — يدفنها حية كما كان يفعل فى الجاهلية — ولم يهنها ولم يؤثر ولده — يعنى الذكور — عليها أدخله الله الجنة » رواه ابو داود والحاكم وقال الحاكم صحيح الاسناد وبالجملة فان شهوة الأولاد اذا كانت تفضى الى المظالم وانتهاك الحرمات وتعدى حدود الله تعالى فهى شهوة مذمومة وفتنة شديدة والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (انما اموالكم واولادكم فتنة)

واما الممدوحة منها فهى ان يشتهى الأولاد ليكمل بهم نظام العمران وينتفع بهم المجتمع الانسانى فيعلمهم العلم النافع ويربيهم على الأخلاق المرضية التى تنتج ذلك الغرض الجليل ويستعين بهم على عمل البر والخير فينتفع بهم فى حال حياته ويكون بقاؤه مستمرا فيهم بعد وفاته فلا ينقطع ثواب عمله كما قال عليه الصلاة والسلام «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث» فذكر منها ولدا صالحا يدعو له وبالجملة فشهوة الأولاد الممدوحة هى التى تفضى الى الخير ونفع المجتمع الانسانى وبناء العمران ولهذا رغب النبى ﷺ فى نكاح الولود ونهى عن نكاح العقيم فقد روى عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقال يارسول الله انى أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال الا أنها لاتلد افأتزوجها فنهاه ثم اتاه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فقال له تزوجوا الودود الولود فانى مكاثر بكم الأمم» رواه ابوداود والنسائى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد

تربية الأولاد

تربية الأولاد فرض لازم لايصح اهماله فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال «الزموا أولادكم وأحسنو أدبهم» رواه ابن ماجه

فهذا الحديث يأمر بمراقبة الأولاد مراقبة دقيقة وتاديبهم احسن الأدب فواجب دينا على الوالدين أن يقوما بتلك المراقبة كل واحد منهما بدوره فى داخل المنزل وخارجه فيمرناه على القدر النافع له من الشهوات ويحببا اليه العمل الصالح بقدر مايستطيع ادراكه . وأول مايغلب على الصبى شهوة الطعام والشره فى الأكل فمن الضرورى أن يراقباه فى ذلك مراقبة دقيقة ويمرناه على الغذاء القليل الذى لايضر معدته ويحولا بينه وبين تناول كل مايشتهيه من اصناف الطعام المختلفة التى لا تستطيع المعدة هضمها فيتعرض بذلك للآلام والامراض ويشب على الشره وكثرة الأكل فيتعلم الكسل والبلادة ويكون همه بطنه وقد نهى الدين عن ذلك كما تقدم لك فى الكلام عن شهوة البطن . وكذلك ينبغى مراقبته عند مايراهق فلا يسمح له بمصاحبة الأشرار ومخالطة الفجار فاسدى الأخلاق وناقصى التربية كما لايسمح له بغشيان دور الفساد ومحال اللهو والخلاعة والمجون ويحبب اليه العمل لدينه ودنياه بحيث يصرف كل همه الى تعلم العلم النافع وما يلزم له فى قوام حياته من صناعة وزراعة وتجارة وأن يؤدى الفرائض الدينية ولا يهمل شيأ منها ويجب أن يترك له وقت يروض فيه نفسه حتى لايسأم العمل وأن يغضى عما يفرط عنه من بعض المخالفات التى لاتضر بالأخلاق اذا فعلها خفية وكان يخجل من اظهارها على ان يكون كل تأديبه بالترغيب والحجة المناسبة لعقله فيفهم ان العمل النافع ينفعه فى حياته الحاضرة والمستقبلة وتضرب له الامثال بالعاملين النافعين الذين رفعهم العمل الى الدرجات الرفيعة وبالجهلة وفاسدى الاخلاق الذين ساء حالهم بسبب ذلك وانحطوا الى الدرك الاسفل ويرغبه فى أن يكون مثل الاولين ويحذره عن ان يكون مثل الآخرين ومما يجب التنبه له انه يجب على الوالدين

أن ينفذا الخطة الصالحة التي يرسماها لاولادها عمليا بأن يلزموها فى تنفيذها ملازمة تامة كما يشير الى ذلك الحديث الشريف فانه عليه الصلاة والسلام يقول الزموا أولادكم .فلا يكفى مجرد الترغيب بالقول وضرب الامثال. أما الضرب والتخويف فقد ينتجان عكس المطلوب ويتركان أثرا سيأ فى نفس الولد يصرفه عن المقصد النافع ويزهده فى عمل البر ويجعله حريصا على مامنع عنه من الفساد فيلح فى طلبه وينتهز الفرص ليعمله خاسة فضلا عما يتركه الضرب والتخويف فى النفس من الجبن والخيالات الفاسدة التى قد تصاحب الانسان فى حال كبره أيضا فيشب على الجبن والخوف من الخيالات الكاذبة وقد تتأثر أعصابه بتهيج كاذب من غير فائدة تعود على التربية والأخلاق وذلك شر ووبال نعم اذا تاكد المربى من أن طبيعة التلميذ لاتصلح الا بالزجر والتخويف فانه يصح أن يستعمله فى الموضع المناسب له بحيث لايفرط فيه فتترتب عليه تلك الآثار السيئة وبالجملة فالمربى كالطبيب الماهر الذى يعرف العلة ويصف لها مايناسبها ولكن لابد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية التى يشير اليها الحديث على أى حال

فاذا بلغ الغلام حد شهوة الفرج فيجب على والديه أن يحولا بينه وبين عناصر الفساد ومايثير هذه الشهوة ويراقباه فى ذلك مراقبة دقيقة فان هذه الشهوة من اشد الشهوات خطرا وأبعدها اثرا إذ قد تقضى على مستقبل الشباب وتفسد عليهم حياتهم المادية والأدبية وتوردهم موارد الهلكة لانها تعرض أبدانهم للأمراض المادية وعقولهم للأمراض المعنوية وفى ذلك بلاء مبين . وأحق علاج تعالج به تلك الحالة هو القيام بعمل الواجب الذى تقوم عليه حياة الشاب فى مستقبله وصرفه عن كل مايثير تلك الشهوة ويهيجها من مكمنها فاذا درج على ذلك سهل عليه قطع ذلك الدور آمنا على صحته وعقله والا فقد يقع فى أشد البلاء وأصعب الأخطار

شهوة الجاه والسلطان

هذه شهوة طبيعية فى الانسان فهو مفطور على أن يكون ذا جاه محبب اليه أن يكون ذا سلطان يطاع ان أمر أو نهى ويسيطر على قلوب الناس ويستولى عليهم فى كل الأمور ولقد علمت مما تقدم أن الانسان متصف بصفات الربانية لأن روحه أمر ربانى كما وصفها الله تعالى بقوله (قل الروح من امر ربى) ومعنى كونها ربانية أنها سر من الأسرار التى لايقيسر الوقوف على حقيقتها فهو من هذه الجهة يميل بطبيعته الى العظمة والكبرياء وحب الجاه والسلطان . وهل شهوة الجاه اقوى أو شهوة المال . والجواب أن التفاضل اذا كان بينهما فى ذاتهما فما لاشك فيه أن شهوة الجاه أقوى من شهوة المال لان المال فى ذاته كالحجر لايضر ولا ينفع أما اذا كان التفاضل بينهما باعتبار الافراد الذين يتصفون بهما فذلك ينبغى أن يكون فيه تفضيل وذلك لان شهوة الجاه وان كانت طبيعة فى الانسان كما ذكرنا ولكنها تتفاوت عند الافراد بالقياس الى شهوة أخرى فمن الناس من تتحقق عنده هذه الشهوة باقوى معناها وهذا الفريق هو الذى يفضل عنده حب الجاه على حب المال لان شهوة الجاه عنده هى الباعثة له على

حينئذ . ومن الناس من يقدس المال فى ذاته كما هو الحال عند البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ويحرمون أنفسهم وأهليهم متاع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق حتى انك ترى أحدهم يلبس الخلق من الثياب ويطوى من الجوع ويعرض نفسه لكل مذلة ومهانة واحتقار من أجل دريهمات يسيرة مع كونه ذا مال كثير وقد اسلفنا لك ذلك فى الكلام على شهوة المال

وأيضا فقد ينصرف المرء عن شهوة المال والسلطان لشغفه بشهوة أخرى تعارضها كما إذا منى بالشغف بشهوة الفرج فانها قد تفضى به إلى الذلة والهوان والخضوع إلى من يشتهى وقاعها ولو ذهب كل سلطانه وضاع كل جاهه وقد يترك ملكه خضوعا لتلك الشهوة فالتفاضل بين الشهوات الطبيعية يختلف باختلاف طبائع الناس واستعدادهم للتأثر بها. فمنهم من يغلب عليه حب المال. ومنهم من يغلب عليه حب الجاه . ومنهم من يغلب عليه حب النساء . ومنهم من يغلب عليه شره الطعام . ومنهم من يغلب عليه حب الزينة واللباس والتطاول فى البنيان وهكذا . وقد يستدل على كون الجاه أحب من المال بأن التوصل إلى المال بالجاه أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . ألا ترى أن الرجل العظيم الذى يسيطر على القلوب ويكون له مكانة فيها يتيسر له أن يجمع المال بسهولة لأن القلوب تبذل المال لمن تعتقد فيه الكمال عن طيب خاطر أما الرجل الدنئ الخسيس الذى يعثر على كنز مثلا فانه لا يتيسر له بالمال أن يسيطر على النفوس وتكون له مكانة فى القلوب. وذلك الدليل ينتج إذا كانت البيئة صالحة تقدر الفضيلة وتحقر الرذيلة أما إذا فسدت البيئة وأصبح الانسان عبدا للمادة فان صاحب المال يكون له الجاه والسلطان وقد يستدل لذلك بأدلة أخرى خطابية لا حاجة لذكرها

إذا علمت ذلك فاعلم أن شهوة الجاه والسلطان اذا اتجهت النفوس اليها ولم تعارضها شهوة أخرى كانت من أقوى الشهوات وأبعدها مدى لأنها لا تقف عند حد ولا تنتهى عند غاية فان صاحبها يشتهى أن يمتد سلطانه وينبسط نفوذه ويسرى جاهه فى كل واد وعلى أهل كل قطر حتى ولو لم يذهب اليه فى حياته لما علمت من أن النفس نزاعة إلى حب السلطة والجاه بطبيعتها .

ولا ريب فى أن شهوة الجاه كغيرها من الشهوات تارة تكون ممدوحة وتارة تكون مذمومة . فأما الممدوحة منها فهى أن يحب الجاه ليكون ذا تأثير على قلوب الناس فيما يصلح حالهم فى الدنيا والآخرة فيأتمرون إذا أمرهم بمعروف وينتهون إذا نهاهم عن منكر لا يحب ذلك إلا الله تعالى وابتغاء رضوانه لا يدفعه لذلك سمعة أو رياء ولا يسوقه اليه حب مدح الناس أو كراهية ذمهم فان من يتأثر فى أعماله بالناس يكون تابعا لأهوائهم فيها ومن المحال أن يكون الحق تابعاً لأهواء الناس وشهواتهم. فالجاه الممدوح هو ما يترتب عليه نصرة الدين وصلاح نفوس المسلمين وما يقصد صاحبه بكل أعماله مرضاة الله رب العالمين .

ومن ذلك حب الرئاسة والحكم فان من أحب شيئا منهما ليقيم العدل بين الناس وينصر الحق فى كل مواطنه ولا يغتر بسلطة فيتكبر على الناس ويحقرهم ويطغى عليهم بل يجعل كل همه فى عمل الاصلاح الذى يرضى عنه ربه ويسعد به خلق الله الذى سخره لخدمتهم وأكرمه بالعقل الراجح عليهم فان ذلك يكون ممدوحا فى نظر الدين . وقد وردت أحاديث كثيرة فى مدح الحاكم العادل

منها ماروى عن عياض بن حماد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم — والمقسط هو العادل — ومعنى الحديث واضح فيما ذكرنا لأنه صريح فى مدح صاحب السلطان الذى يعدل بين الناس ووعده بالجنة التى وعد الله بها عباده المتقين .

ومنها ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رقيق وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق » رواه الطبرانى فى الأوسط . ومنها ماروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » رواه الترمذى والطبرانى . وغير ذلك كثير من الأحاديث الواردة فى حث كل ذى سلطان على العدل واستعمال سلطته فيما ينفع الناس ويصلح حالهم فكل ذى جاه أو سلطان يستعمل سلطانه وجاهه فى سبيل الخير كما ذكرنا يكون له على ذلك أحسن المثوبة وأفضل الجزاء .

وأما المذمومة من شهوة الجاه والسلطان فهى ما كان على العكس من ذلك لايقصد منها خدمة المجتمع ولا إصلاح الدين وانما يقصد بها خدمة شهواته وسد أطماعه والناس فى ذلك مختلفون . فمنهم من يكون همه الاستيلاء على القلوب بأى وسيلة من الوسائل سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة فينتحل لذلك الصفات التى من شأنها جذب القلوب والتأثير على النفوس كذبا وزوراً فطوراً يظهر لهم بمظهر العابد المقرب من الله تعالى المحبوب منه فاذا دعاه أجابه وإذا استعان به أعانه وأنه هو خير وسيلة بين الناس وبين الله فى قضاء الحاجات وإجابة الدعوات . وطوراً يظهر بمظهر الزعيم الذى يتحرق قلبه أسفاً على مصالح العباد والغيور الذى تكاد تذهب نفسه حسرات من أجل صلاحهم وإسعادهم . وطوراً يظهر بمظهر العليم الذى يعرف مخبآت الأمور . وخفايا الأسرار . وان الله قد اختصه بمزايا الأولياء والصالحين والعلماء العاملين إلى غير ذلك من الصفات التى تتأثر بها القلوب وتركن اليها النفوس وهو فى الواقع خال من كل فضيلة ولا همّ له إلا اصطياد القلوب ليسخرها فى شهواته وينتفع بها فى لذاته . ومثل هذا الفريق من الناس شر عظيم على المجتمع الانسانى وعدو مبين للانسانية لأن همه يكون منحصراً فى المحافظة على جاهه الباطل فيسوقه ذلك إلى اتباع الناس فى أهوائهم التى لايقرها عقل ولا يرضاها دين كى لاينفضوا من حوله فيزين لهم الباطل ويشوه لهم الحق ويقرّهم على الحرام ويقبح لهم الحلال يفعل كل ذلك وهو عالم به ولكنه يخشى على جاهه أن ينصرم وعلى سلطانه أن يزول . وفى ذلك بلاء عظيم على نفسه وعلى خلق الله الذين أضلهم عن سبيل الحق وأقرهم على الباطل وزين لهم أهواءهم وافسد عقولهم وذلك هو الخسران المبين .

لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إرضاء الناس بما يسخط الله عز وجل نهياً شديداً فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من أسخط الله فى رضا

الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى . وروى عن عبد الله بن عصمة بن مالك قال قال رسول الله ﷺ من تحبب إلى الناس بما يحبوه وبارز الله تعالى لقى الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان » رواه الطبرانى

فكل من يخاف على جاهه وسلطانه فيحيد عن الحق ويتبع الناس فى أهوائهم فهو داخل تحت ذلك الوعيد الشديد

وهناك فريق من الناس يكسبون الجاه والسلطان بصفات حقيقية فيهم من علم أو صدق غريمه أو حسن تدبير او شرف نسب أو نحو ذلك ولكنهم يحبون الجاه والسلطان ليكون لهم بذلك منزلة فى النفوس تحفظ لهم أنفسهم وأهليهم من الضيم واعتداء المعتدين ويسهل لهم قضاء مايحتاجون اليه من ضروريات الحاجات بدون أن يكون لهم غرض فى خدمة المجتمع الانسانى أو استعمال ذلك الجاه فى نصرة الدين .أو تأييد الفضيلة . أو انقاذ المظلومين . أو إغاثة المكروبين إلى غير ذلك من الأمور التى يمدح من أجلها الجاه والسلطان . وهذا الفريق إذا دعت ضرورة دينية إلى استعمال جاهه كأن رأى منكراً عليه أن يغيره بجاهه فلم يفعل فهو بذلك آثما فاسقا . وكذلك إذا توقف على جاهه إغاثة ملهوف . أو إعانة مكروب . أو إنقاذ إنسان من الهلاك ونحو ذلك فلم يفعل فانه يكون يكون آثما مذموما . فقد قال رسول الله ﷺ « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » رواه أبو داود وغيره ومثل ذلك كثير فى السنة الصحيحة وسيأتى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . أما الأحاديث الواردة فى إغاثة الملهوفين وقضاء حوائج المسلمين فهى أكثر من أن تحصى . وسيأتى ذكرها فى موضعه . ونذكر منها هنا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « مامن عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبرانى باسناد جيد .

أما إذا لم تدع ضرورة إلى استعمال جاهه ولم يكن عنده ميل إلى استعماله فذلك وإن لم يكن آثما فاسقا ولكنه فاسد الطبع غليظ القلب ناقص المروءة لأنه يمكنه أن يربح خيراً كثيراً عند الله تعالى ولكن طبيعته الفاسدة أبت عليه ذلك وحرمته ذلك الخير الكثير والثواب الجزيل .

﴿ وبعد ﴾ فانك تعلم مما تقدم لك أن طباع الناس متباينة فى حب شهوة الجاه والسلطان وأن أغراضهم متفاوتة فيه وأن منه ماهو ممدوح نافع وهو ما كان لله وخدمة المجتمع ومنه ماهو مذموم ضار وهو ما كان لسد المطامع وتحصيل الشهوات فواجب العقل بازاء ذلك أن يكون قواما على تلك الشهوة فلا يتركها تطغى عليه فينساق أمامها إلى حيث توردة مواردالهلاك وتوقفه مواقف الفساق بل ينبغى أن يتبع منها ما كان فيه صلاح دينه ودنياه ويتجافى ما كان فيه فساد ذلك فاذا وجد منها جموحا وعدم انقياد له فلا ينهزم أمامها بل عليه أن يذكرها دائما بالفناء الذى هو من

ضروريات الانسان فليس من العقل أن يعذب عذابا طويلا من أجل شهوة فانية تنقضي سريعا . وليس من الحكمة أن يترك النعيم الدائم من أجل لذة سريعة الزوال .

ويضرب لها الأمثال بمن عظم جاهه وامتد سلطانه وقويت شوكته واشتدت صولته ثم لم يلبث أن أصبح عظاما نخرة وترابا يطؤه الناس بأرجلهم ولم يبق له فى الوجود ذكرى بل محيت ذكراه واندرست آثاره حتى كأنه لم يوجد فى الحياة الدنيا ولم يكن له شأن فيها . فمهما بلغ المرء من الجاه والسلطان فانه لابد أن يفنى كما فنى غيره و يهلك كما هلك من كان أكثر منه قوة وأشد بطشا وأنه لابد أن يقف بين يدى أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ويحاسب على مافعل بجاهه وسلطانه ويسأل عما قدمت يداه من خير وشر ثم يجزى الجزاء الأوفى من نعيم خالد وعذاب أليم . وبذلك يمكنه أن يقف مع تلك الشهوة وقفة حكيمة حازمة فلا يذرها تطغى عليه فتورده موارد الهلاك والردى وتوقعه فى أشد المحن والأرزاء خصوصا اذا كان يعلم بما يحيط بها من البلوى وما يكتنفها من المصائب والأهوال .

فان صاحب الجاه والسلطان لايفارقه الوجل والخوف على زوال جاهه ونقصان سلطانه فهو فى فزع دائم وقلق مستمر كلما أحس بانصراف القلوب عنه تكدر عيشه وزاد بلاؤه وهمه فهو دائما بين هواجس نفسانية لايستطيع الافلات منها وعوامل وهمية تصور له المحال فيذعن لها ويصدقها .وعلى الحقيقة ان من افتتن بحب الشهوة وغرامها كان جديراً بان يرثى له ويشفق عليه والا فماله وللظهور الذى يكلفه عناء ويحمله بلاء . ماله وللجاه الذى يطلب منه أن ينافق للناس اذا كان النفاق يرضيهم ويزين لهم أهواءهم الباطلة اذا توقف على ذلك استمرار عقيدتهم فيه . ويفعل مايخالف اعتقاده اذا ترتب عليه دوام القلوب معه بل ماله وللسلطان الذى يكدر من أجله صفوه وينغص عليه عيشه ويحمله من الهموم والأثقال ماتنوء تحته الجبال . وأخيراً يعذب عليه عند الله تعالى عذابا أليما . لاريب فى أن ذلك هو الخسران المبين والبلاء العظيم .

أما الذى يطلب الجاه والسلطان ليصلح بهما حال المجتمع الانسانى وينصر بهما الحق فى كل مواطنه ويؤيد بهما دين الله تعالى فذلك هو الذى يظل مطمئن القلب قرير العين لايرضى الناس ويغضب الله ولا يحفل الا بالحق ولا يعنيه الا الاصلاح وسواء عليه أن يزيد جاهه أو ينقص سلطانه مادام فى ذلك رضى الله تعالى وصلاح عباده.ومن تأمل فى الأمرين يجد أن الأول تره ضعيف النفس لاينظر الا للذة فى ذاتها فيخسرها فى الدنيا والآخرة . وأما الثانى فانه حازم ذو عفة ونزاهة نفس لاينظر الا الى مايترتب على شهوته من المصلحة العامة فينعم بالا فى الدنيا والآخرة وينعم باللذة التى يريدها على وجهها الأكمل والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

حب المدح وكراهة الذم

ويتبع حب الجاه والسلطان حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول وتلك صفات طبيعية فى الانسان أيضا فانه مفطور على أن يحب الكمال فكلما يجعله كاملا فى أعين الناس يكون محبوبا لديه فهو يحب أن يكون كاملا فى خلقه كاملا فى دينه كاملا فى دنياه ظاهراً بين الناس بكل هذه المظاهر لأنه يحب أن يمدحوه ويرضوا عنه ويبجلوه وكل ذلك يتبع فى الحقيقة حب الجاه والسلطان لأنه انما يفعل ذلك ليسيطر على قلوب الناس ويهيمن عليها فيصبح ذا جاه بينهم وسلطان عليهم وهذا نهاية ماتصبوا اليه الأنفس بطبيعتها التى خلقها الله عليها لما فيها من صفة الربانية التى تقدم بيانها

وقد علمت أن شهوة الجاه والسلطان تارة تكون صالحة وتارة تكون فاسدة باعتبار مايترتب عليها من الآثار وما يكتنفها من الأغراض . وكذلك مايتبعها من حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول

فان كان لغرض شريف وغاية حسنة كان ممدوحا والا كان مذموما مثلا . ان كان يحب المدح بالحق ليتوسل به الى الاستيلاء على قلوب الناس والسيطرة على أنفسهم ليصلح الفاسد ويقوّم المعوج ويسلك بهم سبيل الرشاد وطريق الهداية فذلك ممدوح وكذا اذا كان يحب المدح على الصفات الحسنة ابتهاجا بتقدير الناس للفضيلة ورضاهم عنها وسخطهم على الرذيلة ومحافاتهم اياها لتحيا الفضيلة وتموت الرذيلة بينهم فان ذلك يكون ممدوحا . وكذا اذا كان يحب المدح على الفضيلة ليكون فيها قدوة حسنة للمقتدين ومثالا صالحا للعاملين فان ذلك يكون ممدوحا وهكذا أما اذا كان يحب المديح سواء أكان بحق أم لا ولا غرض منه الا أن يكون عظيما بين الناس ليستخدمهم فى شهواته ويستعين بهم على لذاته ولو أفضى ذلك الى الاصطدام بالدين والأخلاق الكريمة كما بيناه لك فى الفصل الذى قبل هذا فان ذلك يكون مذموما أسوأ الذم وبالجملة فالمدار فى كل هذا على نية المرء وأغراضه الباطنية كما قال رسول الله ﷺ « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى » فمن كانت نيته صلاح حال المسلمين وارشادهم ونصرة الدين كان له أجر على كل مايوصله لهذا من جاه وسلطان ومدح وظهور ومن كانت نيته تحصيل شهوة أو قضاء لذة أو سد مطمع كان عليه وزر فى كل مايتوسل به الى ذلك . وعلامة ما كان لله تعالى أن لايبالى صاحبه بالناس فى

مواطن الحق فلا يوافقهم على باطل ولا يعينهم على فساد سواء رضوا أو غضبوا وسواء مدحوه أو ذموه ويكون شعاره دائما مرضاة الله تعالى ونصرة الحق والدين. ويعجبنى ما قاله بعض الصوفية فى ذلك

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب

نسأل الله تعالى أن يصلح أنفسنا ويهدينا الى سواء السبيل انه واسع الفضل والجود

الرياء

ومما يتبع شهوة الجاه والسلطان الرياء فى عبادة الله تعالى وهو من الأمراض النفسية الخطرة والأوباء الاخلاقية الضارة التى تحتاج الى علاج دائم ويقظة مستمرة فلا يصح للمرء أن يغفل أمره حتى يستفحل شره ويتفاقم خطره ويصبح داء مستعصيا يحبط الاعمال ويعرض صاحبه للشرك بالله الواحد القهار

وهو مأخوذ من الرؤيا لان المرائى يرى الناس — يظهر لهم خصال الخير من العبادة حبا لحمدهم وفرارا من ذمهم — كى يستولى بذلك على قلوبهم فيكون له سلطان عليهم يصل به الى لذاته ويستعين به على تحصيل شهواته . فهناك أمور خمسة . مراء . وهو العابد الذى يظهر خصال الخير . ومراءى وهم الناس الذين يظهر لهم ذلك . ومراءى به وهى تلك الخصال ومراءى لاجله وهو الجاه والسلطان وحب الحمد وكراهة الذم . ورياء وهو قصد اظهار العبادة لذلك الغرض وكما أن الجاه يطلب باظهار العبادة للناس فقد يطلب بغيرها كما تقدم . إلا أن طلبه بالعباده خص باسم الرياء عادة والمراؤن بالعبادة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ المراؤن بالعقائد الدينية وهم الذين يظهرون للناس أنهم موحدون يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وهم يعتقدون خلاف ذلك . او يظهرون لهم أنهم يؤمنون بالغيب من جنة ونار وملائكة ونحو ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة وهم يعتقدون غير ذلك ولا ريب فى أن ذلك كفر يخلد صاحبه فى نار جهنم وهو المنافق الذى ورد ذكره فى غير موضع من القرآن

الكريم . قال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها)الآية . وقال تعالى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن) الى غير ذلك من الآيات الواردة فى المنافقين ولقد كان النفاق فى التوحيد كثيراً فى مبدإ الاسلام اما الآن فان النفاق يكثر فيما دون ذلك فانك ترى كثيراً من الناس يذهب بهم قصر النظر وضعف الادراك الى عدم الايمان بكثير من الغيب كالجنة والنار والملائكة ثم هم يخفون عقيدتهم هذه ويظهرون امام الناس بضدها خوفا من ذمهم وطمعا فيما عندهم فاذا ماسنحت لهم فرصة لاعلان عقيدتهم لم يتأخروا عن المجاهرة بها وهؤلاء كفرة منافقون لأنهم يعتقدون خلاف ماهو معلوم من الدين بالضرورة وهو كفر ونفاق . والرياء فى العقيدة على ذلك الوجه من أكبر درجات الرياء وأشدها أثرا . وهناك أقل من ذلك درجة كاعتقاد بعض الامور الشاذة التى تضر بالدين وتورث سوء الظن فى عبادة المسلمين كاعتقاد بطلان الفروع الفقهية وضعف ادراك ائمة الدين الذين اجتهدوا فى استنباطها ويعتقد جهلا وغرورا أنه أرقى منهم ادراكا وأدق منهم نظرا فى كتاب الله وسنة رسول الله ومع ذلك فانه يظهر امام الناس بانه يقلد مذهبا من تلك المذاهب التى يعتقد بطلانها خوفا من ذمهم وطمعا فيما عندهم . وهذا وان كان أهون من الأول الا أن صاحبه منافق جبان مغرور يستحق العقاب على كل هذا

﴿القسم الثانى﴾ المراؤون بالفرائض الدينية والاركان الشرعية وهؤلاء هم الذين يفعلون اركان الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج أمام الناس من اجل غرض من الأغراض التى ذكرت آنفا فاذا ما خلا الواحد منهم بنفسه لم يعمل شيئا فلولا الغرض الذى يريد تحقيقه ما صام ولا صلى ولاحج ولا زكى. وأقبح أنواع الرياء مافعل للحصول على لذة محرمة كأن يحتال به على الفسق بامرأة أو غلام أو يستعين به على سلب مال ظلما وعدوانا . أو يتوسل به الى ايذاء برىء فى عرضه أو ماله او دينه ومن يفعل هذا فهو وان كان مسلما فى ظاهر أمره الا أن الاسلام برىء منه فى الواقع وقد دلت الاحاديث الصحيحة على نفى الاسلام عنه فى غير موضع وسيجزى على عمله هذا أشد الجزاء ويعاقب عليه أسوأ العقاب فى يوم يؤخذ فيه المجرمون بالنواصى ويساقون الى نار وقودها الناس والحجارة أما الرياء بالفرائض الدينية للحصول على لذة مباحة كأن يحتال باداء الفرائض على التزوج بامرأة أو الحصول على مال بطريق الهبة ونحوها. ولولا هذا الغرض ما قام بادائها فانه وان كان اهون من الاول ولكنه قبيح جد القبح وفساد لايعدله فساد لانه شرك بالله تعالى فى هذه العبادة بل هو فى الحقيقة عبادة للشهوة لا لله تعالى . ففاعله وان كان مقرا بالتوحيد الا أنه سيعذب على ذلك عذابين عذاب على ترك الغرض وعذاب على فعله رياء ونفاقا. ولو كان عنده مثقال ذرة من الادب والحياء لخجل من خالقه الذى لاينبغى له أن يعبد سواه او يشرك معه فى عبادته شيئا ولكنه بدلا من ذلك قد جعل عبادته وسيلة لاقتناص الملاذ والحصول على الشهوات وفى ذلك يقول الله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون) ومما لاشك فيه أن غير الصلاة من الفرائض الدينية مثل الصلاة فى ذلك فمن فعل شيئا منها رياء كان له الويل عند الله تعالى

وهناك فريق من الناس يؤدى الفرائض للغرضين معا فهو يقصد بها الثواب والقيام بواجبه ويقصد كسب قلوب الناس ليسخرهم فى أغراضه وشهواته وهذا وإن كان أقل من الأول قبحا إلا أنه شر وفساد خصوصا إذا كان الغرض الذى يقصده محرما فان عقابه يكون كعقاب الاول تماما أما إن كان ذلك الغرض مباحا فان العقاب فيه يكون قاصرا على نفس الرياء لأن عبادة الله تعالى يجب ان تكون خالصة له لاينبغى أن يخالطها غرض من الاغراض المتعلقة بالشهوات قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

﴿ القسم الثالث ﴾ المراؤون بالنوافل وأوصاف العبادة كأن يؤدى الواحد من هؤلاء النوافل فى حضرة الناس ويتركها إذا كان وحده أو يجيد أداء الفرض فى حضور الناس ولا يجيده إذا كان وحده كأن يشرع فى الصلاة منفردا فاذا مارأى الناس أطال فيها وأظهر الخشوع والخضوع والرياء فى ذلك كالرياء فى غيره فان كان يقصد به الحصول على شهوة محرمة أو الوصول إلى جاه يظلم به أحدا من عباد الله تعالى كان اثمه عند الله عظيما وعقابه اليما أما إن كان يقصد به الحصول على شهوة مباحة فهو وإن كان أقل من الاول عقابا ولكنه قبيح مذموم لما علمت أن عبادة الله يجب ان تكون خالصة له فمن يؤديها لغرض من الاغراض فقد أشرك فيها ذلك الغرض مع الله تعالى ومن يفعل ذلك فهو غبى ممقوت يستحق الذم والعقاب لانه قد استهان بعبادة الله تعالى وجعلها وسيلة للحصول على الاغراض الدنيوية والشهوات الجسمانية مع ان النوافل مثلا لم تشرع الا للحصول على الثواب الكثير والدرجات الرفيعه عند الله تعالى فانقلبت عليه شرآ ووبالا بفعلها رياء وأصبح يستحق عليها عقابا وذلك فساد وخلل عظيم

﴿ القسم الرابع ﴾ المتحدثون بأعمالهم بعد تمامها كأن يقول الواحد منهم صليت كذا وصمت كذا وفعلت كذا من الخير وهذا وإن كان لا يحبط العمل الذى تم على وجه صحيح إلا أنه ينظر الى قصده من التحدث بذلك فان كان فسادا كان محرما وان كان فرارا من ذم الناس ورغبة فى مدحهم بدون أن يقصد منها الوصول الى غرض غير ذلك كان ملوما من جهة واحدة وهى أنه قصد رآء الناس بطاعة الله وقد علمت ان ذلك لايجوز

﴿ القسم الخامس ﴾ المراؤون بالهيئة والزى فترى الواحد من هؤلاء يتكلف العمل على تحول بدنه واصفرار وجهه كى يظهر بمظهر العابد الذى أضناه السهر وأنحله الصوم ومنهم من يتكلف خفض صوته أو يطرق رأسه أو يغمض عينه أو يترك شعره شعثا أو يطيل لحيته أو يلبس اثوابا تختلف عن اثواب أهله وعشيرته ليلفت اليه انظار الناس او يجعل له منها شكلا خاصا يختلف عن عادات الناس الذين يعيش فى بيئتهم مادام ذلك يؤثر على نفوسهم ويجعلهم يعتقدون فيه العبادة والزهد وهذا النوع من الرياء خفيف جد السخف لانه لايتأثر به إلا ضعاف العقول صغار النفوس كما يتأثرون بالنصابين والمحتالين الذين يخادعون الناس ليغتصبوا أموالهم وأعراضهم بالخيالات الكاذبة والدعاوى الباطله وكل هؤلاء من شرار المفسدين الذين يجب على الناس أن يحذروا شرهم ويمقتوهم ولا يبالوا بهم ولا بحيلهم وأزيائهم ان كانوا يعقلون

وبعد فاعلم أن النية عليها مدار الثواب والعقاب كما علمت مما مضى فاذا كان المرء يتحدث بعمله الصالح أو يظهره بين الناس ليكون قدوة صالحة لهم ومثالا حسنا يقتدون به لايريد بذلك الا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته بنشر الفضيلة واحيائها بين الناس من غير أن ينظر الى مدحهم وذمهم فلا يثنيه عن عمل الصالحات شئ من ذلك . ولايغريه عليه رضاء أحد من الناس على أن يكون يقظا لايجعل للغرور والعجب الى نفسه سبيلا فان عمله على ذلك الوجه لايكون داخلا فى باب الرياء بل يكون مطلوبا وقد يكون واجبا ان تأكد من اقتداء الناس به فى عمله الصالح ويكون له على ذلك أحسن الجزاء وأفضل الأجر . وكذلك تنظر الشريعة الاسلامية الكريمة الى جميع الأعمال فان ترتب على العمل فساد كان مذموما سواء أكان فى ذاته فرضا أم نفلا وان ترتب عليه صلاح كان ممدوحا لجميع أحكامها وقضاياها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة عن المجتمع الانسانى وكلها ترمى الى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتربية النوع الانسانى أحسن تربية وتأديبه أفضل الأدب ويكفى فى ذلك قوله تعالى (ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فعلى العاقل أن ينزه نفسه عن الرياء وأن يطرح الناس جانبا فلا يبالى بمدحهم ولا يخشى من ذمهم وعليه دائما أن يزن ما يحصل عليه من ثقتهم به وماينالله من وراء ذلك من اللذات الزائلة. بما يحصل عليه بالعمل الخالص لله تعالى من نعيم خالد وسعادة دائمة فانه ان فعل ذلك هانت عليه لذات الحياة الدنيا وسهل عليه أمر شهواتها وكان فى كل أعماله من فرائض وسنن مخلصا لله تعالى الذى لا يستحق العبادة الا هو وهو سبحانه لا يضيع عنده مثقال ذرة من العمل الصالح وسيجزى العاملين جنات النعيم

الباب الثاني

فى الغضب

تعريفه

هو قوة طبيعية تثور من باطن الانسان فتحمله على الدفاع عما يحبه من الأغراض وتدفعه الى البطش بكل مايؤذيه فاذا اعتدى عليه معتد أو حيل بينه وبين أغراضه تثور تلك القوة فيغلى دمه وينتشر فى العروق ويرتفع الى اعالى البدن فيظهر أثره على ظاهر الوجه والعينين فمعنى الغضب غليان دم القلب لدفع المؤذيات قبل وقوعها او الانتقام والتشفى بعد وقوعها على أن الغضب بديهى معروف فى الانسان والحيوان وأثره محسوس فلا يحتاج الى تعريف

درجات الغضب

وحكمة خلقه فى الانسان

للغضب ثلاث درجات وهى : اولا . درجة الاعتدال وذلك بان يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه او ماله او يغضب ليدافع عن الحقوق العامة و نصرة المظلومين و تلك الحالة هى التى من أجلها خلق الله الغضب فهو مخلوق لحكمة ضرورية تقتضيها طبيعة العمران و يتطلبها نظام المجتمع الانسانى فان التزاحم فى هذه الحياة يستدعى دفاعا قويا عن النفس و الدين والمال والعرض. فخلق الله الغضب فى الانسان ليحمله على الدفاع عن هذه الأمور الضرورية لحياته فيصد عنه الأشرار الذين يحاولون الاستقلال بما يزاحمون فيه من لذات الحياة ومتاعها او يحاولون سلب ما بايدى الناس مما لا يستطيعون الحصول عليه بالوسائل المشروعة وكذلك يحمله على الدفاع عن عقيدته التى هى اقدس شئ لديه فى هذه الحياة تلك هى حكمة خلق الغضب فى الانسان ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض دعائم النظم الاجتماعية والدينية لأن من لا يغضب لعرضه لا يغار على نسائه فتختلط الانساب وتعم الفوضى فى ذلك الباب ويصبح الانسان كالحيوانات التى يسطو بعضها على بعض بدون غيرة ولا حمية ولا معرفة لما يترتب على ذلك من التناسل الذى به حياة النوع الانسانى وبقاء العمران الى الأجل الذى قدر له فى ذلك الوجود . ومن لا يغضب لنفسه فانه يكون معرضا للزوال من هذا الوجود او معرضا لأن يسخره غيره كما تسخر الدواب والانعام التى لا تغضب لنفسها . ومن لا يغضب لماله فانه لا يلبث أن يسلبه الناس منه ويصبح فقيرا معدما . واذا فشى سلب المال فان نظام العمل يتعطل وتبطل الاعمال التجارية والصناعية والزراعية ويعتمد الناس على سلب بعضهم بعضا . ومن لا يغضب لدينه فانه لا يستقر على دين لأن اختلاف طبائع الناس واختلاف انظارهم من اكبر البواعث على اختلاف معتقداتهم فمن لا يغار على دينه يكون عرضة لتقليد القوى فى كل ما يراه فينقل من دين الى دين وهكذا وكل ذلك طبيعى فى الانسان فان الناس مفطورون على التنازع فيما يشتهون والتزاحم على ما يحبون ولا يزالون مختلفين فى طبائعهم وعاداتهم ومعتقداتهم ومسوقين بعامل اللذات الى محاربة من يستقل بامر من الأمور التى يشتهونها ولا يملكونها . فخلق الله الغضب ليحمل الناس على أن يدفع بعضهم بعضا فيستقر النظام ويقف كل واحد عند الحد الذى قدر له فى هذه الحياة والى ذلك يشير قول الله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) وكذلك قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)

ثانيا . درجة التفريط وهى أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بان يضعف فى الانسان أو يفقد منه رأسا وتلك الحالة مذمومة شرعا وعقلا لأن من لا يغضب لعرضه أو لدينه أو لنفسه أو لماله فهو جبان لم يجرى على سنن الله فى خلقه ولم يستعمل تلك القوة التى خلقها الله فى الناس ليدفع بها بعضهم بعضا وفى ذلك ضرر عظيم على المجتمع الانسانى لأنه يثير الفوضى فى جميع نواحى الحياة كما علمت. وذلك موجب لفساد الارض وهلاك الانسان

ثالثا درجة الافراط وهى أن يخرج الغضب عن حالة الاعتدال فيطغى على العقل والدين فلا يقصر المرء غضبه على مايلزم أن يغضب من أجله بل يتعداه إلى أقل الامور وأيسر الأسباب فيغضب لها غضبا شديداً ويندفع فى سبيل الشر اندفاعا قد يفضى به إلى الهلكة من حيث لايدرى . وربما جره غضبه من أجل أمر يسير إلى اقتراف أكبر الجرائم وشر الموبقات كأن يغضب على من لايقف إجلالا له فينتقم منه فى مركز الحكم ويقضى عليه ظلما وعدوانا . أو يغضب على من لايظهر له الخضوع والاستكانة فيؤذيه بالضرب والشتم . أو بالاعتداء على مورد رزقه . وربما ساقه الغضب إلى أن يفعل مالا يصح صدوره عن الانسان كأن يغضب على من يأمره بمعروف أو ينهاه عن منكر أو يحول بينه وبين شهوة محرمة .

ولا ريب فى أن ذلك وحشية يستنكرها العقل السليم وتنفر عنها الطباع المعتدلة لأن مثل من يفعل ذلك كمثل الذى يعتدى على الطبيب الذى يريد أن ينقذ حياته من العدم . وذلك نهاية السفه وغاية السخف وكذلك قد يسوقه الافراط فى الغضب إلى أن يعتدى على من يطالبه بحق من الحقوق . أو يغضب على من يرزقه الله علماً أو مالا أو منصبا أو جاها فينقلب غضبه حقداً وحسداً . إلى غير ذلك من الجرائم والشرور . وبديهى أن الغضب فى تلك الحالة مذموم عقلا وشرعا وتتفاوت درجات ذلك الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكثر ذما وأكبر جرما . فطغيان الغضب وخروجه عن حد الاعتدال ومخالفته للعقل والدين شر عظيم وخطر شديد على المجتمع الانسانى فان آثاره السيئة لاتقف عند حد ولا تنحصر فى عد وكفى به ذما أنه يبعث إلى ظلم الابرياء والاعتداء على خلق الله تعالى بدون مبرر . وذلك شر الجرائم وأكبر الموبقات

أسباب الغضب

للغضب أسباب كثيرة تختلف باختلاف امزجة الناس واستعدادهم للتأثر بالأشياء . فرب شخص يغضب لأمر يراه غيره سببا فى مسرته وذلك كثير الوقوع بين الناس فليس من غرضنا بيانه هنا انما الغرض ذكر الأسباب التى يرجع اليها طغيان الغضب وسرعتها غالبا . فمنها الجدال . والمزاح والسخرية بالناس والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان فلا يبالى أن يسب غيره أو يلعنه أو يغتابه أو ينم عليه . إلى غير ذلك من آفات اللسان . كذلك الكبرياء والعجب وسنذكر لكل منها مبحثا خاصاً .

أما أن الجدال . والخصومة . والمزاح . ونحوهما من آفات اللسان من موجبات الغضب فهو ظاهر . وأما أن الكبرياء والعجب من موجبات الغضب فلأن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما

فانه مايعتقد أنه ينافى عظمته وخيلاءه فاذا طالبه أحد بحق اهتاج غضبه وكذا اذا نهاه عن رذيلة أو إذا تصدر مجلساً دونه أو إذا عارضه فى أمر وهكذا. وذلك لأنه يعتقد أنه كامل من جميع الجهات فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهاه أو يقف فى سبيله أو يتقدم عليه وهو فى الواقع ناقص من كل وجه ويحاول أن يجبر نقصه بكبريائه كما سأبينه لك فى موضعه.

ومنها الاستعداد الفطرى فقد يكون الانسان مستعداً بطبيعته لسرعة الانفعال والغضب حتى لقد يراه الناظر اليه فى صورة الغضبان بدون سبب ويساعد على ذلك حدة مزاج القلب.

ومنها مصاحبة الأشرار الذين لايفرقون بين الممدوح والمذموم من الغضب فيحسبون التهور شجاعة ويعدون طغيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك وتصبح سرعة الغضب عادة مكتسبة له.

ومنها فوات اللذات والشهوات من مطعم ومشرب ومسكن ووقاع وغير ذلك وتلك اللذات وإن كانت مملوكة له حلالا وحيل بينه وبينها بدون مبرر شرعى فان له الحق فى أن يغضب حتى يسترد حقه ويكون الغضب فى هذه الحالة من القسم الممدوح إلا أنه إن كان الذى فاته ضروريا له كان الغضب من أجله واجباً وإن كان كمالياً كان الغضب من أجله جائزاً. أما إن كانت حراما عليه أو غير مملوكة له كما إذا غضب للحيلولة بينه وبين امرأة لاتحل له أو غضب لفوات دعوة إلى وليمة ليست مملوكة له ونحو ذلك فان الغضب لذلك يكون من القسم المذموم

ومنها الوشايات والنمائم فمن الناس من يغضب لمجرد وشاية نقلت اليه عن بعض الناس. أو لمجرد نميمة بلغته من نمام بدون أن يتثبت فى الأمر فيعتدى على الأبرياء بقطع أرزاقهم أو حرمانهم من حقوقهم. أو إيذائهم فى أبدانهم أو القدح فى أعراضهم. إلى غير ذلك من الجرائم التى تترتب على الغضب. وربما كانت الكلمة التى نقلت اليه على فرض صدورها لاتساوى شيئاً من غضبه. وذلك شر ما يترتب على الغضب من الظلم وأقبح مايؤآخذ به الانسان من الموبقات خصوصاً إذا كان ذا سلطة ونفوذ فيستعملها فى الخفاء. أو فى العلانية ضد من يغضب عليه بدون سبب صحيح وبدون أن يهيئ له من وسائل الدفاع عن نفسه ماقد يثبت براءته عنده. ولذلك قال الله تعالى فى كتابه الكريم (ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين) فمن كانت نفسه تتأثر بمثل ذلك فيجب عليه أن يعالجها بالتثبت حتى إذا تأكد من صدق مانقل اليه كان له الحق فى أن يدافع عن نفسه بقدر ماأصابه بدون بغى ولا طغيان والعفو فى مثل هذه الحالة أفضل. خصوصاً إذا أنكر المنقول عنه مانسب اليه فان الانكار اعتذار يستوجب الرأفة والرحمة ولقد نهى الشارع عليه الصلاة والسلام عن سماع النمائم والوشايات كما سيأتى بيانه مفصلا.

ومنها المشاحة فى البيع والشراء فيغضب الواحد إذا لم تسوم سلعته على حسب مايشتهى. أو يغضب اذا ساومه أحد سلعته ثم لم يشترها منه. ومثل ذلك ماإذا طلب من أحد أن يقرضه مالا أو يعيره شيئاً فلم يجبه. وكذا إذا طلب منه أن يعينه فى عمل خاص فأبى إلى غير ذلك. والغضب فى مثل

هذه الأحوال حماقة لامبرر لها لأنه مادام لم يعتد احد على حقه فليس له أن يغضب مطلقا فاذا غضب كان غضبه مذموما

فمن كان سريع الغضب بطبيعته أو كان الغضب مكتسبا له بالتطبع فيجب عليه أن يعالج نفسه فى مثل هذه الأمور بالتحرى عمن يطلب منه فان هذه الأمور وان كانت هينة فى ذاتها ولكنها قد تذهب بسريع الغضب الى مالا تحمد عقباه فانه اذا ثار غضبه لايقف به عند الحد المعقول وعليه أن يعتدل فى بيعه وشرائه وأن يمرن نفسه على احتمال مايقع عادة عند البيع والشراء من النزاع .

ومنها مايستحكم فى نفوس بعض الجهلة من الرذائل فان بعض الأشرار من هؤلاء قد تنعكس طبائعهم فتصبح الرذيلة فضيلة فى أنفسهم فيباهون بالجنايات ويفخرون بالموبقات فيغضب الواحد منهم اذا قيل له أنك لاتشرب الخمر كثيراً أو أن خليلتك غير مطيعة لك أو أنك لاتحسن لعب الميسر وهكذا ومن كان هذا شأنه كان داؤه وبيلا ومرضه مستعصيا قد لاينفع فيه علاج ولا تؤثر فيه موعظة . على أن المرشد لاييأس من الاصلاح على أى حال فعليه أن يحذر مثل هذا عاقبة الشهوات الفاسدة ويضرب له الأمثال بمن صرعهم الافراط فيها فقد أصابتهم الأمراض القاتلة بسبب ذلك وحل بهم الفقر والبؤس حتى أصبحوا من المتسولين . فكل من ينغمس فى تلك الشهوات يكون هذا مصيره لامحالة فيذهب عقله وبدنه وماله ويكون عرضة لنكبات الزمان ومحن الأيام فضلا عما أعد له فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم فلعل ذلك ينفع فى علاجه ويرد اليه بعض رشده .

ذلك معظم الأسباب التى تثير الغضب وتهيجه . والغضب المترتب عليها كلها مذموم عقلا وشرعا إلا ما كان منها متعلقا بالدفاع عن العرض والمال والدين والنفس كما علمت .أو كان متعلقا بالدفاع عن الحقوق العامة ونصرة المظلومين فالذين يغضبون لذلك هم الذين كملت طباعهم وقويت عقولهم فأصبح سلطانها على الغضب كاملا ولقد امتدح الله تعالى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حيث وصفهم بالشدة فى قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) والشدة لاتنبعث الا عن الحمية والغضب وهم لم يغضبوا الا لله ولم يدافعوا الا عن دينهم ووطنهم وكيانهم فكانوا أهلا لرضاء الله عنهم وكانوا أحسن قدوة لمن يناضل فى سبيل الحقوق العامة ويدافع عن كيانه ودينه وكرامته لجدير بالعقلاء أن يكون ذلك شأنهم دائما فلا تثور أنفسهم لسفاسف الأمور وتافهها بل يلزم أن يقصروا غضبهم على المواطن التى يمدح فيها الغضب ليظفروا برضوان الله تعالى وثناء المجتمع الانسانى .

ومما يلزم التنبه له أن الشريعة الاسلامية قد جعلت لاستعمال ذلك حدوداً يلزم الوقوف عندها فمن تجاوز هذه الحدود فقد انعكس عليه الأمر وأصبح غضبه مذموما . مثلا اذا اغتصب أحد منك درهما أوسبك بكلمة او لطمك لطمة فان لك الحق فى أن يثور غضبك بقدر ما أصابك من الاعتداء . ولك الحق فى المطالبة بالجزاء الذى أعده الحاكم لذلك من قصاص وتعذير فاذا لم تملك غضبك ولم تستطع

كظلمه الى أن ترفع أمرك للحاكم فانه يجب عليك أن تصون لسانك عن الفاحشة وسب الوالدين والغيبة والنميمة فاذا قال لك يازانى مثلا حرم عليك أن تقول له مثل ذلك . وكذلك اذا سب والديك فانه يحرم عليك أن تسب والديه وكذا اذا اغتابك فى مجلس وعلمت بذلك فانه يحرم عليك أن تنتقم لنفسك باغتيابه . ومثل ذلك ماإذا نمّ عليك أو وشى بك . وذلك لأن كل هذه صفات يجب أن ينتزه عنها المرء دائما فاذا فعلها شخص وقع مع غيره لايجوز له أن يكون مثله فى هذه الوقاحة على حساب الغضب لعرضه او لدينه وله الحق فى أن يغضب ليرده بالوسائل الأخرى كرفع أمره للحاكم أو بالتوبيخ والتقريع والزجر ان كان ينفع فيه هذا

العفو عند الغضب

أما العفو عن مثل ذلك فانه ينظر فيه الى حال المعفو عنه فان كان ممن يصلحهم العفو ويترك فى أنفسهم أثراً حسنا فيكون سببا فى أن يراجع الواحد نفسه ويلومها ويتخذ منه درسا نافعا وعظة. كان العفو فى تلك الحالة جميلا كما لو كان الذنب الذى من أجله العفو وقع خطأ أو نسيانا . وفى مثل هذا يقول الله عز وجل (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) فالمحسنون هم الذين يحسنون الى الناس بأعمالهم وأقوالهم التى تنفع . فاذا كان العفو ينفع ويصلح المعفو عنه كان احسانا . أما اذا كان سببا فى اغرائه على التمادى فى العدوان على خلق الله وباعثا له على القحة وسوء الأدب وجرئا له على ارتكاب المعاصى . أو كان الذنب الذى ارتكبه يوجب حداً من حدود الله تعالى فان العفو فى هذه الحالة لايجوز لأن العفو حينئذ يكون إساءة لااحسانا . وفى مثل هذا يقول الله عز وجل (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) .

هذا أصل من أصول الشريعة الاسلامية السمحة وهو تأديب المجتمع والأفراد واصلاحهم بكل الوسائل فما يجلب صلاحا ونفعا ويدرأ فساداً وضراً فانها تأمر به وتقره وبالعكس .

قد يقال إن العفو اذا تكرر يكون من أحسن الوسائل التى بها تملك النفوس وتخضع الأعناق ألا ترى أنك اذا واليت حيوانا مفترسا بالاحسان اليه فانه يذل لك ويخضع . فما بالك بالانسان اللهم الا أن يكون ذى جنة لايعى ولا يعقل . ومثل هذا لايقام له وزن ولا يعبأ له بعمل ومن أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابتغوا الرفعة عند الله تعالى قالوا وما هى يارسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك » فلا ريب أن الناس اذا عملوا بتلك

الحكم العالية فان العداوة والبغضاء ترتفع من بينهم وتقل الخصومة والمنازعة فيهم وينعدم الحقد والحسد من أنفسهم فان النفوس الانسانية مهما كانت جامحة فانها لابد أن تلين وتخضع بموالاة الاحسان وتكرار العفو . وهذا القول فى ذاته حسن ولكن الواقع ان طبائع الناس فى ذلك تختلف كل الاختلاف . فمنهم من يصلحه العفو . ومنهم من يغريه ويطغيه بلا نزاع وعلى هذا جاءت الشريعة الاسلامية فمتى انتج العفو تلك النتيجة التى ذكرت فهو حسن ممدوح . أما اذا كان ينتج الفوضى واساءة الأدب أو كان فى حد من حدود الله تعالى فلا شك فى أنه يكون حراما مذموما .

علاج الغضب

قد علمت مما تقدم أن سرعة الغضب تارة تكون طبيعية وتارة تكون مكتسبة بالمصاحبة والاختلاط فمن كان سريع الغضب بطبيعته فانه يعالج باجتناب الأسباب التى تثيره كالمزاح والجدل والكبرياء والخيلاء .

ان هذه الصفات مهما تمكنت من النفس لايمكن أن تكون طبيعية بل هى صفات عارضة لأسباب معرضة للزوال من آن لآن فان الذى يتكبر لكثرة ماله أو يفخر بقوته أو يختال بجاهه وسلطانه يذل ويستكين ويخضع لو ذهب المال والسلطان وقد تسوء حاله الى أبعد مدى حتى إنه قد يذل لمن كان عبداً له وخادما عنده وترغمه الحاجة على أن يصبح خادما بعد أن كان سيداً . فالعاقل من لايغتر بأسباب العظمة والكبرياء ويعتبر بغيره ممن قلب لهم الدهر ظهر المجن وقد كانوا أكثر منه مالا وأشد قوة وماذا يمنعه من أن يضام مثلهم . فاذا برئت نفسه من الكبرياء والفخر والخيلاء وابتعد عن الجدال والمزاح وسلم لسانه من الآفات التى سنذكرها بعد . وهى صفات غير طبيعية كما علمت فانه . لايضره أن يكون سريع الغضب بطبيعته لأن هذه الأسباب هى التى تثير الغضب كما علمت مما تقدم .

فيجب على سريع الغضب بفطرته أن يمرن نفسه دائما على التواضع ويذكرها بعظمة الخالق وحده ويفهمها بأنه مخلوق من ماء مهين وأنه صائر الى فناء وأنه سيكون عظاما بالية وترابا تطؤه الدواب بأرجلها . ومن كان هذا شأنه فلا ينبغى له أن يكون متكبراً يحقر خلق الله ويطغى عليهم فاذا نزعت نفسه الى التواضع فانه لايتألم لتلك الاعتبارات التى يتألم منها المتكبرون وبهذا يدرأ عن نفسه غائلة سرعة الغضب الى أن تقل حدتها وتذهب ثورتها وهذا أهم ماتعالج به أنفس المستعدين

بفطرتهم للغضب . وأما من كانت سرعة الغضب ليست طبيعية له ولكنها اكتسبت بالعادة والمخالطة فانه يعالج بأمور .

أولا اجتناب مصاحبة هؤلاء الأشرار والبعد عنهم . ثانيا اجتناب الأسباب المثيرة للغضب آنفا ثالثا . تعليمه أن ليس للانسان أن يغضب الا من أجل دينه أو نفسه أو عرضه أو ماله وما زاد على هذا فهو رذيلة مذمومة يجب على العاقل أن يتنبه لها ولا يذرها تتسلط عليه فتضيع سلطان العقل ويصبح الانسان عرضة للهلاك فى الدنيا والآخرة فقد يدفعه غضبه الى الجناية على غيره وهو غير عالم لانه يصبح كالمجنون الذى لا يعى مايقول ولا يضبط مايفعل .

هذا الذى ذكرناه لك هو علاج الغضب قبل ثورته وطغيانه بالابتعاد عن أسبابه فراراً من الوقوع فيه فاذا ثار الغضب فعلا وتملكت ثورته نفس الغضبان كان علاجه صعبا شاقا لأنه يفعل فى النفوس مايذهلها وينسيها مالها وما عليها من الحقوق والواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأفعال مالا يصدر الا عن المجانين كأن يضرب نفسه ضربا مبرحا حتى لقد يقتل نفسه وهو لايدرى ومن الناس من يمزق ثوبه ويلطم وجهه ويكسر الآنية الى غير ذلك فالحازم الشجاع هو الذى يضبط نفسه عند الغضب ولا يذره يستولى على مشاعره حتى ينطفئ نور عقله ويذهب سلطانه على البدن فيورده الغضب مورد الهلاك ويقضى على حياته المادية أو الأدبية فاذا ثار الغضب وجب على المرء أن يذكر على الفور قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه آواه الله فى كنفه وستر عليه برحمته وأدخله فى محبته من اذا أعطى شكر واذا قدر غفر واذا غضب فتر » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد . وقوله صلى الله عليه وسلم « مامن جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » رواه ابن ماجه . وقوله ﷺ « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته » فانه اذا كان مؤمنا بالله ورسوله حقا ويعلم أن رسول الله ﷺ رءوف رحيم بأمته وأنه لايقول الا مافيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم وان من خالفه لايفلح أبداً فلا ريب أن نفسه تتاثر بهذا وينصرف عن غضبه فيسلم من تائجه الضارة به فى دينه ودنياه .

ولقد أخبر رسول الله ﷺ وهو الصادق الامين بان من فتر غضبه — ضعف — حال ثورته فانه يكون فى كنف الله وستره وأن الله تعالى يدخله فى محبته وذلك أحسن الجزاء وأجزل العطاء فان من كان فى محبة ربه فقد ظفر بسعادة الدنيا والآخرة وكان من الفائزين . وهذا خير علاج تعالج به نفوس المؤمنين عند الغضب وأمضى سلاح تقاوم به ثورته وطغيانه فعلى كل مسلم أن يذكر أن طغيان الغضب مذموم فى نظر الاسلام وأنه يترتب عليه آثار لايقرها دينه ومضار تفضى بالمرء الى الشقاء الدنيوى والأخروى وأن مقاومته والوقوف به عند الحد المطلوب ممدوحة شرعا وعقلا وأن الله سيجزيه على هذا أحسن الجزاء وأن يشعر بذلك نفسه دائما كيما يذكره حال ثورة الغضب فيسكن غضبه .

ولقد ورد فى بعض الأحاديث الصحيحة أن الغضب اذا ثار عند المرء وكان واقفا فليجلس واذا كان جالسا فليضطجع وفى بعضها انه يلصق خده بالتراب والغرض من هذه الاحاديث ان

ينتقل الانسان من حالة إلى حالة ليتذكر فيما نهى النبي ﷺ عنه من سرعة الغضب وفيما رغب فيه من الحلم ومتى اتجه عقله إلى تلك الناحية فإن غضبه يفتر . وكذلك الغرض من إلصاق خده بالتراب فانه إذا أطاع قول رسول الله فى ذلك فانه يسكن غضبه حتما لأن ذلك يفضى به إلى التذكر فيما أعدّ للقادرين على غضبهم من حسن الجزاء خصوصا إذا روعى أن فى إلصاق الخد بالتراب إرغاماً للنفس وإشعاراً لها بما هى صائرة اليه من الفناء وأن مآلها الى التراب ومن كان هذا شأنه فانه لاينبغى له أن يغضب ويطغى على خلق الله .فمن لم يعمل بذلك ولم يتأثر قلبه بالموعظة الدينية ولم يخش غضب الله القوى القاهر فوق عباده فلم يطع رسول الله ﷺ فليحذر عواقب الغضب الدنيوية فانك قد علمت أن الغضب اذا طغى قد يفضى بصاحبه إلى الهلاك اذ قد يحمله على أن ينال من خصم قوى فينتقم منه انتقاما شديداً لايقوى عليه وقد يعرضه غضبه للسجن الطويل وتغريم المال الكثير وربما جرّ الغضب إلى حدوث العداوة والبغضاء بين قبيلتين فتكون نتيجة ذلك من أسوإ النتائج وذلك كما يقع بين بعض جهلة القرى المتجاورة من أهل زماننا فى الأسواق فانه قد يتنازع أثنان أو أكثر من أهل بلدين مختلفين فيتضاربون فتحمل حمية الجاهلية من وراءهم من أهل البلدة إلى التعصب لمن كان من أهل بلدتهم فيجمعون جموعهم ويذهبون بعصيهم الغليظة واسلحتهم ويهاجمون فجأة كل من يجدونه من أهل تلك البلدة فى السوق بدون تفرقة بين برئ وظالم وتكون نتيجة ذلك من أسوإ النتائج على هؤلاء الجهلة الفاسقين فانهم بعملهم هذا قد عرضوا أنفسهم للقصاص الدنيوى بالسجن وتغريم المال وغيرهما فضلا عن عقاب الله الشديد الذى أعده لهم باعتدائهم على الأبرياء وقد أحدثوا بعملهم هذا العداوة والبغضاء بينهم وبين أهل البلدة الأخرى فأصبحوا أعداء بعد أن كانوا إخواناً وذلك شر مبين وداء وبيل يجب محاربته والقضاء عليه بكل حزم وعزم

الشجاعة والجبن

الشجاعة شدة القلب عند البأس ويقال لها الجرأة بسكون الراء وفتحها والجرئ الشجاع المقدام فهى صفة من صفات النفس تحمل الانسان على مواجهة الأخطار وتحمل الآلام بثبات . ذلك معناها فى اللغة أما فى نظر الدين والأخلاق فانه لابد فيها مع ذلك من ضبط النفس عند الغضب . ولقد علمت مما تقدم أن للغضب ثلاث حالات إفراط . وتفريط .ووسط .فالافراط هو طغيان الغضب بحيث

ينشأ عنه الاقدام على مالاينبغى من الرذائل التى شرحناها لك آنفا وهو تهور مذموم . والتفريط هو نقصان الغضب بحيث ينشأ عنه الاحجام عما ينبغى وهو الجبن المذموم . أما الوسط فهو الذى ينشأ عنه الاقدام حيث يجب الاقدام وهذه هى الشجاعة الممدوحة .

ومن هنا عرف بعضهم الشجاعة بأنها هيئة للقوة الغضبية متوسطة بين التهور والجبن فمن حملته هذه القوة على أن يقابل الأخطار بثبات لايحمله على ذلك إلا الدفاع عن العرض أو المال أو النفس أو الدين أو الانتصار للفضيلة والقضاء على الرذيلة وخدمة المجتمع فانه يكون شجاعا مقداما ومن أحجم فهو الجبان .

أما إذا طغى عليه غضبه فجعله يبطش من أجل شهوته أو يتجاوز الحد المشروع فى الدفاع عن الواجبات كأن ينتقم فى سبيل الدفاع عنها من الأبرياء أو يبالغ فى الانتقام من غير ضرورة فانه يكون متهوراً مذموما .

يشير لذلك قول رسول الله ﷺ « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » رواه البخارى ومسلم . والصرعة بضم الصاد وفتح الراء هو الذى يصرع الناس كثيراً بقوته فليست الشجاعة مجرد الشدة عند البأس والقوة التى بها يصرع الناس وانما الشجاعة هى أن يضبط نفسه عند الغضب فلا يذره يطغى ويتجاوز حد الاعتدال

ومما ينبغى التنبه له أن من لوازم الشجاعة أن يضبط الانسان نفسه فى أمور . أولا تقدير حال الذى يريد أن ينازله فلا يغفل تقدير عدده وعدته كما قال تعالى (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة) ثانيا . تقدير الأخطار التى تحدق به والظروف التى تحيط به وبمن معه إن كان معه جمع . فلا يصح أن يخاطر ويلقى بنفسه إلى التهلكة . ثالثا . أن يستعمل الوسائل الممكنه من غير القوة فى الدفاع قبل القوة ومن لم يقدر كل هذه الأمور فانه يكون متهوراً لا شجاعا لأن المقصود من الشجاعة إنما هو الوصول إلى دفع أذى المعتدين وردهم إلى الحق وهذا لايكون إلا بقهرهم وإرغامهم . ومن لم يقدر هذه الأمور فانه يرغم ويقهر هو فتكون النتيجة عكسية ويزيد اعتداؤهم وطغيانهم بعد ذلك .

فالشجاع الصحيح هو الذى يؤدى واجبه كاملا فلا يرده الخوف والفزع عن الاقدام ولايدفعه التهور إلى مايقضى عليه بدون جدوى

أنواع الشجاعة

تنقسم الشجاعة إلى قسمين مادية كمنازلة الأعداء فى ميادين القتال أو مناضلة الخصوم الذين يحولون بينه وبين أغراضه . ونحو ذلك . وأدبية وهى أن يقول الحق الذى يعتقده مهما ترتب على ذلك من خطر عليه وألم يلحقه .

ولكل من النوعين أمثلة كثيرة يحمل ذكرها هنا لتكون عظة وذكرى وعلاجا لمن انحطت عنده درجة الغضب فلم يغضب حيث يجب الغضب . ولا ريب فى أن خير مثال يحتذى فى ذلك وأحسن أثر يقتفى فيه هو أثر رسول الله ﷺ وأصحابه فانه صلى الله عليه وسلم هو السراج المنير الذى أرسله الله هاديا إلى أقوم السبل وأعدل الطرق . فمن اهتدى بهديه لن يضل . ومن اقتدى به وبأصحابه فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لاانفصام لها .

عن أنس رضى الله عنه قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبى صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة وفى عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا لم تراعوا ثم قال وجدناه بحراً أو قال إنه البحر » يريد أن فرسه يجرى به كالبحر الذى يجرى

ذلك مثل من شجاعته ﷺ فانه خرج بالليل يتلمس سبب الفزع قبل أن يخرج الناس ويواجه الخطر قبل أن يلقاه غيره مع أنه عليه الصلاة والسلام هو قائدهم الأعظم الذى يفدونه بأرواحهم وإمامهم الأكبر الذى يحوطونه بمهجهم وأفئدتهم ولكنه لم يتخذ من ذلك وقاية يحتمى خلفها فينام وهم يحرسونه ويقعد وهم يخدمونه ويدفعهم الى مواطن الخطر وهو فى مأمن منه . كلا ان شجاعة رسول الله فوق ذلك فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يجاهد لتكون كلمة الله هى العليا . وأول من يقدم لنصرة دين الله وتأييده . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقول « والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لاتطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ماأحملهم عليه ماتخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل » رواه البخارى . ذلك مايقوله رسول الله ﷺ فهو لايتخلف عن سرية تغزو — والسرية طائفة من الجيش يبلغ أقصاها اربعمائة تبعث الى العدو وجمعها السرايا — الا لضرورة وهو أن كثيراً من المؤمنين القائم بينهم لايسمحون له بالذهاب وحده . بل هم يحبون أن يكونوا معه وليس عنده من معدات الحرب ماتكفى لحملهم وتجهيزهم فهذا هو الذى يمنعه أن يذهب مع كل سرية ولو قليلة ولم يكن المانع له الخوف من الموت لأنه يتمنى أن يموت فى سبيل الله عدة مرات حبا فى أداء هذا الواجب المقدس ورغبة فى الدفاع عن الحق . ولا غرو فان نفسه الكريمة من أكمل الأنفس وأعظمها تقديراً للواجب رشغفا بأدائه فلا يمنعه عن ذلك ألم ولا يصده عنه فزع عليه الصلاة والسلام .

وروى عن جبير بن مطعم « أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبى صلى الله عليه وسلم فقال أعطونى ردائى لوكان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا » رواه البخارى

مقفله — بفتح الفاء — مرجعه من غزوة حنين أى تعلق به الناس وهو راجع من هذه الغزوة يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة فضويق رسول الله ﷺ والتجأ الى سمرة — بضم الميم — شجرة

عظيمة لها شوك جمعها سمر كرجل وهي من شجر العضاة الآتى ذكره فى الحديث فالعضاة اسم لكل شجرة عظيمة لها شوك وهو جمع واحده عضاهة — بكسر العين —

ولقد صدق عليه الصلاة والسلام فانه أجود الناس وأشجعهم وأصدقهم بلا نزاع لذلك كان يدعو الله تعالى أن يقيه شر الجبن فكان يقول « اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم » رواه البخارى .

وروي عن أنس رضى الله عنه قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة فلم يكن معهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال اللهم « ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » . فقالوا مجيبين له .

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد مابقينا أبداً

وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين لايصدهم عن الدفاع عن دينهم حر ولا برد ولا يفتر عزائمهم جوع ولا عطش . ولا يزعزع عقيدتهم تعب ولا نصب ولا تثنيهم عن المشاق رفاهية ولا ترف .هؤلاء هم الذين رأوا رحمة نبيهم بهم وتألمه من أجلهم فاجابوه بما يضاعف ثقته ويطمئنه على ايمانهم وشجاعتهم فقالوا اننا بايعناك على القتال ومن ورائه الموت فلا يضيرنا بعد ذلك تعب ولا نصب ولا يؤذينا جوع ولا ألم وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين وعدهم الله بالنصر المبين وقد وفى الله تعالى لهم بما وعد فظفروا باعدائهم وكانوا أعز الناس وأعلاهم قدراً

روى عن سلمة رضى الله عنه قال « بايعت النبى ﷺ ثم عدلت الى ظل شجرة فلما خف الناس قال يا ابن الأكوع ألا تبايع قال قلت قد بايعت يارسول الله قال وأيضا فبايعته الثانية فقلت له ياأبا مسلم على أى شيء كنتم تبايعون يومئذ قال على الموت .

فانظر الى أى حد انتهت شجاعة أصحاب رسول الله ﷺ والى أية درجة بلغ تقديسهم لدينهم واحترامهم لعقيدتهم الصحيحة . وتامل كيف أنهم لم يبالوا بارواحهم ينفقونها فى سبيل الانتصار للفضيلة الا إن هؤلاء هم المفلحون الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه فاعزهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أحسن الجزاء .

ولقد أثنى الله تعالى على من أوفى بعهده منهم فى كتابه الكريم فقال (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)

روى عن أنس رضى الله عنه قال « غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ماأصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال ياسعد بن معاذ الجنة ورب النضر انى أجد ريحها من دون أحد قال سعد فما استطعت يارسول الله ماصنع قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل

به فما عرفه أحد الا أخته ببنانه قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه من المؤمنين (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) » الى آخر الآية رواه البخارى .

فهذا مثال من أمثلة التضحية والثبات فلقد فات ذلك الرجل العظيم أن يكون مع أصحابه فى قتال بدر فكان يعد ذلك فرصة عظيمة فاته اغتنامها وكان لذلك يتمنى أن تهيء له الفرص أن يشهد قتال المشركين فكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو أشهدنى الله ذلك لنكلت بهم وأبليت فيهم البلاء الحسن فاشهده الله قتال أحد وكان من سوء الحظ أن المسلمين فى هذه المعركة قد انهزموا لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ وتركهم مواقفهم التى أمرهم أن لايبرحوها فلما رآهم على هذه الحالة لم تثن عزيمته ولم ينكث بعهده واعتذر الى الله من صنيع أصحابه وهزيمتهم وبرأ اليه من صنيع المشركين بمحاربة دينه ثم أقدم يضرب فى المشركين فلقيه سعد بن معاذ أثناء ذلك وهو فى هزيمته فقال له أنس ياسعد الجنة انى أجد ريحها من دون أحد يريد تحريضه وأقسم له برب النضر — يعنى أباه او ابنه لأنه كان له ولد صغير اسمه النضر — وسعد ينظر اليه والى صنعه بالمشركين وتالبهم عليه فوصف حالته هذه لرسول الله ﷺ وقال له انى مع كونى معك ولى منزلة بين قومى لم أستطع أن أصنع مثل ماصنع أنس بن النضر .

ان ذلك العظيم كان يعاهد الله بقلب ممتلىء صدقا واخلاصا وكان يحدث عن شعور ملكه من جميع جهاته حتى اصبح القتل والقتال عنده من اللذات التى لايستطيع المرء ان يضبط نفسه عند ثورتها لأنه مؤمن ايمانا صحيحا وجازم يقينا بان من وراء قتله فى سبيل الله حياة طيبة خالدة فى جنات النعيم حتى اصبح ذلك اعتقاداً محسوسا عنده . فلقد اقسم لسعد برب النضر انه يجد ريح الجنة . ومثل هذا جدير بان يثنى الله عليه فى كتابه الكريم ويصفه بصدق العهد وتنفيذه على اكمل حال .

ولقد كانوا يتنافسون فى الدفاع عن دينهم ويتبارون فى القضاء على اعداء الله حتى ان الانصار من الاوس والخزرج كانوا اذا عملت احدى القبيلتين عملا للدين لاتهدأ الاخرى الا اذا قامت بمثله . روى عن عبد الله بن كعب بن مالك انه قال « مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيين من الانصار . الاوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين لاتصنع الاوس شيئا فيه عن رسول الله ﷺ غناء الا قالت الخزرج والله لايذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ﷺ فى الاسلام فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها قال واذا فعلت الخزرج شيئا قالت الاوس مثل ذلك. ولقد منى المسلمون فى المدينة باليهود فكانوا من أشد الناس عداوة لهم وكان من رؤساء اليهود وأصحاب النفوذ فيهم كعب بن الاشرف وابو رافع سلام بن ابى الحقيق فقتل رجل من الاوس كعب بن الاشرف فقالت الخزرج والله لايذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ﷺ ابداً فتذاكروا فيمن هو مثل كعب بن الاشرف فى عدائه للنبى ﷺ فعلموا انه ابو رافع فاستاذنوا النبى ﷺ فى قتله فاذن لهم » رواه الطبرى

هذه الروح ترشدك الى مقدار ماوصل اليه حب مرضاة رسول الله ﷺ من أنفس هؤلاء الاقوام وتبين لك كيف أنهم أصبحوا يتنافسون فى اقتحام المخاطر ويتبارون فى القضاء على اعداء

دينهم وخصومهم الذين يريدون بهم الهوان ويقفون فى سبيل الاصلاح حتى لقد صار عندهم من أكبر الامانى وأعظم اللذات

وقد روى البخارى حديث ابى رافع كما روى حديث كعب بن الأشرف فارجع اليهما إن شئت .

هذه مثل مصغرة لما كان يعمله المسلمون فى عهد رسول الله ﷺ ولقد كان مفروضا عليهم يومئذ أن يقوم الواحد منهم مقام عشرة فى القتال فلا يجوز له أن ينهزم إلا اذا زاد العدد على ذلك قال تعالى (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون آلآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)

ومعنى الآية الكريمة ان الله تعالى العليم باحوال خلقه وما يلازمهم من التطور والانتقال بتطور الظروف واختلاف الوسائل شرع لهم ماينا سب كل حالة ويلائمها فالمسلمون فى اول أمرهم كان عددهم قليلا بحيث لا يكاد يذكر الى جانب اعدائهم الكثيرين الذين يحدقون بهم من كل مكان فكان المناسب لهذه الحالة أن يكون لديهم من القوة المعنوية ومضاعفة العزيمة والثبات مايجعل الواحد منهم كعشرة من أعدائهم ففرض الله عليهم ذلك

ولما كان هذا شاقا فى العادة ويكاد يكون غير ممكن هون الله عليهم الأمر فقال لهم ان الكافرين قوم لايفقهون لانهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدركون معنى الفضيلة فهم كالانعام لجدير بالمؤمنين أن يسوقوهم كما تساق البهم ومع هذا فقد وعدهم بانهم ان امتثلوا يظفروا إذ قال لهم يغلبوا مائتين ففى الآية أمر لهم بان يثبت الواحد منهم لعشرة ووعد بان من فعل ذلك يغلب . هذا ما كان يناسبهم فى اول أمرهم وهى حالة غير طبيعية فلما كثر عددهم وأصبحت حالتهم طبيعية اقتضت تشريعا مناسبا لها ففرض الله عليهم أن يثبت الواحد منهم لاثنين من الكفار فقال لهم (آلآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ومعنى هذا أن الظرف تغير ففى الحالة الأولى وأنتم فى قلة كنتم أقوى منكم وأنتم فى كثرة لانكم فى الحالة الاولى كنتم تعتمدون على القوة المعنوية وحدها . أما فى الحالة الثانية فقد أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا فلهذا تغير تعلق علم الله بتغير الظرف وتعلق بحالة الضعف هذه فشرع لكم ماينا سبها على أنكم على أى حال تمتازون بميزة لن تفارقكم وهى الايمان بالله ورسوله فلم تكونوا كغيركم مهما كانت الحالة طبيعية وليكن الواحد منكم كاثنين من الكافرين . ومثال الحالة الأولى ماوقع لهم ببدر فان المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركين كانوا أكثر من الف ومع ذلك فقد كان موقع المشركين صالحا للقتال فقد كانوا فى الارض الصلبة التى بها الماء وكان المسلمون فى أرض رخوة تغوص فيها أقدامهم ولم يكن بها ماء . ولم يكونوا مستعدين تمام الاستعداد ولذلك كره بعضهم القتال ولكن شجعانهم قالوا لرسول الله ﷺ نحن معك كما تحب روى أن المقداد بن عمرو قال يارسول الله امض لما أمرك الله تعالى فنحن معك حيث أحببت لانقول كما قال بنوا اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال أشيروا علىّ ايها الناس يريد الانصار فقام سعد بن معاذ رضى الله عنهما

فقال يارسول الله إيانا تريد قال اجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ولا نكره أن تلقى بنا عدونا وإنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركات الله تعالى فالتقى الجيشان وانهزم المشركون وهم كثر بتأييد الله تعالى اياهم وهم قلة

ومثال الحالة الثانية ماوقع لهم فى حنين فانهم انصرفوا لها بعد فتح مكة وقد اختلط بجيشهم عدد كثير ممن أسلم حديثا بمكة فكان عددهم نحو إثنى عشر الف ولذا قال بعضهم نحن الآن لانغلب من قلة فلما التقوا بعدوهم قابلهم الرماة بالسهام فاختل نظام الجيش وانهزموا فى بادئ الأمر ولكن النبى ﷺ نادى اصحاب البيعة فاقبلوا عليه واستجمعوا قوتهم فهزموا العدو مرة ثانية وفى ذلك يقول الله تعالى (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) الآية

وإنا نكتفى هنا بذكر ذلك النذر اليسير مما كانت تنطوى عليه قلوب المسلمين من الشجاعة والغيرة على دينهم وكرامتهم اذ لايسع المقام ذكر جانب عظيم مما كانوا يقومون به من التضحية فى سبيل الدفاع عن الواجب وتأييد الحق فان ذلك كان شأنهم دائما فلا تهن لهم فيه عزيمة ولا تضعف لهم ارادة ولا تفتر لهم قوة يستعذبون الموت ويتمنون الشهادة فى سبيل الله فمن أجل ذلك لا تزلزلهم الكوارث ولا تفزعهم العواصف فنصروا دين الله فنصرهم الله وحاربوا لاعلاء كلمته فاعلى الله قدرهم ودانت لهم رقاب اعدائهم وخضعت لقوتهم وشوكتهم الجبابرة واصبحوا سادة أهل الدنيا ولهم فى الآخرة أحسن الجزاء

اما شجاعتهم الأدبية وثباتهم على الحق فانك لابد أن تلمسها مما ذكرناه لك لأنهم ما حملهم على حب الموت والرغبة فى التضحية الا الثبات على الدين الحق والايمان بالله ورسوله . والانتصار للفضيلة والقضاء على الرذيلة ولهم فى ذلك مواقف مشهورة لا تنحصر وحوادث اصبحت مثلا للعالمين . ولا ريب فى أن سيدهم فى ذلك بل سيد الناس طرا هو مربيهم الاعظم ومرشدهم الاكبر سيدنا ومولانا محمد ﷺ فلقد جاء بتوحيد الله تعالى وأمره الله ان يدعو اليه ويصدع به بين قوم يدينون بعبادة الأوثان وهم لدينهم متعصبون ولاعتقادهم الفاسد مقدسون قال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال تعالى (وأنذر عشيرتك الاقربين) فجمع ﷺ عشيرته ودعاهم الى توحيد الله وقال لهم انى لا أغنى عنكم من الله شيئا فقال له ابو لهب تبا لك ألهذا جمعتنا فأنزل الله تعالى (تبت يدا ابى لهب) الآية ولما أظهر النبى صلى الله عليه وسلم دعوة الحق لم يضطهدوه اضطهادا شديدا الى ان عاب آلهتهم فذهبوا الى ابى طالب وقالوا له انك تعبد الأصنام كما نعبد فمر ابن اخيك أن لا يتعرض لآلهتنا والا سلمه لنا نكفيكه فقال لهم ابو طالب قولا لينا وردهم ردا جميلا ولكن النبى ﷺ مضى الى الدعوة الى ربه كما كان فرجعوا اليه مرة اخرى واغلظوا له فى القول فعظم عليه فراق قومه ولكن لم تطب نفسه بخذلان ابن اخيه فقال له ياابن اخى هلا تركت آلهتهم فدمعت عين النبى ﷺ وتغير وجهه فقال له ابو طالب ياابن اخى قل ماأحببت فوالله لا اسلمك لشئ ابدا ثم رجعوا الى ابى طالب مرة أخرى وقالوا ان كان ابن اخيك يريد الملك جعلناه ملكا علينا وان كان يريد

المال جمعنا له من المال ما يرضيه فعرض ابو طالب الأمر على النبي ﷺ فقال له ياعمي والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك فيه . ثم مضى في الدعوة الى الله تعالى لا يهولنه أمر ولا يفزعه هول يدعو الناس كما أمره الله

ولقد كان صلى الله عليه وسلم معروفا بالثبات على الحق والتمسك بالصدق من نشئته الاولى شهد له بذلك اعداؤه قبل اصدقائه فاقد اجتمع بعض صناديد اعدائه عند الوليد بن المغيرة وكان يلقب بريحانة قريش لما له من المنزلة الرفيعة في نفوسهم ليتشاوروا فيما يرمون به النبي ﷺ من الذم في الموسم حيث يجتمع الناس من جهات شتى لينفروهم عنه فقال لهم الوليد ماذا تقولون قالوا نقول عنه إنه كاذب فقال وهل قال محمد كلمة كاذبة قط فقالوا نقول عنه انه مجنون فقال وهل عهدنا أرجح منه عقلا فقالوا نقول عنه إنه شاعر فقال وهل قال محمد الشعر قط ثم قال لهم والله اني لاعلمكم بشعر الانس والجن ولقد سمعت من محمد آنفا كلاما لاهو من كلام الانس ولا هو من كلام الجن فان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه وانه يحطم ما تحته وكاد يسلم لولا تأثير ابي لهب عليه وكان قد سمع اول سورة فصلت ولما مضى ﷺ في تبليغ رسالة ربه اشتد ايذاء المشركين اياه وتوفي عمه ابو طالب وزوجه السيدة خديجة في عام واحد فلم يبق له ناصر الا الله تعالى القاهر فوق عباده الحكيم الخبير فطفق المشركون يؤذونه بجميع صنوف الايذاء وكان يعرض نفسه على القبائل لايطالبهم بتصديقه وانما يطالبهم بحمايته من شدة الاضطهاد فكانوا يردونه اقبح رد ويسلطون عليه العبيد والصبيان يضربونه بالحجارة وقد اشتد الألم على نفسه الكريمة مرة فشكا الى الله تعالى فاوحى الله اليه ان شئت طبقت لك عليهم الجبال فلم يرض بذلك وقال اني ارجو ان يخرج من اصلابهم من يوحد الله تعالى

وهذا هو شأن أولي العزم من المصلحين فانهم لم ييأسوا من اصلاح الناس ولم يبالوا بما يصيبهم من الاذى والاضطهاد والموت في سبيل سعادة المجتمع ولقد كان صلى الله عليه وسلم يكاد يهلك حزنا واسفا على هؤلاء السفهاء الذين يتبعون شياطينهم واهواءهم فيشقون بذلك شقاء دائما مستمرا ويعذبون عليه عذابا اليما خالدا حتى لقد قال الله تعالى له (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا) — باخع نفسه اى قاتلها غما —

وكذلك سائر الرسل صلوات الله عليهم فانهم جاهروا بالحق وهم يعلمون ما يحيط بهم من المخاطر وما ينتظرهم من الاضطهاد لأن الله ارسلهم لاصلاح الناس وهدايتهم فليس لهم وظيفة سوى هذا في حياتهم فان عاشوا فانما يعيشون لها وان هلكوا فانما يهلكون في سبيلها فجزاهم الله عن الامم خير الجزاء

واما مثل شجاعة اصحاب رسول الله الادبية فكثيرة لأن الايمان الصحيح متى خالط القلوب اصبحت لاتعرف الا الحق وهان عليها في سبيله كل عذاب واضطهاد فانظر الى سيدنا عمر بن الخطاب وقت دخوله في الاسلام فانه ذهب ليقتل رسول الله ﷺ فلما وصل الى النبي هداه الله للاسلام فاسلم وكان المسلمون لايستطيعون المجاهرة بالتوحيد خوفا من ايذاء المشركين فقال لعمر السنا على الحق قال له نعم قال وما يمنعنا أن نجاهر به ونخرج من عنده يصيح لااله الا الله ويزأر بها كما يزأر الاسد فتجمع عليه المشركون

يضربونه ويضربهم ولا يثنيني عن المجاهرة بالحق . وكذلك ابو ذر الغفارى فانه كان بعيدا عن مكة وسمع بالنبى صلى الله عليه وسلم فارسل أخا له يكشف الخبر فرجع اليه وأخبره فلم يشفه خبره وذهب بنفسه فنزل فى المسجد فلقيه سيدنا على رضى الله عنه فدعاه الى منزله واستمر على ذلك ثلاث ليال وفى الليلة الثالثة سأله عن حاجته فقال له انه يقصها عليه إن عاهده أن لا يذيعها ففعل فقال له أنا ادلك على رسول الله على ان تتبعنى من بعد حتى إذا مارأيت أحدا من اعدائه وقفت اصلح نعلى فترجع ثم ذهب الى رسول الله ﷺ فعرض عليه التوحيد وقرأ عليه القرآن فادرك انه من عندالله فصدق به فلما خالط الايمان قلبه دفعه الى المجاهرة بالحق بدون خوف ولا وجل فذهب الى المسجد وكفار قريش موجودون وصاح قائلا لااله الا الله محمد رسول الله فاجتمع المشركون عليه وظلوا يضربونه حتى أغمى عليه فلما افاق أعادها ثانيا فعادوا إلى ضربه . وفى الثالثة قال بعضهم إنكم بذلك تقتلونه وان قبيلته فى طريقكم الى الشام فلا تتركنكم تمرون عليها بسلام فكفوا عنه .روى معنى كل ما تقدم البخارى وغيره من كتب السنة الصحيحة . فانظر كيف انه كان خائفا قبل الايمان بالله فلما آمن به تعالى لم يبال بالمجاهرة بالحق وعرض نفسه لخطر القتل حبا فى الانتصار للفضيلة وحرصا على ظهور الدين .وامثال ذلك اكثر من أن يحصى

فمن كان جبانا لايغار على عرضه ولا على نفسه ولا على دينه ولا يبالى بخذلان الحق وظهور الباطل فعليه أن يقتدى بهولاء الكرام البررة وأن يطالع سيرهم ويقف على اعمالهم فان ذلك خير علاج ينفعه ويهديه الى سواء السبيل

الجدل والمراء والخصومة

لاريب فى أن هذه الامور الثلاثة من اقوى الأسباب التى تثير الغضب وتهيجه فأما الجدل فهو كل اعتراض على كلام الغير لاظهار مافيه من خلل فى لفظه أو فى معناه أو فيهما معا او فى قصد المتكلم كأن يقول له هذا الكلام حق ولكنك قصدت به باطلا . وأما المراء فهو فى معنى الجدل الا أن المراء لايتعلق به غرض سوى تحقير الغير واظهاره بمظهر الجاهل والظهور عليه بالفضل والعلم بخلاف الجدل فانه قد يتعلق به أيضا إظهار المذاهب وتقريرها وأما الخصومة فهى لجاج فى الكلام يقصد منه الحصول على مال او حق مقصود وهى تارة تكون من أول الأمر وتارة تكون اعتراضا على

كلام الغير بخلاف المراء فانه لابد أن يكون اعتراضا على كلام الغير . ولقد قدمنا لك غير مرة أن الشريعة الاسلامية السمحة انما تنظر فى احكامها الى المصلحة العامة دائما فلا تحرم حراما ولا تحلل حلالا الا اذا كان فى ذلك مصلحة عاجلة أو آجلة تعود على المجتمع والأفراد . فاذا علمت هذا فاعلم أن الجدل بالمعنى المذكور تارة يكون ممدوحا وتارة يكون مذموما . فالاول ما إذا كان فى أمر يتعلق بالدين كأن تكلم أحد بما يناقض أصلا من أصول الدين فان اظهار ما فى هذا الكلام من الخلل بالأدلة والبراهين وتقرير الحقيقة لازم والسكوت عنه اثم ولكن ينبغى لمن يتصدى لذلك أن يتأدب بآداب القرآن الكريم فى جدله . قال تعالى (وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فالجدل فى دين الله تعالى بالرفق والأدب ممدوح بدليل هاتين الآيتين إلا مع المعاندين والمكابرين فان هؤلاء لاتنفعهم المجادلة بل اللازم حسم شرهم بالوسائل الأخرى . فينبغى لمن يجادل فى الدين أن يجعل كل همه منصرفا الى انتقاء المعانى المقنعة . واختيار البراهين القاطعة . وليس من الصواب أن يسب ويشتم أو يتعمد مجادلة خصمه أمام الناس ليحرجه ويشهر به فان ذلك قد يفضى به إلى العناد والتمادى على باطله . وفى ذلك ضرر أشد من ضرر السكوت فاذا أمكنه اقناع خصمه بالوسائل الحكيمة فذاك وإلا فعليه أن يتركه ويحذر الناس من شره بقدر مايتاح له من الوسائل والأسباب .

وتارة يكون الجدل فى أمر له مساس باصلاح حال الناس ونفعهم . فاذا جاء فى كلام أحد ماينافى ذلك وكان لكلامه تأثير فى نفوس الناس ويخشى أن يعملوا برأيه فيصيبهم ضرر مادى أو أدبى . كان من الواجب دينا على من يعلم ذلك الخلل أن يجادله ويبين له مافى كلامه من الضعف ويشرح الآثار الضارة التى تترتب عليه بالبراهين المقنعة لأن الرفق بالناس ودفع الأذى عنهم واجب دينى على كل قادر عليه فمن لم يرحم الناس ويدفع عنهم الأذى بكل مايستطيع كان آثما . والسنة الكريمة مملوءة بالحث على ذلك .

فمن ذلك مارواه البخارى ومسلم من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك فأخذه فشكر الله له فغفر له » ومنه ماروى عنهما أيضا من أن النبى ﷺ قال « الايمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لاإله إلا الله » فقد جعل عليه الصلاة والسلام إزالة الأذى من الايمان . وروى الطبرانى أن النبى ﷺ قال « من أخرج من طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له به حسنة ومن كتب له عنده حسنة أدخله بها الجنة » الى غير ذلك من الأحاديث

فتلك حالتان يكون الجدل فيهما ممدوحا بل هو لازم ضرورى لما يترتب عليه من الدفاع عن الدين ودفع الضرر عن المسلمين . على أن كثيراً من الناس يستفزه الغضب فلا يحسن الجدل فى ذلك فبدلا من أن يأتى بالبراهين القاطعة لاثبات مايريد يجعل همه فى السب والشتم والتشهير ظنا منه أن فى ذلك ثوابا وعليه أجرا . وذلك أضر على الدين وعلى جماعة المسلمين من صاحب الرأى الفاسد

الذى يحاول الرد عليه لأن المسألة تنتقل من اقناع بالبرهان الى تهاتر وسباب يحمل الخصم على المقابلة بالمثل ويضيع الحق بين المتشاتمين .

فالواجب على من يتصدى للجدل فى هاتين الحالتين أن يجادل بالتى هى أحسن كما قدمنا وأن يتبع آداب الجدل والمناظرة فى ذلك وأن يسلك سبيل الحكمة فى الاقناع حتى يظفر بغرضه .

وتارة يكون الجدل فى أمر من أمور الدنيا التى لاتعلق لها بالمصالح العامة كأن يتنازعان فى أن هذا الزرع أحسن من ذاك أو أن فلانا أعلم من الآخر أو أنه أتقى منه أو أن هذا البناء لايعمر طويلا إلى غير ذلك .

والمراء فى هذا وأمثاله مذموم كل الذم لأنه فضلا عن كونه مثاراً للغضب فانه مضيعة للوقت بدون جدوى .

وتارة يكون الجدل فى العلوم الآلية . كالنحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق . والجدل فى ذلك إن كان الغرض منه الوصول الى حقيقة علمية وكان بالأدب والحسنى فهو ممدوح . أما إن كان الغرض منه إظهار نقص فى غيره وتجهيله فهو مذموم ينبغى تركه لأنه يثير الغضب ويولد الضغائن والأحقاد من غير ضرورة لذلك سواء أكان محقاً أم مبطلا . ولهذا قال رسول الله ﷺ « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا وببيت فى أعلا الجنة لمن حسن خلقه » رواه أبو داود وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام « ماضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » من حديث أبى أمامة

ونقل عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قال . لاتتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث . لاتتعلمه لتمارى به ولا لتباهى به ولا لترائى به . ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضى بالجهل منه

وأما الخصومة وهى أن يكثر فى القول ويلج فيه كى يظهر على خصمه وينال منه مايقصده فهى على ثلاثة أقسام .

الأول : أن يفعل ذلك لأجل أن يصل الى حق له يجحده غيره بدون ضرر به أو نكاية وهذه ممدوحة لأن الحصول على الحقوق مطلوب شرعا إلا اذا تجاوز عنها راضياً .

الثانى : أن يفعل ذلك ليقتطع حق الغير بالباطل فيأتى بزخرف القول ويستعمل العبارات التى لايستطيع خصمه افحامه فيها ويرددها كلما وجد لذلك سبيلا . ولا ريب فى أنها مذمومة كل الذم سواء كانت شديدة أو خفيفة إلا أن الخصومة الشديدة فى الباطل أكبر جرماً وأشد إثما أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم « أبغض الرجال الى الله تعالى الألد الخصم والألد الشديد فى خصومته قال تعالى (وهو ألد الخصام) » أى شديد المخاصمة فى الباطل .

الثالث : أن لايخاصم لاقتطاع حق الغير ولكن قد حبب اليه الخصومة ومشاكسة الناس فلا ينفك يخاصم فى القليل والكثير وفيما ينبغى التنازع فيه ومالا ينبغى وما يمكن أن يحصل عليه بدون المخاصمة ومالا يمكن وهذه وإن كانت مذمومة إلا أنها أقل من الأول ذما .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله عبداً سمحا اذا باع

سمحا اذا اشترى سمحا اذا اقتضى » رواه البخارى وابن ماجه . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « دخل رجل الجنة بسماحته قاضيا ومقتضيا » رواه أحمد . وعن حذيفة رضى الله عنه قال «اتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا فقال له ماذا عملت فى الدنيا قال (ولا يكتمون الله حديثا) قال يارب آتيتنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى » رواه مسلم .

وأمثال ذلك كثير فى سنة خير الأنام عليه الصلاة والسلام . واذا كانت الخصومة مذمومة الا اذا كان الغرض منها الحصول على حق يجحده الغير فما بال الناس الذين أصبحوا لاهمّ لهم الا خلق المشاكل وتدبير وسائل الخصومة ورفع الدعاوى الباطلة وترويجها بالوكلاء والمحامين وابتكار الأساليب الباطلة والوسائل المزورة للحصول على أموال الناس بالباطل . أو الانتقام من الأبرياء والنكاية بهم الا ان هؤلاء شر عباد الله تعالى وأتعسهم حظا وأحطهم عند الله قيمة وقدراً . فلهم على ذلك أسوأ الجزاء وأشد العذاب وان يضيع عند الله حق اغتصبوه بالحجة الباطلة بل لابد أن يرده الله لصاحبه بأن يخلف عليه فى الدنيا ويجعل له عليه سلطانا فى الآخرة يوم لاينفع مال ولا بنون . فليحذر المسلمون من الخصومات التى لاتدفعهم اليها الضرورة وليعلموا أن الله شديد العقاب .

المزاح

تقدم لك القول فى أن المزاح من الأسباب التى تثير الغضب وتهيجه . فمن كان سريع الغضب بطبيعته أو بالتعود فانه ينبغى له أن يعالج نفسه باجتناب الأسباب المثيرة للغضب ومنها المزاح وهو قول أو عمل ماعساه أن يضحك وهو أيضا قسمان ممدوح ومذموم . فالممدوح ما كان الغرض منه تسلية النفس عما يساورها من الهموم والأحزان التى تضر بالبدن وتؤثر على العقل فتشغله عن التفكير فى العمل النافع وتدبير أموره على وجه صحيح فاذا كان المزاح ينتج ذلك فهو لازم لأنه فى هذه الحالة قد يفضى بالحزين إلى الصبر والسلوى فنسيان المصيبة . ويفضى بالكسول إلى النشاط وبالعليل إلى الصحة ولكن يشترط فيه أن لايخرج عن حدود الأدب والدين .

والمذموم هو ماترتبت عليه آثار سيئة كأن يخرج عن حد اللياقة فيثير غضبا قد يجر إلى مالا تحمد عقباه أو يخرج عن الآداب الدينية كأن يكشف المازح سوأته ليضحك غيره أو يشوه صورته تشويها يسقط بالكرامة أو يؤذى غيره بالسب وشتم الوالدين أو بالضرب تحت ستار المزاح أو يهين ذا مروءة ليضحك الناس عليه أو يضيع وقته فى اللهو واللعب وكثرة الضحك أو يتخذه حرفة دائمة يصرف بها الناس عن العمل ويعلمهم السخرية والاستهزاء ببعضهم إلى غير ذلك مما هو مشاهد بين الجهلة الذين لاهمّ لهم الا مرضاة الشهوات وتضييع الأوقات سدى وأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

ومن ذلك تعلم أن الشريعة الاسلامية دائما تنظر فى أحكامها إلى مصالح الناس ودفع الشرور والمفاسد فما يجىء بفائدة ويدفع ضرراً فانها تحبذه . وما يجىء بعكس ذلك فانه مذموم فى نظرها لاتقره ولا ترضاه .

وللنوعين من المزاح الممدوح والمذموم أمثلة وقعت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلنذكر هنا طرفا منها ليكون نبراساً يهتدى بهديه المازحون ويعتبر به المسلمون فانه لن يستقيم لنا حال ولا تهنأ لنا عيشة الا اذا اقتدينا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلكنا سبيلهم التى اعزهم الله بسلوكها ورضى عنهم فى الدنيا والآخرة باتباعها وعدم الخروج عنها . وتلك هى سبيل الدين القيم الذى شرعه الله لنا ووصانا به كى نفوز بالسعادة فى دنيانا وآخرتنا وإنه بنا لرءوف رحيم .

فمن أمثله المزاح الممدوح مارواه الترمذى مرسلا قال « أتت النبى ﷺ عجوز فقال لها لن تدخل الجنة عجوز فبكت فقال انك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى (انا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً) » .

وما رواه ابن أبى الدنيا قال « جاءت امرأة الى النبى ﷺ يقال لها أم أيمن فقالت له إن زوجى يدعوك قال ومن هو أهو الذى بعينه بياض قالت مابعينه بياض قال بلى بعينه بياض فقالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وبعينه بياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة » وفى هذا الحديث دلالة صريحة على أن الحلف يتبع الاعتقاد لأن المرأة أقسمت مرتين على نفى البياض الذى تعتقد أنه غير موجود ولم ينكر عليها النبى ﷺ ذلك .

وما رواه أبو داود والترمذى وصححه قال « جاءت امرأة الى النبى ﷺ فقالت يارسول الله احملنى على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ماأصنع به إنه لايحملنى فقال صلى الله عليه وسلم مامن بعير الا وهو ابن بعير » .

وما رواه أبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها قالت كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لاأحبه فقالت والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك فقالت ماأنا بذائقته فأخذت بيدى من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها فخفض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبته

لتستفيد منى فتناولت من الصفحة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يضحك.

وما رواه ابن بكار من أن الضحاك بن أبي سفيان الكلابي «كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحيراء — يريد عائشة — وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب. أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما — قبيح الوجه —

وما رواه ابن ماجه والحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة لصهيب أتأكل التمر وأنت رمد فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه.

فهذه طائفة من الأحاديث النبوية ترشد إلى نوع المزاح الممدوح وتشير الى أن النكات الأدبية التى لافحش فيها ولا كذب ممدوحة لأن فيها تطييبا للنفس ومسرة من غير أن يترتب عليها ضرر أو تخالف قواعد الدين.

ومن أمثلة المزاح المذموم مارواه البخارى عن جابر رضى الله عنه قال «غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريا فغضب الأنصارى غضبا شديداً حتى تداعوا وقال الأنصارى ياللأنصار وقال المهاجرى يالمهاجرين فخرج النبي ﷺ فقال مابال دعوى أهل الجاهلية ثم قال ماشأنهم فأخبر بكسعة المهاجرى للأنصارى قال فقال النبي ﷺ دعوها فانها خبيثة. وقال عبد الله بن أبي بن سلول أقد تداعوا علينا لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال عمر ألا تقتل يارسول الله هذا الخبيث — لعبد الله — فقال النبي ﷺ لايتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه».

وتلك الغزوة هى غزوة المريسيع كانت فى سنة ست من الهجرة ومعنى ثاب معه ناس من المهاجرين خرج معه واستعماله فى ذلك على غير حقيقة لأن ثاب معناه رجع واللعاب فى معناه أقوال اظهرها المزاح والكسع هو أن تضرب بيدك أو رجلك دبر انسان.

ولا ريب فى ان ذلك المزاح يكون مزاحا ثقيلا موجبا لثوران الغضب. وتداعوا معناه انتموا الى قبائلهم واستغاث كل واحد منهما بقومه بتلك الكلمة وهى يال فلان لفلان وهى دعوى الجاهلية التى نهى عنها رسول الله ﷺ فانهم كانوا يستعملونها لاستفزاز قبائلهم وحملهم على القتال بدون تثبت فيعتدون على الأبرياء ويسفكون الدماء ظلما وعدوانا فلذا نهى النبي ﷺ عنها ومن أجاب تلك الدعوى كان آثما يستحق العقوبة والتعذير.

وفى هذا الحديث عظة نافعة للزعماء الذين يريدون الاصلاح ويعملون على جمع قلوب الناس فانه يجب على الواحد منهم ان يغضى عما عساه ان يفرط من بعض افراد اصحابه ويتجاوز عن عقوبته اذا ترتب على تلك العقوبة ماقد ينفر الناس منه ويحول بينهم وبين المصلحة التى يريدها. لهم فما فعله

رسول الله أحسن مثال لهؤلاء فى تقدير الامور وضبط النفس عند الغضب. كيف لا ورسول الله هو سيد العالمين وخير المرشدين عليه الصلاة والسلام

فذلك مثال للمزاح المذموم الذى قد يكون من شر الأسباب المثيرة للغضب الضار خصوصا ما كان منه بالضرب والشتم واللعن فان المازح لايأمن أن تنطلق يده الى موضع من بدن المضروب لايحتمل فيه الضرب او الايذاء كما فى الحديث فيهيج غضبه لذلك . او ينطلق لسانه بكلمة قاسية لا يطيق احتمالها فيثور غضبه وبالجملة ينبغى اجتناب المزاح المثير للغضب الضار بالكرامة قال سعيد ابن العاص لابنه يا بنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنئ فيجترئ عليك

السخرية والاستهزاء

ومن الاسباب التى تثير الغضب وتولد الضغائن والأحقاد بين الناس السخرية والاستهزاء ومعناهما احتقار الناس وإهانتهم والتنبيه على عيوبهم على وجه يضحك فمن فعل ذلك مع غيره بدون رضائه فقد اقترف إثما وارتكب محرما لأنه خالف قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) فالسخرية بالناس بدون رضاهم سواء كانوا رجالا أو نساء نهى الله تعالى عنها. وانما نص على النساء لأن القوم هم جماعة الرجال لغة .قال زهير أقوم آل حصن أم نساء - يريد أهم رجال أم نساء - وقد يراد بالقوم الذكور والاناث تغليبا كما قيل فى قوم عاد وثمود

والسخرية تارة تكون بالمحاكاة فى القول والفعل وتارة تكون بالاشارة والايماء وهى لاتجوز على أى حال الا اذا سخر بمن يرضى وفى هذه الحالة تكون مزاحا لها حكم المزاح فان كان الغرض منها تسلية النفس وادخال السرور عليها بدون أن تخرج عن حدود الدين وآدابه فى القول والفعل كانت جائزة والا كانت محرمة كما تقدم بيانه فى المزاح

فعلى المؤمنين أن يتمسكوا بدينهم فيما عظم من الامور أو صغر ولقد أباح الله لهم من لذات الحياة وشهواتها مافيه الكفاية فليس من الحكمة أن تدفعهم شهواتهم النفسية وحبهم فى الضحك واللعب الى السخرية ببعضهم فان ذلك يولد العداوة والبغضاء . ويثير الضغائن والاحقاد . والمؤمنون اخوة ينبغى لهم أن يعيشوا فى صفاء وسعادة فاذا أبت عليهم شهواتهم فى الضحك واللعب الا ذلك فعليهم

أن لايخرجوا عن حدود اللياقة والادب فى القول والفعل بل يقتصروا على مافيه المسرة والنشاط بلا مبالغة ولا افراط والله يهدى من يشاء الى سواء الصراط

الفحش وبذاءة اللسان واللعن

ومن الاسباب المثيرة للغضب إطلاق العنان للسان فلا يبالى ان يسب هذا ويلعن ذاك وينال من إخوانه فى غيبتهم وينم عليهم ويشى بهم بدون أن يحسب لأحد حسابا أو يخشى على عمله عقابا ولا ريب أن ذلك من شر الأسباب التى تولد الاحقاد والضغائن وتثير غضب الناس على من يفعل ذلك فيجب على كل عاقل أن يضبط لسانه دائما ولا يعوّده على السب واللعن حتى مع خادمه وولده الصغير ودوابه وأنعامه فانه إذا تعود ذلك فلا يأمن أن ينال ممن يقابله بمثل قوله أو يزيد عليه فيثور غضبه ويطغى ويسوقه الى مالاتحمد عقباه وكذلك يجب عليه أن يصون لسانه عن الفحش والغيبة والنميمة فانه اذا جرى لسانه بفحش القول ذهب حياؤه ومن ذهب حياؤه كان شرا ووبالا على الناس لايبالى أن ينال من أعراضهم وكرامتهم وذلك من أكبر الاسباب التى تثير الضغينة وتهيج الغضب ومثل ذلك الغيبة والنميمة فان المغتاب والنمام يغرس بعمله هذا بذور العداوة والبغضاء ويؤسس أركان الحقد والضغينة وذلك من أكبر الاسباب التى تثير غضب الناس وسخطهم ومحاربة بعضهم بعضا بالقول والفعل من أجل ذلك نهت الشريعة الاسلامية عن كل هذه الامور نهيا شديدا واليك البيان

حد الفحش هو أن يعبر عن الامور المستقبحة شرعا وعقلا وطبعا بالعبارات الصريحة كما يفعله الرعاع وفاسدوا الاخلاق حين يتكلمون عن الوقاع وما يتعلق به بعبارات الفحش التى يستقذرها الطبع السليم ويستلذها أرباب الطباع الفاسدة . والفاحش هو الذى يتكلم بالفحش ويأتى الفاحشة أما البذىء فهو الذى ينطق بالفحش ولم يأت الفاحشة وقد يكون صادقا فيما يقول وقد نهت الشريعة الاسلامية عن النطق بالفحش كما نهت عن اتيان الفاحشة وان كانت عقوبة الثانية أشد وإثمها اعظم أما ماورد من الاحاديث فى النهى عن ذلك فكثير منه مارواه الترمذى قال قال ﷺ «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء» فالطعان هو الذى يطعن فى أعراض الناس بالذم والاغتياب ونحو ذلك واللعان هو الذى يكثر لعن الناس كما سيأتى بيانه وقد علمت معنى

الفاحش والبذىء وفى هذا الحديث زجر شديد لمن كان له قلب يتأثر بموعظة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه عليه الصلاة والسلام قد نفى الايمان عمن يتصف بهذه الصفات ومهما قيل فى تأويل هذا وامثاله بان المراد منه نفى الايمان الكامل فلن يجديه ذلك نفعا لأن نقص الايمان مصيبة لايعدلها مصيبة فان ناقص الايمان الذى لايبالى باقتراف الجرائم والآثام لايزال فى مقت الله وغضبه وسينال جزاء ما اكتسب من الاثم عذابا اليما

ومن ذلك مارواه الحاكم وغيره من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إياكم والفحش فان الله تعالى لايحب الفحش ولا التفحش » ولقد علمت حد الفحش فهو إسم للرذائل التى يأباها الطبع السليم وينكرها العقل وينهى عنها الشرع . أما التفحش فهو تعمد الفحش .

ومن ذلك مارواه أحمد وابن أبى الدنيا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شىء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا »

ذلك بعض ماقاله رسولنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام وتلك هى تعاليمه الرشيدة ونواهيه الحكيمة . فهو قد نفى الايمان عن الفاحش والبذىء وقال إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شىء . ذلك لأن الاسلام دين الفضائل ومكارم الأخلاق فهو منزه عن كل مايأباه الطبع السليم وتتأذى منه الفضيلة . فهلا يزدجر أولئك المفسدون الذين يستعذبون الفحش ويستلذون الفاحشة والألفاظ المسيجنة بدون حياء من الله والناس . وهلا يعتبر هؤلاء الذين يأتون الفاحشة ويفعلون المنكر بذلك الزجر الشديد . فاذا كان التعبير بألفاظ الفحش جريمة يستحق صاحبها نفى الايمان عنه فما ظنك بمن يأتى الفاحشة ويفعل الموبقات . ألا إن اثمه لكبير وإن عقابه لشديد . فله الويل والثبور يوم يقوم الناس لرب العالمين .

اللعن

معنى اللعن الطرد من رحمة الله تعالى والابعاد من حضرته . فمعنى لعن الله الظالم أبعده الله من حضرته وطرده من عموم رحمته . ولا ريب فى أن ذلك حكم على الله تعالى بأنه فعل ذلك . فينبغى أن يقيع فيه ماورد عن الشرع وإلا كان جرأة شديدة على الله تعالى لايقرها الدين . والذى ورد فى الشرع هو اللعنة بالأوصاف العامة كلعنة الله تعالى على الكافرين أو الظالمين أو الفاسقين ونحو ذلك أما لعن الأشخاص فانه لايجوز إلا إذا ثبت أنهم ماتوا كفاراً كأبى جهل وأبى لهب ونحوهم ممن ظهر لنا أنه مات كافراً . فاذا قال قائل لعن الله فلانا اليهودى أو النصرانى أو المجوسى فانه لايجوز لأنه لايدرى مصيره ولا يعرف ماأراده الله له فى نهاية أمره فقد يتوب الله عليه كما حصل مع أبى سفيان وغيره ممن لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فنزل قول الله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) الآية فكف رسول الله ﷺ عن لعنهم .

روى أحمد والبخارى وغيرهم من حديث بن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد « اللهم العن أباسفيان . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت الآية (ليس لك من الأمر شئ) الخ »فتيب عليهم كلهم . وكذلك كان عليه الصلاة والسلام يلعن الذين قتلوا أصحاب - بئر معونة - فلما نزلت هذه الآية ترك ذلك .

فاذا كان لايجوز لعن فلان الكافر . فكذلك لايجوز لعن فلان الفاسق أو الظالم من باب أولى نعم يجوز ذلك بالأوصاف العامة كأن يقول لعنة الله على الزناة أو على الكاذبين أو على الظالمين ونحو ذلك .

على أنه لايجوز لعن الأشخاص الذين ثبت موتهم على الكفر إذا ترتب على لعنهم إساءة أحد من أهاليهم وأقاربهم من المسلمين أو ترتب عليه فتنة أو كان سببا فى ضرر اللاعن أو نحو ذلك .

روى « أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مرّ به وهو يريد الطائف فقال أبو بكر هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يارسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للسهام من أبى قحافة . فقال أبو بكر يكلمنى هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام فقال ﷺ أكفف عن أبى بكر فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال ياأبا بكر اذا ذكرتم الكفار فعمموا فانكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء فكف الناس عن ذلك » رواه أبو داود . وقال ﷺ « لاتسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » رواه الترمذى وأحمد والطبرانى .

ومثل صيغة اللعن فى الحظر مايدل على معناه كقوله غضب الله عليه أو أحرقه بنار جهنم أو طرده من رحمته ونحو ذلك مما يفيد معنى الابعاد من حضرة الله والطرد من رحمته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم » أى لايلعن بعضكم بعضا سواء أكان ذلك بلفظ اللعن كأن يقول لعن الله فلانا أو هو ملعون أم لا كجعله الله من أهل النار أو غضب الله عليه ونحو ذلك كما ذكرنا .

وكما لايجوز لعن الانسان كذلك لايجوز لعن الحيوان والجماد . قال أنس رضى الله عنه كان رجل يسير مع النبى ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون » وكان ذلك إنكاراً من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الرجل والحديث رواه ابن أبى الدنيا .

وبعد فان ذلك من محاسن الاسلام ومكارمه التى لاتقف عند حد فهو يعلم الناس الأدب ويأمرهم بصيانة ألسنتهم عن كل مايثير غضبا أو يولد حقداً أو يؤذى حيا أو يهين ميتا إلا ما كان ضروريا يستدعيه الزجر والتأديب . فجدير بذلك الدين الحنيف أن يظل قائما إلى يوم الدين . وحرام على المسلمين ان يخرجوا عن آدابه وينتهكوا حرماته ويتخطوا حدوده . حرام عليهم أن ينهاهم دينهم عن كل رذيلة ولكنهم فيها ينغمسون . ويأمرهم بكل فضيلة ولكنهم عنها مبعدون ثم بعد ذلك تراهم يشكون ذلا ويسامون خسفا ولو أنهم اتبعوا ما أمرهم دينهم ونهاهم عنه لكانوا أسعد خلق الله أجمعين وأوفرهم حظا يوم يبعثون . نسأل الله تعالى صلاحا وتوفيقا

الغيبـــة

ومما يورث العداوة والبغضاء ويولد الضغائن والاحقاد ويثير الغضب وينزع الثقة تفشى الغيبة فى الناس فان المغتاب لا يأمن من نقل غيبته الى من نال منه وفى ذلك مثار الغضب وطغيانه ووقوع ما يترتب عليه من المفاسد والشرور

حد الغيبة

اما حد الغيبة فهو أن تذكر عيوب أخيك فى غيبته سواء بلغه ذلك أولم يبلغه وسواء كانت تلك العيوب متعلقه بالصفات الخلقية كأن يقول عنه إنه جبان أو بخيل أو ظالم أو كاذب أونحو ذلك. أو كانت متعلقة بالصفات الخلقة كأن يقول عنه إنه أعور أو أعرج أو مشوه الوجه أو قبيحه أونحو ذلك. أو كانت متعلقة بالعرض كأن يقول أنه زان لائط ونحو ذلك

أنواع الغيبة

تنقسم الغيبة الى أربعة أقسام الأول : ذكر تلك العيوب صراحة باللسان الثانى: التلويح وهو يتناول الاشارة باليد ونحوها والاشارة بالعين ويسمى غمزا قال تعالى (وإذا مروابهم يتغامزون) الثالث : الكتابة كأن يكتب العبارات الدالة على العيوب للعامة أو للخاصة ولو لواحد . الرابع المحاكاة بان يمثل الصفة التى تعيب غيره كأن يتعارج أو يفتح فاه أو يتناوم الى غير هذا من كل مايؤذى

حكم الغيبة

لاخلاف فى أن الغيبه حرام بجميع أنواعها المذكورة انما الخلاف فيما اذا كانت كبيرة أوصغيرة والذى يطمئن له القلب من ذلك أنها ان كانت متعلقة بالعرض ونسبة الغير للفسق والفجور فانها تكون من أشد الكبائر بلا مراء .وان كانت متعلقة بالصفات التى لا يتأذى بها الناس كثيرا كصفات البدن والملابس ونحوذلك فانها تكون صغيرة مالم يؤد ذلك الى ثوران الغضب المفضى الى الشرور والمصائب كأن يعلم أن من يغتابه بذلك يتأذى منه كثيرا فيثور غضبه وتتولد منه الشحناء والعداوة والبغضاء فاذا أفضت الغيبة الى ذلك تكون كبيرة وكذلك اذا كانت سببا فى انطلاق لسانه بالغيبة واستلذاذه اياها فتصبح عادة له وينتقل منها الى الخوض فى الاعراض فانها تكون كبيرة حينئذ

ومن هذا تعلم أن الغيبة شر من جميع نواحيها سواء أكانت مما يتأذى منه الناس كثيرا أم قليلا فعلى المسلمين أن يجتنبوها وأن لا يصرفوا أوقاتهم فى ذكر مساوئ بعضهم بعضا وأن لا يجعلوا أعراضهم وعيوبهم تسلية يتفكهون بها فى أنديتهم ومجالسهم فان من سهل عليه أن يغتاب اخوانه فليعلم أن غيره يسهل عليه أن يغتابه وفى ذلك من الشر والفساد وضعف الثقة وتولد الحقد والضغينة مالا يخفى على عاقل .فالبعد عن الغيبة بجميع انواعها لازم على كل حال ولا فرق بين أن تكون العيوب التى يغتاب بها غيره موجودة فيه أولا على التحقيق بدليل ماروى أن النبى ﷺ قال « هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله اعلم قال ذكرك اخاك بما يكره قيل ارأيت ان كان فى اخى ما اقول قال ان كان فيه ماتقول فقداغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته » رواه مسلم وغيره ومعنى بهته رميته بالبهتان وافتريت عليه الباطل ومن يفعل ذلك فقد باء باثم عظيم . نعم تجوز غيبة المجاهر بالفسق لأن المجاهر يعلن عن ذنوبه وينشرها بين الملأ فليس له حق التأذى من ذكرها ورميه بها . وكما تحرم غيبة المسلم كذلك تحرم غيبة الكتابى روى ابن حبان فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من سمع يهوديا أو نصرانيا فله النار » ومعنى سمعه أسمعه ما يؤذيه

وحكم من يستمع الغيبة وهو قادر على منعها كحكم المغتاب لأنه شريك له فى الجريمة باغرائه عليها بالانصات له

كفارة الغيبة

اعلم أن الذنوب المتعلقة بحقوق العباد لا تمحى الا اذا عفوا عنها او ردت لهم مظالمهم فمن أخذ من الناس مالا ظلما وعدوانا فان جريمته لا تمحى الا اذا رد لهم مالهم الذى أخذه منهم أو عفوا عنه وكذلك من اعتدى على أعراضهم بالقول أو الفعل فان جريمته لا تمحى الا اذا عفوا عنه وهكذا . ولا ريب فى ان الغيبة جناية على الناس وهم غافلون فكفارتها أن يتحلل ممن اغتابه ويطلب منه العفو ولكن ورد أن من اغتاب أحدا ولم تبلغه الغيبة فانه يكفيه أن يتوب ويندم ويستغفر لمن اغتابه وقد اختار هذا جمهور من العلماء وهو حسن وفيه سعة ورحمة للناس فعلى المغتابين أن يتوبوا ويندموا ويستغفروا لاخوانهم الذين نالوا منهم لعل الله يرحمهم ويغفر لهم انه غفور رحيم

المواضع التى تجوز فيها الغيبة

قد علمت مما تقدم أن الشريعة الاسلامية انما تعنى فى احكامها بالمصلحة العامة فاذا ترتب على الغيبة مصلحة او درء مفسدة كانت لازمة واذا ترتب عليها امر جائز كانت جائزة ويمكن ضبط الاول فى خمسة أمور . الاول المظلوم الذى يريد أن يشكو لمن يرفع عنه مظلمته فله أن يذكر عيب ظالمه الذى يحتاج اليه فى بيان حقه بشرط أن يقول كذبا . الثانى الاستعانة على تغيير المنكر لمن يظن أن له قدرة على ازالته فان له أن يقول إن فلانا ارتكب كذا وفعل كذا . الثالث الاستفتاء فانه يجوز للمستفتى أن يقول للمفتى ان فلانا ظلمنى فى كذا وكذا فهل يجوز له ذلك مثلا . الرابع تحذير

المسلمين من شر من يتصدى للزعامة فى أمورهم العامة او من يتوقف عليه القضاء فى مصالحهم أو من يتصدى لافتائهم وتعليمهم العلم كالزعماء فى الشؤون الدينية او الدنيوية والشهود والمدرسين ونحو ذلك ممن يشترط فيهم الامانة والاتصاف بمكارم الأخلاق ليكونوا قدوة للناس فان هؤلاء يصح أن يبين ما فيهم من العيوب والنقائص التى لاتناسب وظائفهم . الخامس أن يتجاهر بفسقه كما تقدم اما الثانى وهو ماتجوز الغيبة فيه فهو التعريف بالالقاب الدالة على نقص فى الجسم كالاعور والاقرع وان امكن التعريف بغيرها والاولى أن يعرف بغيرها ان سهل ذلك

أدلة تحريم الغيبة

ورد النهى عن الغيبة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قال تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) ولا ريب فى أن ذلك غاية فى الشدة ونهاية فى الزجر فقد مثلت الآية المغتاب أشنع تمثيل وشبهته بمن يأكل لحم أخيه الانسان وهو ميت واستنكرت صدور مثل هذا من الانسان إشارة إلى أنه لايليق أن يصدر منه ذلك من حيث كونه إنسانا وأنه لو عرض عليه أن يأكل لحم أخيه ميتا لأبى فما باله يرضى باغتيابه وثلم عرضه ونشر عيوبه الذى هو شبيه بأكل لحمه ميتا . فأى قلب لايتأثر بعد ذلك الزجر الشديد الذى تقشعر لسماعه الجلود وتهتز القلوب فيكف عن الاغتياب وينتهى عما يوجب الضغائن والأحقاد بين المؤمنين . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم أى حرام عليه أن يهتك عرض أخيه المسلم ويعتدى عليه بالقول أو الفعل .

وكفى بذلك زاجراً لمن يتدبر معنى قول الله وقول رسوله ويأتمر بما أمره الدين الحنيف وينتهى عما نهاه عنه فان الله تعالى حرم الخوض فى أعراض الناس واغتيابهم بذكر عيوبهم وهم إخوان فى هذه الحياة

وليس من الانسانية فى شيء أن يعتدى الأخ على عرض أخيه فيهتكه بالقول أو العمل . ولا من المروءة أن يتخذ من دين أخيه وكرامته محلا للعب واللهو والتسلية فى المجالس والمحافل . ولا من الأدب والشهامة أن يدفعه الغضب أو الحقد الى ذكر مساوىء أخيه والتشهير به فان كل ذلك ينافى معنى الاخاء الذى جعله الله بين عباده المؤمنين حيث قال (إنما المؤمنون إخوة)

فواجب على المسلمين أن يجتنبوا الغيبة باجتناب أسبابها وهى كثيرة . منها الخصومات التى تزين للناس الطعن فى بعضهم بغير حق . ومنها الانتقام الذى تدفع اليه ثورة الغضب . ومنها مجاملة الناس وموافقتهم على الاغتياب .

ولا ريب فى أن من يجامل غيره بالنيل من أعراض الناس وموافقتهم على مايسبب له الشقاء الدائم فى الدار الآخرة ويثير الغضب ويولد العداوة بينه وبين الناس فى دار الدنيا لهو من أتعس

الأشقياء وأحطهم قدراً وأدناهم شجاعة لأنه يعرض نفسه للهلكة لمجرد مجاملة غيره وذلك هو الخسران المبين.

ومنها أن ينسب إلى شخص عيبا من العيوب فيريد أن يبرىء نفسه بنسبة ذلك العيب إلى غيره وذلك من شر الموبقات. ومنها الحسد وهو يدفع الحاسد إلى تنقيص قدر المحسود والنيل من عرضه ودينه كى يصغر فى أعين الناس وذلك شر عظيم قال تعالى (إن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا)

إفشاء السر

ومما يثير الغضب ويولد الضغائن والأحقاد فى نفوس الناس ويرفع الثقة من بينهم إفشاء السر فان الذى يودع عند الآخر سراً يأمنه عليه لابد أن يثور غضبه اذا علم أنه أفشاه ولم يصنه ويسعى فى أن ينال منه مايتشفى به فيثور غضب الآخر لذلك . وعند ذلك لاتؤمن غائلة الغضب ولا يتقى شره الذى بيناه فتكون العاقبة شراً ووبالا من جميع الجهات . وكفى بذلك ذما لافشاء السر لأن فيه إيذاء يدفع إلى إهاجة الغضب وتوليد العداوة والبغضاء .وهو خيانةمذمومة فى نظر الشريعة الاسلامية كل الذم

قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل هذا غدرة فلان بن فلان » رواه مسلم وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام « لاإيمان لمن لاأمانة له ولا دين لمن لاعهد له »

ومعنى الحديث الأول ان الخائن الذى يخون الناس ويغدر بهم فلا يبالى أن يفشى أسرارهم . ويخون عهودهم . أو يغرر بهم فى أمورهم سيفتضح يوم القيامة ويشهر به ويعلن عن خيانته مبالغة فى النكاية به وتشديداً فى عقوبته وذلك هو الخسران المبين .

ومعنى الحديث الثانى أن الخائن الذى لايؤمن على أسرار الناس وأموالهم وأعراضهم ويغدر بهم فى عهودهم لا إيمان عنده ولا دين له .

ولقد علمت مما مضى أن نفى الايمان فى هذه الحالة يدل على عظم الجريمة وشدتها فانه مهما قيل فى تأويله من أن المراد نفى الايمان الكامل فكفى بذلك تحذيراً وزجراً . وكفى مرتكبها ذما بأنه ناقص الايمان يستحق عليه سوء العقاب.

أما الآثار السيئة التى تترتب على إفشاء السر . فمنها ماهو متعلق بالفرد . ومنها ماهو متعلق بالجماعة ولا ريب فى أن ضرر الثانى اشد وخطره اعظم . ومثاله ماإذا كان متعلقا بتدبير شعب او إصلاح جيش . او تنفيذ نظام . او تربية فريق من الناس . او نحو ذلك فافشاء السر فى مثل هذا خيانة عظمى وجناية كبيرة فى نظر الشريعة الاسلامية يستحق صاحبها نفى الايمان عنه وله على ذلك عذاب الجحيم .

وكذلك مايتعلق بافشاء سر الفرد فانه شديد الضرر لأنه قد ينقصه فى نظر قومه . وقد يقطع عليه منفعة عظيمة . وقد يثير عليه غضب من يؤذيه إيذاء شديداً . وقد يعرضه للخطر الشديد الى غير ذلك . ولهذا حذر العقلاء من ان يسر الانسان الى غيره مايخشى من اذاعته على نفسه او كرامته .

نقل جرير بن حمزة الزيات عن على رضى الله عنه انه قال .

لاتفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فانى رايت غواة الرجال * لايتركون اديما صحيحا

ومعناه انك ان رأيت ان لك نصيحا تفضى اليه بسرك فان له ايضا نصيحا يفضى اليه بما اسررت به اليه فلا تظن انه يظل مكتوما عنده . ومعنى البيت الثانى ظاهر

فاذا كان فى إفشاء السر ضرر يعود على الفرد كما بينا فانه يكون كبيرة شديدة وجريمة من شر الجرائم . اما اذا لم يكن فيه ذلك الضرر فانه يكون لؤم فى الطبع وسوء ادب ويكون حراما اذا اعتاده . فجره ذلك الاعتياد الى افشاء السر الذى يترتب عليه الاضرار .

روى ان معاوية بن ابى سفيان اسر الى الوليد ابن اخيه عتبة بن ابى سفيان حديثا فقال الوليد لأبيه عتبة يا ابت ان امير المؤمنين اسر الى حديثا . وما اراه يطوى عنك مابسطه الى غيرك فقال عتبة لابنه فلا تحدثنى به فان من كتم سره كان الخيار له ومن افشاه كان الخيار عليه . قال قلت يا ابت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابيه . قال لا والله يابنى ولكن احب ان لاتزال لسانك بأحاديث السر . قال الوليد فأتيت معاوية فحدثته بما جرى . فقال ياوليد اعتقك اخى من رق الخطأ . اخرجه ابن ابى الدنيا فى الصمت .

هذا ولا يلزم ان يقول من يتحدث الى غيره بسر إن حديثى سر فلا تذعه فانه متى حدثك أحد بحديث خاص بينك وبينه كان ذلك الحديث امانة لايصح لك اذاعته الا باذنه . قال رسول الله ﷺ «مطلق الحديث بينكم امانة » رواه ابن ابى الدنيا باسناد جيد . وقال رسول الله ﷺ « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة » رواه ابو داود والترمذى .

ومعناهما انه اذا أسر فى اثناء الحديث ولو بالتفاتة فانه يكون امانة . وكذلك اذا لم يسر بشىء فانه يكون امانة ايضا .

تلك هى آداب الشريعة الاسلامية واخلاقها فمن ذا الذى لايتأدب بتلك الآداب . ولا يتخلق بهذه الاخلاق التى من تمسك بها سعد فى دنياه وآخرته وكان عند الله من المقربين .

الامانة والوفاء بالوعد

الأمانة هى الحقوق المتعلقة بالذمم لافرق فيها بين أن تكون من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده سواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية فهى تشمل الامانة على الاموال والاعراض والانفس والاسرار والتكاليف الشرعية ونحو ذلك وضدها الخيانة فمن احتفظ بتلك الحقوق يسمى أمينا ومن اضاعها ولم يؤدها كما هى يسمى خائنا . فمن أذاع سرا ائتمن عليه كان خائنا كما تقدم ومن كتمه كان أمينا ومن ائتمن على أن ينقل حديثا لغيره فنقله محرفا أو أخبر بخلافه كان خائنا وهكذا . ومنه تعلم أن الأمانة قد تتناول بعض افراد الصدق كما تتناول كتم السر وان الخيانة قد تتناول بعض افراد الكذب كما تتناول اذاعة السر

ومعنى الوعد هو ان يلزم الانسان نفسه بامر لغيره سواء كان ذلك الأمر ماديا أو ادبيا كأن يعده بمال او هبة او صلة او ضمان او كفالة أو معونة فى عمل أو تعليمه علما أو نحو ذلك يقال وعده بخير وبشر فيستعمل وعد فى الأمرين اذا ذكرا معه فاذا حذف لفظ خير ولفظ شر يقال فى الخير وعد وفى الشر أوعد وخلف الوعد . ضرب من ضروب الكذب وفرد من افراده المرذولة

ولا ريب فى أنه هو والخيانة من صفات النفس الذميمة التى تورث العداوة والبغضاء وتولد الضغائن والأحقاد وتكون منارا للغضب وما يترتب عليه من الشرور خصوصا اذا كان الوعد متعلقا بمصلحة هامة مادية كانت أو أدبية ويترتب على خلفه فوات تلك المصلحة أو كانت الامانة على عرض أو مال فخانها من ائتمن عليها فان الخيانة والخلف فى هذه الحالة يكونان من شر الأمور المثيرة للغضب ويكون المخلف او الخائن فى هذه الحالة ظالما مسئولا عما يترتب على خيانته من النتائج ويكون للمعتدى عليه الحق فى أن يغضب لكن الى الحد الذى بيناه فيما مضى فلا يجوزله أن يحمله طغيان الغضب على الافراط فى الانتقام وتخطى الحدود المشروعة للجزاء على ان الناس اذا أدبوا أنفسهم ووقفوا بها عند الشهوات المعقولة وطهروها من تلك الصفات المرذولة لأمنوا شر تلك الشرور واكتفوا غوائلها

فمن أجل ذلك نهى الدين الحنيف عن خلف الوعد والخيانة وحث على الوفاء والامانة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان » رواه البخارى ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . اذا ائتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر » رواه البخارى وغيره

ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه أن الخيانة والغدر وخلف الوعد والفجر فى المخاصمة ليس من خلائق المؤمنين ولا من شيمة المسلمين إذ لايليق أن يكون من خلائقهم مايؤذى الناس ويورث العداوة والبغضاء ويرفع الثقة من بينهم لأن دينهم الذى يدينون به يأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الرذائل .

ولا ريب فى أن صفة الأمانة والوفاء والعدل فى الخصومة من أجل الفضائل التى يقدسها العقل فى كل زمان ومكان . وعلى العكس من ذلك أضدادها فانها من الرذائل الممقوتة التى يترتب عليها أسوأ الأثر بين الناس . فمن كان أمينا وفيا عادلا كان جديراً بأن يكون من جماعة المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . ومن كان خائنا مخلفا وعده غادراً فاجراً كان منافقا لايصح أن ينتسب إلى الاسلام ولا يليق به أن يكون من جماعة المؤمنين لذلك قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)

والوفاء والايفاء هو القيام بما يقتضيه العهد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقا بمال أو أمانة أو بيع وشراء أو تجارة أو زراعة أو صناعة . أو كان متعلقا بالعقود التى عقدها الله على عباده وألزمها إياهم من التكاليف كما تقدم فى تعريف الأمانة . وقال تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على صيغة الأمر صراحة كى تشعر النفوس بما للأمانة من الخطورة والمنزلة . فمن خانها فقد خالف أمر ربه القوى المتين . ومن خالف ربه فقد عرض نفسه لسخطه . ومن سخط الله عليه فهو من الهالكين

منافع الوفاء والامانة

ومضار الخلف والخيانة

لاشك أن للوفاء والأمانة أحسن الأثر بين الجماعة والأفراد . فاذا اشتهرت أمة بالوفاء بوعدها والمحافظة على ماتؤتمن عليه من الأسرار والأموال والأنفس كانت محبوبة من جميع الأمم موثوقا بها عندهم كريمة عليهم . عيوبها مستورة وذلاتها مغفورة . وإن احتاجت لمعونة مدت اليها الأيدى من كل مكان وإن أصابها مكروه تألم لها الناس فى كل ناحية . وبذلك تعيش سعيدة مكرمة عزيزة الجانب رفيعة القدر والمنزلة بين سائر الشعوب . أما إذا اشتهرت بخلف الوعد والخيانة فان الناس ينصرفون عنها ويخافون شرها وإن كان لها أعوان ينفضون من حولها فلا تجد من أحد معونة ولا عطفا ولا ترى مناصرة ولا برآ . فتكسد تجارتها وتبور صناعتها وتقف حركتها وتصبح منعزلة عن الشعوب والأمم وذلك هو الخسران المبين .

وكذلك الأفراد فان الأمين الوفى له أحسن المكانة فى نفوس الناس وأجل المنزلة عندهم . يثق به الجميع فى كل شأن من شئونهم فتتسع أمامه سبل العمل وتفتح له أبواب الخير فينفع نفسه

وأمته ويؤدى وظيفته فى هـذه الحياة كاملة . فمن أمنه الناس على أموالهم فأداها اليهم فانهم لا يمنعونها عنه إذا احتاج اليها ولا يبخلون عليه إذا وقع فى ضائقة . ومن أمنه الناس على أعراضهم فحفظها كان قديسا عندهم يحفظون له أجمل الذكرى . ويحلونه من أنفسهم أكرم محل . ومن أمنه الناس على أسرارهم فلم يفشها كان كريما عليهم كبيراً فى أعينهم ذا سلطان على أنفسهم . أما الذى يقول ويكذب ويعد ويخالف ويخون إذا ائتمن فانه يكون محتقراً عندهم ساقط المروءة فى أعينهم لا يصدق له قول ولا يعبأ له برأى ولا يؤمن على مال ولا يساعد على عمل . وذلك منتهى الذلة والهوان

مايغتفر من خلف الوعد

لا يغتفر فى نظر الدين شئ من خلف الوعد حتى فى الأمور التى يتسامح الناس فيها عادة . ولا يترتب عليها ضرر لأحد كأن يعده ليسير معه إلى نزهة مباحة أو يقضى معه عملا لا يتوقف على وجوده معه أو يحضر معه لتناول طعامه ونحو هذا . لأن ذلك وإن لم يكن كبيرة من الكبائر كما تقدم إلا أنه يجر إلى غيره بحكم العادة والميراث . فمن استسهل الخلف فى الأمور الصغيرة فانه لا يستصعبه فى عظائم الأمور فضلا عما فى ذلك من ضعف الثقة به وظهوره بين الناس بمظهر المخلف للوعد . وفى ذلك ضرر يلحقه هو إن لم يلحق غيره . وانما الذى يغتفر من خلف الوعد فى نظر الدين هو أن يعد وهو ينوى الوفاء فاذا عرض ظرف قسرى اضطره للخلف لم يكن آثما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى بما وعد به ولكن الخلف أن يعد الرجل ومن نيته أن لا يفى » أخرجه أبو يعلى فى مسنده . مثلا إذا استدان شخص من آخر دينا ـ اقتضته ضرورة من ضروريات حياته ـ إلى أجل مسمى وهو ينوى أن يقضيه عند ذلك الأجل ثم اضطر الى عدم الوفاء لعارض قهرى وعذر شرعى فانه لا يكون مخلفا فى هذه الحالة . نعم ينبغى للمرء أن يتحرى فى أموره ويجهد نفسه بالتمسك بوسائل الوفاء فان عجز بعد ذلك لم يكن مقصراً . وكذلك لا يجوز له أن يبذر فى أموال الناس ثم يعجز بعد ذلك ويقول إنه لم يكن مخلفا . فانه فى مثل هذه الحالة يأثم إثمين . إثم التبذير فى أموال الناس . وإثم خلف الوعد . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثال لأمته بالأخلاق الفاضلة فى غيرهم من الأمم فقال لهم مرة ما معناه إن رجلا ممن كان قبلهم من الامم ذهب إلى آخر ليستدين منه مائة دينار إلى أجل ـ كى يتجر فيها ويردها له ـ فقال له ائتنى بكفيل فقال له لا كفيل لى سوى الله تعالى . فقال له كفى بالله كفيلا ولكن ائتنى بشاهد . فقال له الله شهيد . فقال له كفى بالله شهيدا وأعطاه المائة التى طلبها فأخذها وسافر بها فى البحر الى جهة واتجر فيها فربح مائة مثلها ولما أراد العودة الى بلده لم يجد مركبا يعود عليها وقد حل أجل الدين فاضطرب الرجل خوفا من خلف الموعد ولم يستطع الصبر بعد أن جعل الله كفيلا وشهيداً عليه ولم يجد وسيلة يتخلص بها من ذلك الموقف سوى أن يضحى بربحه ويجعله قربانا لله تعالى فأتى بخشبة وحفرها ـ كصندوق ـ ووضع فيها

المائة التى ربحها ووضع معها رقعة مكتوب فيها . اللهم انك كفلتنى عند فلان وأنا أستحى أن لا أفى بما كفلتنى فيه فهذا ربحى أقدمه لك قربانا وقذف بالخشبة فى الماء وبقى ينتظر سفينة يعود فيها ولما فات موعد الأجل خرج صاحب الدين يتفقد السفن لعله يجد سفينة تحمل صاحبه فعثر على قطعة خشب على وجه الماء فحملها لينتفع بها وقودا فلما كسرها وجد فيها دينه ووجد معه الرقعة التى كتبها المدين فأخذه وبعد أيام حضر المدين ومعه المائة دينار التى اقترضها فدق عليه الباب فلما رآه اعتذر اليه وذكر له السبب الذى ألجأه الى خلف الموعد وأراد أن يعطيه المائة فقال له ان الذى كفلك قد سد عنك فأخذها وانصرف . روى معناه البخارى

ذلك مثل من أمثلة خلف الموعد التى يغتفرها الدين فان الرجل كان ينوى الوفاء وقد بذل كل مجهوده فى سبيل ذلك ولما أعيته الحيل أراد أن يقدم قربانا لله تعالى وهو أن يضحى بكل ماربحه ولكن الله سبحانه وتعالى الذى يحب الصادقين من عباده الأمناء الأوفياء لم يضيع عليه ماله ولم يفوته ثمرة مجهوده فحفظ له ماله فى الدنيا بطريقة غريبة فى العادة كى يزيده ايمانا بأنه لايضيع أجر العاملين فى الدنيا ولهم فى الآخرة أحسن الجزاء . نعم لايجوز للانسان أن يخاطر بماله مخاطرة ذلك الرجل وأن يقذفه فى الماء لأن الدين الاسلامى نهى عن ذلك . وانما كان ذلك جائزاً فى الأمم السابقة لانهم كانوا يقدمون القرابين على مثل هذه الصورة . وانما ذكرناه لك لتعرف منه مقدار حرص الرجل على الوفاء ومقدار رغبته فى أن لايخلف الموعد ومع كونه اضطر الى المخالفة قسراً فان نفسه لم تطمئن لذلك فقذف بربحه فى الماء قربانا لله تعالى وفى ذلك من الغيرة على الوفاء مالا مزيد بعده .

الصدق والكذب

واذ قد علمت أن الصدق قد يكون فرداً من أفراد الامانة وأن الكذب يشمل خلف الوعد . فلنذكر لك تعريفهما هنا وأحكام كل منهما

فأما الصدق فهو أن يقول الانسان الحق الذى يعرفه ويعتقده فاذا أخبر عن شىء فينبغى أن يكون عارفا له معتقداً أنه هو بدون زيادة ولا نقصان فاذا بالغ فى قوله مبالغة تغير المعنى وتلبس على السامع كان كاذبا . وكذلك اذا تعمد أن يوجز فيه إيجازا مخلا أو يحذف منه شيئا يذهب بالغرض المقصود منه فانه يكون كاذبا فيه . واذا أخبر الانسان خبرا عن شىء وهو يعتقد أنه هو فظهر خلافه فانه لاإثم عليه وان كان فى ظاهره كذبا . ولقد بينا لك فى مبحث الغيبة أن مايفيد معنى القول يكون فى حكمه فكذلك هنا ينبغى أن تعلم أن الاشارة بالعين أو الرأس أو اليد أو الغمز ونحو ذلك مما يفيد معنى القول له حكم القول فى الصدق والكذب .

ومما لاريب فيه أن الصدق من الفضائل الضرورية للمجتمع الانسانى وافراده . فلولا الصدق ماكان الانسان . وذلك لأمور .

منها أن غاية الانسان فى حياته انما هى الوصول الى السعادة وقد علمت أن السعادة الحقيقية هى البقاء بلا فناء والنعيم بلا زوال وذلك لا يكون الا فى الدار الآخرة فلا بد حينئذ من نقل أخبار تلك الدار صادقة ولا بد من معرفة الوسائل التى يتوسل بها الانسان الى تلك السعادة على وجه صحيح. وذلك لايكون الا بالنقل عن الله سبحانه وتعالى بواسطة رسله فاذا لم يوجد الصدق لايمكن الوصول الى السعادة بل لايمكن الوصول الى معرفة ماعند الله تعالى لعدم صدق الرسل حينئذ وهم الذين يوحى اليهم باخبار ماغاب عنا .

ومنها أن حياة المجتمع الانسانى من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الافراد والجماعات . فلا يمكن أن يعيش الانسان منفردا مستقلا عن غيره فى جميع شئونه بل لابد له من الاستعانة بغيره والاستناد عليه فى كثير من ضروريات الحياة كما تقدم . واذاً فلا بد له من التفاهم مع ذلك الغير على أساس صحيح كى يتيسر له أن يتعاون معه . فاذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذى هو أهم شيء فى هذه الحياة .

ومنها أن الميزة التى امتاز بها الانسان عن الحيوان انما هى العلم والمعرفة . والعلم مشتمل على قضايا ونظريات . فاذا نقلت كاذبة انقلب العلم جهلا وانعدمت الحقائق العلمية وفقد الانسان ميزته التى امتاز بها عن الحيوان .

ومنها أن الانسان محتاج للعظة والاعتبار باخبار الامم الماضية والحاضرة ولا سبيل الى معرفة ذلك الا بالصدق .

وبالجملة فان الصدق ضرورى لحياة الفرد والمجتمع فلا يمكن أن يعيش الانسان من حيث هو انسان بدون الصدق فهو فضيلة من أجل الفضائل وأعظمها أثراً وعكسه الكذب فانه رذيلة من أسوأ الرذائل وأقبحها أثراً ويتنوع الكذب الى أنواع :

أولا . ما كان منه متعلقا باموال الناس وأعراضهم وأنفسهم وهذا من أشد الكبائر وأقبح الجرائم التى تضر المجتمع الانسانى وتقضى على العدل والنظام فان الذى يقول الزور ليقتطع حقوق عباد الله أو يثلبهم فى أعراضهم ويؤذيهم فى أنفسهم فهو أضر على نفسه وعلى المجتمع الانسانى من كل مايضر الانسانية ويؤلمها وقد عرض بذلك نفسه لغضب الله تعالى ومقته وكان سببا فى بث الفوضى واغراء المجرمين على اقتراف الجرائم فينالون من أعراض الناس وأموالهم مايشتهون وهم آمنون من العقوبة لانه يجد شاهد الزور يساعده على الافلات منها وفى ذلك خطر عظيم وبلاء شديد .

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكان متكئا ألا أنبئكم باكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد فقال ألا وقول الزور » متفق عليه . ولا فرق بين أن يكون ذلك الحق الذى اعتدى عليه كبيراً أوصغيراً وسواء أكد شهادته باليمين أولا . إلا أنه اذا كان الحق كبيرا وكان تأثيره على نفس المعتدى عليه شديداً أو كان مؤكدا بالحلف بالله تعالى فانه يكون أشد جرما واعظم إثما . لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان قيل يارسول الله وان كان شيئا يسيرا قال وان كان سواكا من أراك »

رواه الشافعي فى مسنده بهذا اللفظ . وقد روى من عدة طرق بأسانيد جيدة مع اختلاف فى بعض الالفاظ . وفى هذه الصورة أمور ثلاثة . الأول الكذب وهو تعمد الاخبار عن الشيء بخلافه كما تقدم . الثانى الجرأة على الله تعالى باستعمال اسمه الكريم كذبا . الثالث الاعتداء على حق الغير . ولا ريب فى ان اجتماع هذه الثلاثة من اكبر الكبائر .

ثانيا ما كان منه غير متعلق بحقوق العباد ولكنه أكده باليمين . وفى هذا خلاف والصحيح أنه كبيرة أيضا لما فيه من الجرأة على الله تعالى والاستهانة بالكذب . يشير لذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماحلف حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة » رواه الترمذى والحاكم وصححه

ومعناه أنه اذا أدخل فى يمينه شيئا من الكذب والاخبار عن الشيء بخلافه أثر ذلك فى قلبه كما تؤثر النكتة السوداء . وكذلك شأن الجرائم والموبقات فانها تتراكم على القلب نكتا سوداء فتكون كالطابع فلا يؤدى وظيفته كما سبق بيان ذلك . وهذا يدل على ان الحلف بالله كذبا كبيرة من الكبائر .

ثالثا ما كان منه غير متعلق بحق الغير ولم يؤكد باليمين . وهذا تارة يقصد به المزاح والسخرية . وظاهر الاحاديث يقضى بانه كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويل للذى يحدث بكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » رواه الترمذى وأبو داود والنسائى وغيرهم . لان الذى يفعل ذلك أولا قد استهان بامر الكذب واستلذه فلا يلبث مثل هذا أن يكون الكذب عادة له ويصبح من الكاذبين الذين يتكرر كذبهم ولا يصدق لهم احد حديثا حتى ولو كان صادقا . والشريعة الاسلامية حريصة دائما على الاحتياط فى درء الفساد . فمن اجل ذلك كرر رسول الله كلمة الويل التى تدل على العذاب والسخط فى شأن من يكذب ليضحك الناس .

رابعا ما كان منه متعلقا بالله ورسوله كأن يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاذبا متعمدا وهذا من أفحش الكبائر واشدها خطرا على الدين وليس لهذا جزاء سوى ان يتبوأ مقعده من النار

وكل هذه الامور ليست من خلائق الاسلام لانه انما يدعو الى الفضائل وينهى عن الرذائل فطبيعته الكريمة تأبى سفاسف الامور وتحرم الاضرار بالناس . وقضاياه تنطوى على مافيه مصلحة المجتمع الانسانى وبقاؤه وتنمية العمران . لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع او يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب » رواه ابن ابى الدنيا وغيره

ولا ريب ان خلف الوعد داخل فى الكذب والغدر والفجر فى المخاصمة داخل فى الخيانة . وقد علمت أن هذه من صفات المنافق لا من صفات المؤمنين . قالت عائشة رضى الله عنها ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من اصحابه على الكذبة فما تنحل من صدره حتى يعلم انه قد احدث لله عز وجل منها توبة » رواه احمد وابن أبى الدنيا . وقال رسول الله ﷺ « ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم - وكررها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات -

فقال ابو ذر رضى الله عنه خابوا وخسروا من هم يارسول الله قال المسبل إزاره ، والمنان الذى لا يعطى شيئا الا منه والمنفق سلعته بالحلف الفاجر » والمسبل ازاره هو الذى يجر اثوابه فخرا واختيالا . والاسلام ينهى الناس عن ذلك كما سيأتى فى موضعه . أما المنان فهو ساقط المروءة لأنه ان أحسن الى فقير أضاع احسانه بالمنّ عليه وربما تأذى بالمنّ عليه اكثر من منفعته بما أخذ منه وإن أعان صاحبا أو جامل أحدا بمعروف أخجله بمنه ونغص عليه عيشه و كدر صفوه وقد يكون ضرر ذلك عليه أكبر مما استفاده منه . واما المنفق سلعته بالحالف الفاجر فهو الذى يناه لك أولا

فتلك هى آداب الدين العالية وأخلاقه الكريمة فحرام على المسلمين أن لا يتمسكوا بها ويحرصوا على تنفيذها فان من تمسك بها لا بد أن يحيا سعيدا ويظفر برضوان الله تعالى ويفوز بالنعيم الدائم والملك المقيم فى جنات النعيم

مايعفى عنه من الكذب

من قضايا الدين وقواعده الحكيمة أن الضرورات تبيح المحظورات وان الله لا يؤاخذ الانسان على الخطأ والنسيان وما اكره عليه . فاذا عرضت ضرورة لا مناص منها اضطرت الانسان الى أن يفعل ما هو محرم فى نظر الدين جاز له أن يفعل ذلك كما اذا اضطره الجوع - الذى قد يفضى به الى الهلاك - الى أكل الميتة فانه يحل له ذلك بل يلزمه أن يفعل تفاديا من الموت وكذلك اذا اضطرته الضرورة لشرب النجاسة كما اذا كان تائها فى الصحراء فانه يحل له ذلك . وكذلك اذا اكرهه أحد على ارتكاب جريمة ماعدا جريمة القتل فانه يحل له ارتكابها أما جريمة القتل فانها لا تحل لانه فى هذه الحالة يكون بين امرين اما قتله أو قتل غيره . واذا كان لابد من ازهاق روح فيلزم ان لا يرتكب جريمة القتل ويذر غيره يرتكبها . ومثل القتل الزنا على كلام يطلب من محله . واذ قد علمت ذلك فاعلم ان الكذب قد تعرض له حالة ضرورة فيأخذ ذلك الحكم . مثلا اذا أراد ظالم أن يقتل شخصا مستجيرا بك ومختبئا فى دارك وجاء ذلك الظالم يبحث عنه وسألك فى ذلك فهل يحل لك أن تخبره بالصدق وتقول إنه مختبئ فى حجرة كذا فى دارى . لاشك فى أن هذا لا يحل لما يترتب عليه من قتل نفس ظلما وعدوانا . نعم اذا أمكن أن يعبر بعبارة تبعد عن الكذب وتنجى الرجل كان ذلك حسنا . ولا يقال ان الصدق فضيلة عظيمة فيجب ان تتبع فى جميع الشؤون والكذب رذيلة مذمومة فيجب أن يجتنب مهما ترتب على ذلك من تضحية حتى ولو كان فيه ازهاق بعض الأنفس . لأنا نقول إن ذلك يكون صحيحا اذا ترتب عليه هدم لتلك الفضيلة وتضييع لها كما اذا اعتاد الكذب باختياره بدون ضرورة تلجئه الى ذلك فان ذلك اذا فشى بين الأفراد أصبح اقتراف الكذب سهلا وأصبحت الفضيلة مهددة بالزوال . اما فى الحالات الاستثنائية التى تحتملها كل قاعدة ويقرها كل نظام فانه ينظر للمصلحة فى ذاتها خصوصا اذا كان الاثر الذى يترتب على الكذب درء مفسدة شديدة كالقتل واذا كان الله تعالى قد اباح للانسان أن يرتد فى ظاهر أمره عن دينه فرارا

من القتل متى كان قلبه مطمئنا بالايمان لأن ذلك ظرف استثنائى لاينافى قواعد الاسلام . أفلا يكون الاخبار بغير الواقع جائزا للتخلص من القتل . على أن مفهوم الصدق اعتبر فيه الاعتقاد فان ظهر مايخالف الواقع خطأ فلا جناح فيه . فالكذب كغيره فى نظر الدين انما حرم بالنظر لما يترتب عليه من المفاسد فمتى أمكن التوفيق بينه وبين المصلحة للضرورة فلا يكون محرما . ومن ذلك الاصلاح بين فئتين عظيمتين يترتب على الاصلاح بينهما حقن دماء كثيرة واستقرار للأمن ودفع للفتن فان التحايل على ذلك بأى وسيلة من الوسائل لازم مهما أمكن . وكذلك القول فى الحروب ونحوها . وكذلك الكذب الذى يترتب عليه صيانة عرض أو حفظ مال من الاعتداء عليه ظلما . والقاعدة فى ذلك أن كل ما يترتب عليه حقن لدماء كثيرة كانت أو قليلة . أو يترتب عليه صيانة الاعراض وحفظ الاموال أو فيه منفعة للأمة فهو لازم مهما كانت صورته . وليس من الضرورى ان نعتبر مثل ذلك خارجا عن حد الكذب لأنه اخبار عن الشىء بخلافه على كل حال وإنما هو استثناء من الكذب المذموم ولا ضرر فى هذا على الصدق لأن هذه الاحوال ليست هادمة له بل هى فى الواقع مقررة له لأنه انما كان ممدوحا لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع وفائدة الانسان . ولا نظر فى هذه الاحوال الا للفائدة التى ينشدها الدين والعقل ويمتدح من أجلها الصدق

فان كانت الفائدة التى تترتب على الكذب شخصية لا تترتب عليها آثار عامة بل تكون قاصرة على بعض الافراد - كالكذب للاصلاح بين اثنين - لايترتب على الاصلاح بينهما ضرر يعود على غيرهما والاصلاح بين الزوجين وكذب الرجل على زوجه وأبنائه ليرضيهما فان الظاهر أنه جائز فقد روى مسلم فى صحيحه عن أم كلثوم بنت عقبة أنها قالت «ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب الا فى ثلاث . الرجل يقول القول يريد الاصلاح . والرجل يقول القول فى الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها»

وظاهر هذا الحديث أن اثم الكذب يرتفع فى هذه الأحوال الثلاثة . فاما الحروب والاصلاح بين الأمم فأمره ظاهر . وأما الاصلاح بين الافراد والاصلاح بين الزوجين فذلك محل نظر ينبغى أن يحترس فيه كل الاحتراس لأن الشارع وإن كان قد أباح للزوجين أن يكذب كل منهما على صاحبه ليرضيه فانما أباحه فى الأحوال التى لاتتعارض مع قواعده العامة وهو انه لا يكون ذلك من بواعث رفع الثقة بينهما وأن لايكون سببا فى استسهال الكذب والتعود عليه . وأن يكون فى الاحوال الضرورية التى لا مناص فيها من الكذب بحيث لايمكن صلح ولا رضا الا بذلك . وأن يكون الخلف بينهما قد وصل الى حد الفرقة التى يترتب عليها ضرر الأطفال الصغار وهدم الأسرة . ونحو ذلك من المضار الكبيرة التى تعادل جريمة الكذب وترجح عليه . ومثل ذلك الصلح بين اثنين فانه ينبغى أن يراعى فيه كل ماتقدم . وحيث ان تقدير هذه الظروف دقيق والوقوف عليها عسر فينبغى اجتناب الكذب فى مثل هذه الأمور والوقوف عند حد الضرورة الملجئة حيث يتعين الكذب حقنا للدماء أو حفظا للأموال والأعراض أو تحصيلا لمصلحة تعود على الجماعة بشرط أن يتعذر التعبير بغير الكذب

النميمة

تعريفها

ومن صفات النفس الذميمة التي تثير الغضب وتهيجه ويترتب عليه كثير من الشرور والمفاسد النميمة وهي مأخوذة من نمّ الحديث ينمه بالكسر والضم من بابي ضرب وقتل نميمة ونميما اذا سعى به ليوقع فتنة أو وحشة. ويقال لمن يفعل ذلك نمام. هذا معنى النميمة في اللغة. وأما معناها في اصطلاح الأخلاقيين فهو أعم من هذا لأنه عبارة عن افشاء السر ونقله الى الناس فمن أفشى سرا أودع عنده أو اطلع عليه من غير علم صاحبه فانه يسمى نماما سواء كان افشاؤه يؤلم المنقول عنه أو المنقول اليه أو يؤلم شخصا آخر غيرهما كما اذا أسر محمد الى علي حديثا يتعلق بعيب في خالد فافشاه علي الى أحمد فانه في هذه الحالة لم يؤذ المنقول عنه ولا المنقول اليه وإنما أساء الى خالد. ولا فرق بين أن ينقله بالاشارة أو العبارة كما لافرق بين أن يسره اليه بنفسه أو يطلع عليه في غفلة عنه كما اذا رأى شخصا يدفن مالا مملوكا له في خفاء فانه لايحل له أن ينقله الى الناس فان نقله كان نماما. نعم ان كان في كشف السر دفع منكر أو ايصال حق لصاحبه كما لو رأى لصا يدفن مالا سرقه أو رأى اثنين يتآمران على اقتراف جريمة فان عليه أن يفشو هذا كي يرد المال لصاحبه ويدفع المعصية قبل وقوعها فالنميمة عند الأخلاقيين عبارة عن كشف المستور من الأمور التي يكره كشفها سواء كان يكرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو يكرهها شخص ثالث غيرهما

انواع النميمة

تتنوع النميمة الى أنواع

أولا ـ النميمة عند أرباب الجاه والسلطان وهي شر انواع النميمة ضررا وأشدها خطرا فكم جرت مصائب وويلات على كثير من الأبرياء المؤمنين الغافلين طاهري القلوب سليمي الصدور ففضت على أرواحهم وأموالهم . وكم نكلت بكثير من نوابغ العلماء فاخرجتهم من ديارهم وأموالهم وأصبحوا عرضة لمحن الزمان ونوائب الايام وكم أضرت بصالحين مطمئنين فأودعتهم السجون وسلبتهم الحقوق وجعلت للفاسقين عليهم سلطانا وكم حرمت اطفالا من قوتهم وسلبت منهم نعيمهم بدون جناية اقترفوها ولا جريرة ارتكبوها

ولا ريب في ان النمام في هذه الحالة لا يكون له قلب يؤنبه ولا وازع يزعه فيزين له حب الجاه والمنصب والمال التجسس على عورات الناس الذين يظن انهم يزاحمونه في شهوته او ينافسونه

فى مناصبه كى يتخذها سلاحا يستعمله ضدهم كلما أراد . وهؤلاء لايبالون باختلاق الكذب واختراع الباطل يذيعونه عند ولاة الأمور ويسعون به لديهم للقضاء على الأبرياء وتضحيتهم فى سبيل شهواتهم بدون حياء ولا خجل من عباد الله ولا خوف من ربهم وإن عذابه إياهم لواقع . وسخطه عليهم ماله من دافع وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . ومن هؤلاء الأشرار من يكون كالعقرب فيؤذى من لا ينتفع بأذيته ولا علاقة له به لمجرد الحسد والحقد أو الخوف من أنه يظهر عليه فى هذه الحياة فيقلل من شأنه وذلك منتهى الفسق والضلال .

ثانيا . النميمة بين الأصحاب والأصدقاء وهذه شر عظيم أيضا فان الناس لابد لهم من التعاون فى هذه الحياة ولا بد للأفراد من ثقة تتداول بينهم يعتمدون عليها فى معاملاتهم وهذه الثقة إنما توجد بين الأفراد لما يوجد بينهم من تقارب فى النفوس وتشابه فى الصفات ومتى وجدت هذه الثقة أصبح كل واحد منهم ينظر لصاحبه كما ينظر الى نفسه فى جانب النافع له ودفع الضار عنه فلا يخفى عنه سرا ولا يضن عليه بمعونة . وقد تذهب به الثقة إلى أن يفضله على أخيه من النسب ويقدمه على أهله وعشيرته وإن لم يكن منهم. فأشد الناس خيانة واقطعهم لصلات الود وأفسدهم أخلاقا وأخسهم قدرا وأرذلهم صنعا وأحقرهم فى نظر الانسانية من ينتهز هذه الفرصة كى يقف على عورات صاحبه ويعرف موضع الضعف من نفسه ثم يتربص به الدوائر فيذيعها عنه ليقضى بها على حياته الأدبية أو المادية . يثلمه فى كرامته أو يؤذيه فى سمعته . فلا ريب أن من يفعل ذلك لا يصح أن يكون فى عداد الانسان بل الأجدر به أن يكون وحشا كاسرا وذئبا ضاريا على أنه أشد من الوحوش ضررا وأعظم من الذئاب خطرا

ثالثا . النميمة بين الزوجين أو بين الاهل والاقرباء فمن نم ليفسد بين الزوجين أو يفسد بين الأب وابنه أو بين الاخ واخيه فهو شر من الشياطين الذين قال الله عنهم انهم يعلمون الناس السحر ليفرقوا به بين المرء وزوجه وتلك كبيرة من شر الكبائر وجريمة من اسوأ الجرائم لأن من يستطيع ان يقطع الصلات الطبيعية بنمائمه ووشاياته فان خطره على العلاقات الأخرى شديد وضرره على المجتمع الانسانى عظيم ولا ريب فى أن النميمة فى هذه الحالة اشد من النميمة بين الاصحاب والاصدقاء

رابعا . النميمة بين الجماعات والافساد بين القبائل. وهذه قد يثيرها التنافس السياسى للقضاء على شعب من الشعوب او قبيلة من القبائل او اسرة من الأسر فيسعى المنافس فى الايقاع بها عند قبيلة اخرى لتشتبك كل منهما بصاحبتها فى نضال ونزاع يفضى الى ابادتهما أو ابادة إحداهما . ولا ريب فى أن الوشايات والنمائم فى هذا أشد ضررا من الوشايات بين الافراد فان القضاء على شعب برئ أو قبيلة هادئة لا ذنب لها سوى أنها تزاحم فى الحياة جناية لن يغفرها الله تعالى وجريمة لاتمحى

خامسا . النميمة لرفع الثقة من مزاحم فى تجارة أوصناعة أوزراعة وهذا النوع هوالذى يغلب وقوعه بين الطبقات المرتزقة ولو علم هؤلاء ان الرزق لاينال بالتعدى على بعضهم بعضا بالنمائم والوشايات وانما ينال بالجد والاجتهاد والمثابرة على العمل والصدق والامانة لما أقدموا على تلك الجريمة الشائنة .

سادسا . النميمة لانزال شخص عن مكانته واحترامه عند فئة من الناس أو طائفة من الطوائف وهذا النوع يقع كثيراً بين المتنافسين فى الزعامة الدينية أو الدنيوية فيحملهم الحسد والغيرة على الوشايات والنمائم فى بعضهم عند من يعتقدون فيه القدرة على حمل الناس على احترامهم وتقديرهم إياه . ولو علم هؤلاء انهم بجنايتهم هذه يتناحرون ويسقط بعضهم بعضا لما أقدموا على ارتكابها

هذا معظم أنواع النميمة وهى كما ترى من شر مامنيت به الفضيلة ورزئت به الانسانية . فقاتل الله النمام الذى قد اجتمعت فيه الخسة والدناءة ومعظم الصفات المرذولة لانه لايبالى أن ينقل الكذب فهو من زمرة الكاذبين ولا ينفك عن الغيبة لأن النميمة غالبا يصاحبها ذكر العيوب . فاذا أفشى سرا وذكر عيوب أخيه كان نماما مغتابا . ولا ينفك عن الغدر والخيانة والحقد والحسد والتملق والنفاق والافساد بين الناس والقضاء على سمعة إخوانه وكرامتهم وأموالهم وأعراضهم . ومن كان كذلك فهو من شر خلق الله الذين يسعون فى الأرض فسادا . من أجل ذلك كانت النميمة من الكبائر فى نظر الدين الاسلامى وقد حرمها الله تعالى فى كتابه الكريم . ووصف فاعلها بأخس الصفات وأرذلها قال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم) وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر كثير من الصفات المرذولة التى هى أصول الشرور والمفاسد بين الناس . فالحلاف المهين هو الذى يحلف كثيرا من غير ضرورة بالحق وبالباطل . وإنما يفعل ذلك من اتخذ الكذب شعاراً له حتى أصبح كذاباً فى نظر الناس . مهيناً عندهم فلا يصدقونه فى خبر ولا يثقون به فى حديث فيكثر من الحلف ليعيد اليه بعض الثقة . وما هو بموثوق به على أى حال . ومن كان كذلك فهو شر على نفسه وعلى المجتمع الانسانى . فلا يبالى أن يعتدى على الناس فى أعراضهم وأموالهم وأنفسهم . والهماز أصله لغة مأخوذ من الهمز وهو الضرب باليد أو العصا استعير للذى يعيب الناس بلسانه أو ينال منهم بالاشارة أو الغمز بالعين وهو المغتاب الذى سبق الكلام فيه . والمشاء بالنميم هو نقال الحديث من قوم لقوم أو من شخص لآخر على وجه الافساد ويتناول ماتقدم من أنواع النميمة . والمناع للخير هو البخيل الممسك الذى يضن بالانفاق حيث يجب البذل . والمعتدى هو الذى يعتدى على الناس ويظلمهم . والأثيم هو كثير الآثام .

فتلك الصفات اذا وجدت جميعها فى شخص أو وجدت واحدة منها فيه كان جديراً بأن يحتقر ولا يطاع فيما يريده من إيذاء الناس باقتطاع حقوقهم بالأيمان الفاجرة أو الطعن فى أعراضهم بالاغتياب أو إيذائهم بالنميمة أو منع حقوقهم عنهم بالشح . بل ينبغى أن يزدجر بمقاطعته والانصراف عنه . فان حلف لايصدق وإن اغتاب الناس لايصغى له ولا يستمع لغيبته . وإن وشى لاتسمع وشايته . وإن بخل لايعان على بخله . ولو كان له مال قد يظن أنه يجعل له قدراً وقيمة

فى الحياة كما قال تعالى(أن كان ذا مال) - أى لاتطعه لأن كان ذا مال - فان المال فى مثل هذه الحالة لايغنى عنه شيئا . فلا يحفظ له كرامة ولا يصون له قدراً وهو شر الفاسقين وأرذلهم كما وصفه الله تعالى بعد ذلك بقوله (عتلّ بعد ذلك زنيم) فالعتلّ هو الفاحش اللئيم . أو الشديد الفاتك الذى لايبالى بالفتك بالناس وايذائهم فى أعراضهم وأموالهم وأنفسهم . والزنيم ولد الزنا الذى ينتسب إلى قوم ليس منهم . مأخوذ من الزنمة بفتحات وهى مايتدلى فى حلق المعز وهى الجلدة الزائدة التى تعلق بها وكأنها ليست منها. شبه بها الدعى الذى ينتسب الى قوم ليس منهم فمن كانت فيه هذه الصفات كان جديراً بأن يكون متولداً من نطفة خبيثة لايعرف للخير سبيلا . وليس معناه أن كل أولاد الزنا شر على الناس إنما الغالب أن يكون ولد الزنا شريراً فاسداً يتبع والديه فى أخلاقهما المرذولة ويرثهما فى أوصافهما الممقوتة مالم يرب تربية صالحة فى بيئة كريمة فتنزع من نفسه تلك الصفات وتبرأ منها كما قدمناه لك فى مبحث الشح وغيره. فاذا وجدت تلك الصفات المرذولة فى شخص كانت أمارة على خبث نطفته وعلامة على أنه ابن زنا .

ومن ذلك يتضح لك أن الله تعالى جعل النمام فى سلك هؤلاء المجرمين الذين هم من عنصر فاسد وأخلاق شائنة . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة نمام » وفى رواية - قتات - رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . والقتات والنمام بمعنى واحد . وقيل النمام هو الذى يكون مع جماعة يتحدثون بحديث ثم ينقله عنهم على وجه الافساد . والقتات هو الذى لم يكن موجوداً معهم ولكن يسترق الحديث ويسمعه ثم ينقله كذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين فان فساد ذات البين هى الحالقة » رواه أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « هى الحالقة لاأقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منى ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثماً مبينا) » رواه الطبرانى .

وكفى بذلك من قول الله تعالى وقول رسوله ذما للنميمة وزجراً للمؤمنين الذين هم بربهم لا يعدلون .

علاج النميمة

واذ قد تبين أن النميمة داء وبيل وشر خطير تترتب عليه كل هذه الشرور والمفاسد فينبغى أن يتضافر المسلمون على محاربته والقضاء عليه حتى لايبقى له ظل ولا يظهر له أثر وخير علاج يقضى عليه

أن ينصرف الناس عن النمامين ولا يستمعون لهم ولا يتأثرون بنمائمهم ووشاياتهم كما قال تعالى (فلا تطع كل حلاف) الآية .

روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر عنده وشاية فى رجل آخر فقال له عمر إن شئت حققنا هذا الأمر الذى تقوله فيه ونظرنا فيما نسبته اليه فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وإن كنت صادقا فانت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وإن شئت عفونا عنك فقال العفو ياأمير المؤمنين لا أعود اليه أبداً . فمثل ذلك الرجل الذى قابله عمر بن عبد العزيز بمثل هذا التأنيب لن يعود اليه بنميمة مادام حيا . فلو سلك الناس هذا الطريق مع النمامين لقضوا على هذا الداء قضاء مبرماً . فمن لم يستطع ضبط نفسه فثار غضبه عند سماع النميمة فيجب عليه أن يتثبت فى الأمر ولا يتسرع فى توقيع العقوبة عملا بقول الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين) فان النمام فاسق بنميمته والفاسق لايصح الوثوق بخبره بل ينبغى التثبت فيه لأنه يكون كاذبا فى الغالب وليس الغرض من ذلك أن يتجسس ويبحث عن صحة ماقال وإنما الغرض أن ينظر فيما نقل اليه ويتأمل فى غرض الناقل لأنه لم ينقل إلا لغرض فاسد يناله اما من المنقول اليه كأن يطمع فى منصب أو مال أو جاه واما من المنقول عنه كأن يريد التشفى فيه والانتقام منه بتحريض المنقول اليه على ايذائه . ومن كان هذا شأنه فلا يصح التعويل على خبره فتسكن نفسه عند ذلك وينصرف عن سوء الظن بأخيه الذى نهى الله عنه بقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا) ولا يفوت أحداً من الحذاق أن النمام الذى ينقل اليه لغرض يناله من وراء ذلك لن يحجم لحظة فى أن ينقل عنه لغيره متى لاح له ذلك الغرض . ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله من نمّ اليك نمّ عنك .

فليس من العقل أن يحسب للنمام حسابا أو يجعل لوشايته قيمة فانه اذا فعل معه ذلك بارت بضاعته وخسرت تجارته وباء بالخزى والفشل . وذلك خير زاجر يزجره عن اقتراف ذلك الاثم وأكبر مؤدب يبعده عن ارتكاب هذه الخطيئة . وينبغى للمنقول اليه أن لايذكر الوشاية التى نقلت اليه لصاحبها والا كان هو نماما أيضا فيقع فى الاثم الذى وقع فيه غيره فضلا عما فى ذلك من العناية بالنميمة باحياء ذكرها مع أن اللازم إماتتها واعتبارها كأنها لم تكن .

هذا خير علاج تعالج به النميمة وهو زجر النمام وعدم الاصغاء الى نمائمه ووشاياته فان كان المرشد يظن خيراً بالنمام ويعتقد أنه يتأثر بالموعظة الحسنة فعليه أن يذكره بما يترتب على نمائمه من إيذاء الأبرياء وظلم الناس فى أموالهم وأرزاقهم ويحذره من عاقبة وشايته فقد ينكشف أمره عند حاكم عادل فيقتص منه شر قصاص . أو يظهر كذبه عند من ينقل اليه فينعكس غرضه وتزيد الوشاية فى الرابطة بينه وبين المنقول عنه . وربما نمّ على رجل أقوى منه فينتقم لنفسه بما لاقبل له به فضلا عن أن النمام مهما اكتسب بوشايته فهو ساقط المروءة فى أنظار الناس مبغوضا عندهم وهو مع كل ذلك فى سخط الله تعالى وأهل لعقوبته وبطشه . وإن بطشه لشديد

الكبر والعجب

تعريفهما

من الصفات النفسية المرذولة التى كثيراً ماتثير الغضب وتهيجه وتورث العداوة والبغضاء بين الناس الكبر والعجب . كما بيناه لك فى درجات الغضب .

فأما الكبر فمعناه فى اللغة العظمة والعزة ومثله الكبرياء وقد فسر ابن عباس الكبر فى قوله تعالى (إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) بالعظمة فالكبر صفة حاصلة للنفس تنشأ من اعتقاد المرء فى أن له منزلة أعلا من منزلة غيره فيحصل له من تلك العقيدة هزة فرح فى قلبه وعزة .

فتلك العزة صفة الكبر. ويرادفه الزهو — بفتح الزاى وسكون الهاء — والفخر والخيلاء — بضم الخاء وكسرها — ويقال زهى الرجل — بضم الزاى — فهو مزهو اذا تكبر .

وأما معناه فى نظر الدين والأخلاق فهو العزة التى يترتب عليها آثار سيئة تضر بالأفراد والمجتمع . يدل لذلك مارواه مسلم والترمذى عن ثابت عن قيس بن شماس . قال « يارسول الله إنى امرؤ قد حبب الى من الجمال ماترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس أوغمط الناس » ومعنى الحديث أن الكبر هو هزة القلب التى يترتب عليها أمران احتقار الناس وازدراؤهم واهانتهم بالقول والفعل . أو يترتب عليه رد الحق ودفعه وهو عالم به سواء كان من حقوق الله أو من حقوق عباده . فمعنى بطر الحق رده وجحده وهو عالم به ومعنى غمص أو غمط الناس احتقارهم . أما فرح النفس بالشىء الجميل الذى لايترتب عليه هذان الأمران فليس بكبر فاذا تأثرت نفسه بجمال ثوب وزينة المباحة وأحبها من غير أن يجره ذلك الى احتقار الناس والتطاول عليهم فانه لايقال له كبر . وكذلك اذا تأثر بالجمال المعنوى كأن أحب صفة العلم والشجاعة وقدر الفضائل التى تتصف بها نفسه فاهتز لذلك قلبه وعزت بها نفسه من غير أن يترتب على ذلك احتقار غيره وجحد الحق فانه لايسمى كبراً . ومن ذلك ما اذا قدر الانسان نفسه فسما بها عما لايليق فابتعد عن البيآت التى يلحقه منها عار أو يصيبه من وراء الاختلاط بها ضرر مادى أو أدبى فانه لا يكون مذموما بل هو مطلوب شرعا . وكذا اذا أحب عزة النفس ليكون وقوراً بين الناس متحليا بالصفات التى يقدسونها ويحترمونها كى يكون مطاعا فى قومه ليرشدهم الى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة فيتبعونه فى أمره ونهيه . لاغرض له من ذلك الا هدايتهم وصلاحهم ولا مقصد له الا رشدهم وفلاحهم . فلا يفعله خوفا من ذم أو رغبة فى مدح كما تقدم فى مبحث الرياء فانه يكون ممدوحا كل المدح . فعزة النفس تكون كبرا مذموما ان ترتبت عليها آثار

سيئة وتكون صفة ممدوحة مطلوبة شرعا ان ترتبت عليها آثار صالحة وتكون مباحة ان ترتب عليها حب الجمال فى ذاته والفرح به من غير أن يترتب على ذلك خير أو شر . هذا معنى الكبر فى اللغة والشرع ويؤخذ منه أن معناه فى نظر الشرع يستلزم متكبرا عليه وهو الذى تظهر فيه الآثار وهو بهذا المعنى يفارق العجب لأن معنى العجب استعظام النعمة التى ظفر بها والركون اليها من غير اضافتها الى المنعم وهذا الاستعظام متعلق بالنفس وحدها فان تعلق بالغير كان كبرا . فالعجب سبب موجب للكبر لأن الذى يستعظم النعمة ويعتقد أنه أهل لها بدون أن يعترف للمنعم بفضل فلا ريب فى أنه يعتقد فى نفسه الكمال وأن له مرتبة فوق مرتبة غيره وذلك يفضى الى العزة والتكبر

سبب الكبر

واذ قد علمت ذلك تعلم أن سبب الكبر المباشر هو اعتقاد المرء فى نفسه أن له منزلة أعلا من منزلة غيره وأن العجب سبب فى ذلك الاعتقاد . وقد يكون هذا الاعتقاد ناشئا عن صفة كمال حقيقية كالعلم أو النسب أو الجاه والسلطان . وربما نشأ عن غرور ووهم بحيث يعتقد أنه أكمل من غيره خطأ وجهلا وربما ينشأ الكبر عن نقص فى ناحية من نواحيه فيتعمد العظمة ويفعل ماتستدعيه من آثارها ظنا منه أن ذلك يسد موضع النقص فيه . فترى بعض المطعون فى أنسابهم مثلا يتكبرون عند مايتاح لهم شىء من السلطة ظنا منهم ان ذلك يرهب الناس فلا يحتقرونهم من ناحية نقص أنسابهم وكذا من كان معروفا بنقيصة فى عرضه أو دينه فانه يتعمد العظمة لهذا الذى ذكرنا . وهذا كثير معروف بين الانسان . فمن أراد أن يحاول استقراءه يجد أن كثيرا من حالات الكبر ناشئة منه ومترتبة عليه وهؤلاء الذين يتكبرون بسد النقص فيهم مخطئون كل الخطأ . فان التكبر لايزيد الناس الا حقدا عليهم فيدفعهم الحقد الى اذاعة سوآتهم مضاعفة ونشر عوراتهم مكبرة ويتربصون الفرص للانتقام منهم عند زوال تلك السلطة . مع أنهم لو أنصفوا أنفسهم وعاملوا الناس بالرفق واللين والعدل والتواضع كان ذلك وحده كاف فى تقديسهم واجلالهم ونسيان كل نقيصة فيهم وما أحسن قول بعضهم :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب

فأما الكبر المترتب على الصفات الحقيقية فانه من شر الآفات التى تذهب بجمال تلك الصفة وتضيع ثمرتها المقصودة منها . فاذا كان ناشئا عن صفة العلم كان صاحبه مثالا سيئا وقدوة رديئة خصوصا اذا دفعه الكبر الى الاتصاف بصفة ذميمة كالحسد والحقد أو أفضى به الى ارتكاب مظلمة من المظالم بيده أو لسانه فان عار هذا لايمحى وضرره لايقدر لأن الناس يقتدون بالعلماء فى أقوالهم وافعالهم فيستسهلون عند ذلك ارتكاب الجرائم . ويستبيحون الاتصاف بالصفات الذميمة وذلك شر عظيم وبلاء مبين

وأيضا فان العالم المتكبر ينصرف الناس عنه وينفضون من حوله فلا ينتفع بعلمه إلا من يوافقه على هواه فلا يردعه عن خطأ ولا يشير عليه بحق ولا يزاحمه فى غرض ومثل هذا لافائدة من تعليمه لأنه يكون ناقص النفس ضعيف الارادة ومن كان هذا شأنه فان علمه يكون شرا ووبالا لأنه يستعين به على الشر ويستخدمه فى الفساد. أما العلم النافع فهو الذى يربى الأنفس ويطهرها من الصفات الرديئة فيكون صاحبه مثالا حسنا للناس وقدوة صالحة فى الاقوال والافعال

وإذا كان الكبر ناشئا عن النسب فانه يكون سببا فى الطعن على ذلك النسب وحمل الناس على الاعتقاد بانه نسب ردىء العنصر خسيس الاصل فان النسب الشريف هو الذى تترتب عليه آثار صالحة تدل على رفعته وكرمه. أما من يتكبر فيظلم الناس ويؤذيهم ويحتقرهم فانه لا يكون من عنصر طيب ولا من أصل كريم وقد يتهم الناس من يفعل ذلك بانه ولد زنا وذلك حق فان الله تعالى وصف اللئام والفاجر والمناع للخير بأنهم اولاد زنا كما تقدم فى مبحث النميمة وذلك لأن الاعمال الفاجرة تتبع خبث المنى غالبا مالم يتح لولد الزنا بيئة صالحة يتربى فيها وينزع من نفسه تلك الصفات الرديئة التى ورثها من أصله واكتسبها من والديه

اما اذا كان الكبر ناشئا عن الجاه والسلطان فانه يفضى الى شر انواع المظالم وانتهاك حقوق الله وحقوق العباد . ولقد علمت فيما مضى أن الكبر الضار هو الذى تترتب عليه مظلمة أو ضياع حق من حقوق الله فاما العزة التى ينشأ عنها ما ينفع الناس وما يحفظ كرامة المرء وما يقتضيه النظام فانها لازمة ضرورية . مثلا مايستدعيه نظام الحكم من ترفع الحاكم عن مخالطة العامة ومجاملتهم بما يسقط هيبته أو يطمعهم فى قضائه أو يسهل لهم الاخلال بالنظام فانه واجب ضرورى اذا اهمله الحاكم لم يكن جديرا بالحكم انما الكبر الممنوع هو أن لايبالى بهم فلا يسمع شكوى ضعيفهم ولا يسمح له بالدنو منه ليعبر له عن مظالمه وينتقم ممن لم يؤد له ما تقتضيه العظمة من أنواع العبودية الظاهرة فلا يبالى أن يبطش به ولا يتورع عن أخذه بما هو برىء منه . أو يحقد على من رفع صوته أمامه أو توسع فى الدفاع عن نفسه بما لايرضيه وكذا اذا أعرض الحاكم عن سماع النصيحة واستكبر عن العمل بالحق فانه فى هذه الحالة يكون متكبرا مذموما

مضار الكبر

وآثاره السيئة

تنقسم آثار الكبر الى قسمين آثار باطنة وآثار ظاهرة وتلك الآثار تسمى تكبرا . فمن القسم الأول طغيان الغضب فان المتكبر يستحقر من يتكبر عليه ويرى منزلته فوق منزلته فاذا ما توهم أنه واقف فى سبيل عظمته وعزته ثار لذلك غضبه وطغى عليه

ومنه الحقد والحسد لأن المتكبر إذا رأى نعمة على من يعتقد أنه اعلا منه رتبة يحسده عليها ويتمنى زوالها عنه لانه حقير فى نظره فلا يستحق تلك النعمة

ومنه الحقد لان المتكبر اذا رأى من يريد ان يتكبر عليه قد وقف امامه فى أمر لا يحبه ولم يستطع الانتقام منه حقد عليه وتربص به الفرص

ومن القسم الثانى ما يترتب على طغيان الغضب من المظالم والاعتداء على عباد الله تعالى. فانك قد علمت أن المتكبر يثور غضبه اذا رأى من يعتقد أنه دونه وقد حاول المساس بعظمته فلا يبالى عند ذلك أن يبطش به ويعتدى عليه فى عرضه أو نفسه أو ماله أو دينه سواء أكان ذلك بمباشرته أو باغراء الناس عليه . ومنه أنه اذا لم يستطيع أن يبطش به بيده ويعتدى عليه اعتداء صريحا فى وجهه فانه يسلط عليه لسانه بأن يغتابه وينشر عيوبه بين الناس او يتم عليه ويوقع به عند من ينتقم له منه سواء اكان ذلك حقا أم باطلا ومنه أنه يتسلط على الضعاف ويسخرهم فى أغراضه وشهواته وهو يعتقد ان ذلك واجب مقدس عليهم نحوه فلا يجوز لهم ان ينثنوا عنه أو يقصروا فى ادائه ومن اجل ذلك يتعذر عليه أن يشكر احدا على عمل أو ينوه بفضل احد عليه مهما اسدى اليه من معروف ولا يمكنه ان يذكر له يدا عليه . ومنه الاختيال فى المشى وجر الثياب الى غير ذلك من الصفات الذميمة التى يجرها الكبر وراءه وتظهر آثارها على وجوه المتكبرين وأيديهم والسنتهم وابدانهم ومنها يؤخذ أن المتكبر حسود حقود كذوب مغتاب نمام ظالم معرض عن الحق لانه لا يستمع لنصيحة من يتكبر عليه ولا يقر له بفضل . فهو من أشقى خلق الله وأضرهم على المجتمع الانسانى وأظلمهم لنفسه لأنه ممقوت عند الله وعند عباده ولقد علمت مما مضى ان صفة واحدة من الصفات التى يستلزمها الكبر اذا تفشت فى أمة من الأمم كانت كافية فى ازالتها وفنائها فالكبر من شر الأدواء التى يجب على الناس علاجها ومحاربتها بكل الوسائل

فهذا شر مضار الكبر وآثاره السيئة الظاهرة والباطنة ذكرناها لك ليسهل عليك علاجه بعلاج كل أثر من تلك الآثار

اقسام الكبر

بالنسبة للمتكبر عليه

وأدلة تحريمه من الكتاب والسنة

ينقسم الكبر بالنسبة للمتكبر عليه إلى ثلاثة اقسام . كبر على الله تعالى . وكبر على رسله عليهم الصلاة والسلام . وكبر على عباد الله . فأما الأول فهو شر الأقسام وأخفها لأن الانسان الضعيف الذى يصرعه أضعف الحيوانات لا يليق به أن يتكبر على خالقه العظيم الذى يستمد منه وجوده وبقاءه ويحتاج اليه فى كل حركة وسكون ومن يجهل قدر نفسه وقدر خالقه فهو من بهيمة الأنعام بل هو أضل سبيلا كما أخبر الله عن الكافرين - الذين استكبروا عليه - فى غير موضع من كتابه العزيز . وكيف يجهل الانسان قدر إلهه القادر القاهر الذى أبدع العالم على أحسن إحكام وأدق تكوين . وله سبحانه فى كل جزء من أجزاء خلقه شاهد واضح الدلالة . وحجة ظاهرة البيان تنطق أنه هو ذلك الصانع الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير . ولقد أرشد الله تعالى عباده إلى دلائل وجوده وقدرته فى كثير من القرآن الكريم قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً) وقال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وقال تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) وقال تعالى (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إله واحد قادر قاهر لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ولا تستغنى - عن تدبيره وحكمته - مثقال ذرة من تلك العوالم التى رتبها ترتيبا بديع الصنع . وجعل الانسان أفضل الأنواع وأعلاها قدراً وأكرمها منزلة . فقد ميزه بالعقل والعلم . وفضله بالادراك والمعرفة . وسخر له كل مافى هذا الوجود من شمس وقمر ونجوم وسحب وسماء وأرض وماء وهواء وجبال . ونحو ذلك من كل ماينتفع به الانسان فى كل شأن من شئونه وقد منّ الله

تعالى عليه بالعقل الذى يرشده إلى استخدام هذه العوالم ويهديه إلى معرفة خواصها ومزاياها . ولولا ذلك ماعاش الانسان طرفة عين . إذ لو انقطع عنه الماء أو الهواء أو الحرارة لانعدم من فوره واصبح كأن لم يكن شيئا مذكوراً . فهو مدين فى حياته لتلك الأشياء التى خلقها الله تعالى وسخرها له فضلا منه عليه ورحمة به حتى إذا جاء الأجل الذى قدر له قبضه الله إليه ليعيده الى حياة خالدة مستمرة يسعد فيها المؤمنون سعادة كاملة . ويعيشون عيشة راضية مرضية لاتعب فيها ولا نصب . فمن لم يتدبر فى هذه الآيات الواضحة والدلائل القاطعة فهو جدير بأن يكون كالأنعام بل هو أضل سبيلا .

هذا ولنذكر لك تفسير مايحتاج إلى تفسير من الآية الأولى استعجالا للفائدة . أما غيرها فاننا نرجىء الكلام فيه إلى مايأتى فى مباحث الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله .

فمعنى قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) الخ . قل كيف تنكرون . أو كيف تشكون فى البعث المذكور فى الآية السابقة بعد ماشاهدتم مايدل عليه من قدرتنا التامة وحكمتنا القاهرة التى ترشدكم الى أننا ماخلقنا كم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون (والمهاد) معناه الفراش الممهد الموطأ . وهو بمعنى المهد - الموضع الذى يمهد للصبي - فقد شبه سبحانه لنا الأرض بالموضع الذى يمهد للصبى فيستريح فيه . بجامع أن كلا منهما ضرورى لراحة الانسان فلا يمكنه أن يعيش بدونه ولا يحيا بغيره . ولقد خلقها الله على أتم نظام وأبدع إتقان . فخلق الجبال لتحفظ توازنها فلا تضطرب من ثقل ماعليها ولا تميد بأمواج البحار المحيطة بها فكانت الجبال منها كالأوتاد من البيت . ومعنى قوله تعالى (وخلقناكم أزواجاً) أى مزدوجين ذكرا وأنثى وهذا هو طريق التناسل فى الانسان وغيره . ولولاه لما تم بناء العمران ولا وجد الانسان مايحتاج اليه من فاكهة ونبات وحيوان . بل لم يوجد الانسان رأساً . ومعنى قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) أى موتا لأن معنى السبات فى اللغة الموت وقد جعل النوم كالموت . فلا ندرى كيف ننام وكيف نستيقظ ومهما عرفنا من الأسباب التى تفضى إلى النوم أو اليقظة فانا لايمكننا أن نعرف ماهية النوم وحقيقته وإذا كنا ننام ونستيقظ فى كل يوم وليلة . والنوم نوع من الموت . فكيف ننكر قدرة الله على إعادتنا بعد الموت أو نشك فى ذلك . ومعنى قوله تعالى (وجعلنا الليل لباساً) أى ساترا لكم عن الأعين إذا أردتم اخفاء أمر من الأمور أو هربا من عدو أو غير ذلك . ومعنى (وجعلنا النهار معاشاً) أى وقت معاش تحصلون فيه أرزاقكم . ومعنى قوله (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) أى سبع سموات محكمة الصنع قوية الخلق لتنتفعوا بما أودعه الله فيها من كواكب وجاذبية تربطها بالأرض التى تعيشون فوقها من غير أن يختل بناؤها أو يفسد نظامها فيقع عليكم منها مايهلككم فلم يبق لكم أثر . فلو لم يكن خالقها إلها قادرا عليما حكيما لعرض على بنائها مايعرض على الأبنية من الخلل ويعتورها مايعتور مثلها من الفساد . وعند ذلك يسقط عليكم منها ما يسرع بهلاككم ويجعلكم أثراً بعد عين . وقوله تعالى (وجعلنا سراجاً وهاجاً) أى أنشأنا الشمس التى تتلألأ كالسراج المتلألئ لحاجتكم الضرورية اليها ولولاها ماطاب لكم نبات ولا اثمر لكم زرع ولا بقى لكم وجود (والمعصرات) الرياح التى تعصر السحاب فتمطر أو هى نفس السحاب وسميت

معصرات — بالكسر — لامعصرات — بالفتح — لأنها تعصر — أى تغيث الناس — من القحط والجدب (والماء الثجاج) المنصب بكثرة يقال ثج الماء إذا سال بكثرة (وألفافاً) ملتفة تداخل بعضها ببعض .

فمن ذا الذى يرى هذا بعينى رأسه ويكون له عقل يدرك به الضروريات من الأمور ثم يجحد الصانع الحكيم القاهر العليم ولا يؤمن بأنه واحد سميع بصير فيتكبر عليه وينصرف عن آياته ويجحدها ظلما وعتواً ولقد ذم الله هؤلاء بقوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) ذلك لأن الكبر يحول بينهم و بين النظر فى الحق ويدفعهم إلى الاستهانة بالبراهين واحتقار من يلفتهم إليها فتقسو بذلك قلوبهم وتتراكم عليها السيئات فيطبع الله على قلوبهم ويصرفهم عن النظر فى الآيات المنصوبة فى الآفاق قال تعالى (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) وقال إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين ذليلين

فمن تكبر على الله تعالى فلم يؤمن بذاته وصفاته أو استكبر عن عبادته فانه سيرى نتيجة كبريائه ذلا وصغاراً وعذابا أليما يوم البعث والنشور فضلا عما يصيب كثيراً من المتكبرين من الانتقام الدنيوى كما وقع لقارون وفرعون موسى وغيرهم من المتكبرين .

وأما المتكبر على رسل الله فهو كالمتكبر على الله فى نتيجته فان جزاءه الخلود فى نار جهنم لأنهم إنما جاؤا بتوحيد الله وتنزيهه عن كل مالا يليق وهداية الناس الى سبل السعادة فمن استكبر عليهم ولم يؤمن بهم فقد كفر بربه وخسر خسرانا مبينا .

ولقد قال المستكبرون من قريش (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يريدون الوليد بن المغيرة من أهل مكة وأبا مسعود الثقفى من أهل الطائف . دفعهم الكبر الى أن يطلبوا من هو أعظم رئاسة من النبى صلى الله عليه وسلم لأنه غلام يتيم . وإن كان من أطهر أصلابهم . وأشرف أنسابهم فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) ذلك لأنهم جهلة غلاظ القلوب لم يقدروا الله خالقهم الذى بيده ملكوت كل شىء فهو يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بدون رقيب ولا محاسب وهو العليم بقلوب عباده فيمنح كل واحد منهم ماهو له أهل والله واسع حكيم

روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر فقال المشركون اطرد هؤلاء عنك فانهم وإنهم قال فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما قال فوقع فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك ماشاء الله فحدث به نفسه فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه)

وروى عن خباب بن الأرت « (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) قال جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى فوجدا النبى صلى الله عليه وسلم قاعداً مع بلال وعامر وصهيب وخباب فى أناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حقروهم فخلوا به فقالوا إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحى أن يرانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت

قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك كتابا فدعا بالصحيفة ليكتب لهم ودعا عليا ليكتب فلما أراد ذلك ونحن قعود فى ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) إلى قوله (فتكون من الظالمين) ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ثم ذكر فقال (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ودعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجالس معنا فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) يقول لاتعد عيناك عنهم تجالس الأشراف (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أما الذى أغفلنا قلبه فهو عيينة بن حصن والأقرع . وأما فرطا فهلاكا . فاذا بلغنا الساعة التى كان يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وإلا صبر أبدا حتى نقوم » رواه ابن أبى شيبة ورواه أبو نعيم .

ومعنى هذا أن هذين الكبيرين من العرب حملهما الكبر والأنفة على احتقار بعض هؤلاء المؤمنين لضعفهم من جهة المـــال والنسب فطلبا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يختصهم بمجلس لايشتمل على هؤلاء الضعفاء . وفى رواية أنهم يؤمنون به إن فعل ذلك وكان صلى الله عليه وسلم حريصا جد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم ورأى أن هذا لايضر أصحابه خصوصا بعد أن يدخل هذان معهما فان الدين كفيل بتهذيبهما فاجابهما الى طلبهما . ولكن الله تعالى الذى شرع الدين وهو فوق عباده جميعا . أبى على نبيه ذلك وأعلمه أنه لايبالى بالمتكبرين ولا يحفل بدخولهم فى دينه مادامت أنفسهم متأثرة بالعزة الكاذبة واحتقار المؤمنين لأن دينه تعالى قد جاء بالقضاء على هذه الرذيلة ولم يجعل الاحترام وعلو المنزلة ورفعة القدر مرتبطا برفعة النسب أو كثرة المال أو الجاه والسلطان وإنما جعل ذلك مرتبطا بالعلم النافع وتقوى الله تعالى ولذا قال لنبيه (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أى مجاوزا عن الحق فكان فى ذلك هلاكه . وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية وقال عز وجل (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) الآية فصدع نبينا عليه الصلاة والسلام بأمر الله تعالى وأبلغ ماأوحى اليه من ربه وذلك شأنه فكل ما أنزل اليه من ربه سواء أكان له أم عليه لانه رسول من عند الله حقا وهو الصادق الأمين حقا عليه الصلاة والسلام .

وأما التكبر على خلق الله فقد علمت أنه من شر الرذائل وأسوأ الصفات لأنه يستلزم مظالم شائنة وجرائم ممقوتة وقد يفضى به ذلك الى التكبر على الله تعالى وعلى رسله لأن الله تعالى نهاه عن ارتكاب تلك المظالم وحذره عاقبة شرها فلم يبال به ولم يخش وعيده ولم يخف بطشه وفى ذلك كبر وعتو لأن التمرد على خلق الله تمرد على الله . وأيضا فان المستعظم على عبد من عباد الله لايصغى لقوله مهما كان حقا مفروضا ولايدخر مجهودا فى رده بالباطل . وهذه أخلاق الكافرين الذين يستكبرون على الله تعالى .

فمن أجل ذلك حرم الدين الكبر ونهى عنه نهيا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبه خردل من نفاق . ولا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار » رواه ابن ماجه وغيره

ومعنى الحديث أن العظمة — وهى هنا كون الشىء كاملا فى ذاته شريفا من جميع جهاته مستغنيا عن كل ماسواه — وهى عظمة الخالق سبحانه وتعالى وأن الكبرياء — وهو الترفع عن الانقياد للغير الذى يستلزم الاستغناء المطلق — هو كبرياء الخالق . فهذان الوصفان هما من أخص صفات الله تعالى فلذا شبههما بالرداء والازار فليس من حق العبد الضعيف أن يتصور لنفسه كمالا على الناس مهما أتيح له من منصب أو جاه أو سلطان لانه لامناص له من الافتقار اليهم ولا مفر له من النقص الذى يحيط به من كل ناحية وهو عنه غافل وبه جاهل أو له متجاهل . وليس من حقه أن يترفع عن الانقياد للناس . فيجحد الحق ويعرض عن النصيحة أنفة واستكبارا . ومن يفعل ذلك فقد نازع الله فى أخص صفاته فاغضبه عليه ومن غضب عليه ربه فانه يلقيه فى جهنم ولا يبالى بعظمته الكاذبة وكبريائه الزائف .

وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال إنى آمركما باثنين وأنهاكما عن اثنين أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله فان السموات السبع والارض وما فيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الاخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والارض وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شىء وبها يرزق كل شىء » رواه احمد والبخارى

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول »

ومعنى الحديث الاول أن لكلمة التوحيد من المكانة الرفيعة والرجحان عند الله تعالى أكثر مما للسموات والارض وما فيهن ولها من القوة المعنوية والتأثير مالو مثل بالقوة الحسية ثم مثلت له السموات والارض بحلقة ووضع عليها لقطعها وهو كناية عن عظم قدرها وقوة تاثيرها عند الله تعالى خالق كل شىء . فمن قالها بقلب خالص وإيمان صادق وقدر معناها حق قدره فادرك أن معنى لا إله الا الله الغالب على كل شىء والذى لا يغلبه شىء . وأدرك أن ذلك الغالب القاهر فوق عباده منفرد بالتصرف فلا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض ولا يشاركه إله آخر وأنه ليس كمثله شىء فهو واحد فى ذاته فليست ذاته مركبة من أجزاء وليس معه إله يشبهه . وواحد فى صفاته فليس لاحد من خلقه صفة تشبه صفته لان كل ماعداه ضعيف . فان من يمتد منه الوجود لايكون الا قديما لايحتاج الى من عداه . ومن كان هذا شأنه فصفاته لاتضاهى صفات المحتاجين . وواحد فى أفعاله فلا يعارضه فى فعله أحد ولا يفعل أحد شيئا الا وهو مرجعه ومصدره فالكل اليه راجع والجميع اليه محتاج .

فمن ادرك كل ذلك وتأثرت نفسه به حقا فانه لايعصى ذلك الآله ولا يخالف له أمرا ولا نهيا ومن يفعل ذلك فقد ظفر بالسعادة الخالدة وكان عند ربه من المقربين الذين لهم جنات المأوى نزلا خالدين فيها ابدا

ومعنى كون سبحان الله صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ان هذه الصفة هى دعاء جميع المؤمنين من المخلوقات فالصلاة معناها الدعاء ومعنى سبحان الله تنزيه الله عن كل مالا يليق به وهو اما ان يكون بلسان المقال أو بلسان الحال كما قال تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) ففى كل شيء من خلقه آية تدل على أنه الواحد . وبها يرزق كل شيء لأن وسائل الرزق الموجودة فى الحياة انما هى من الله ولا تنال الا بمعونة الله فلولا أن الله خلق فى الانسان القوة على العمل والقدرة على التفكير وأنزل له الماء الذى ينبت الزرع وخلق له البذر الذى يغرسه وهيأ له الوسائل التى يعمل بها ما استطاع أن يظفر بلقمة واحدة من الرزق وهكذا

ولا ريب فى أن من تمسك بتلك الوسائل التى خلقها الله تعالى لتحصيل الأرزاق واستعان بحمده استعانة خالصة فان الله تعالى يسهل عليه الحصول على رزقه ويعينه على ذلك وهو خير الرازقين وسيأتى فى الواجبات الدينية تتمة لهذا الكلام ان شاء الله

علاج الكبر

قد علمت ان الكبر من الصفات النفسية المرذولة الضارة بالمجتمع والأفراد ضررا عظيما فلهذا كان علاجها فرضا لازما ومحاربتها امرا مقضيا فى نظر الدين والعقل . فمن وجد من نفسه اثرا لتلك الصفة فانه مطالب بعلاجه والقضاء عليه بكل الوسائل الممكنة . وامضى سلاح يقضى على هذه الرذيلة أن يعرف الانسان قدر نفسه ويدرك انه فى حقيقة أمره أضعف من الهباء واقل بطشا من أصغر الحيوانات حتى انه ليقتل بالحيوانات الضئيلة — المكروبات — التى لاترى الا بالمنظار الذى يكبرها اضعافا مضاعفة وأن ينظر الى مبدئه ونهايته نظرة مجردة عن الغرور الكاذب كى يسهل عليه احتقار العوارض التى عرضت له فيما بين ذلك من جاه أو مال أو سلطان أو نسب أو علم أو غير ذلك فانه اذا تأمل فى أمره أقل تأمل يعلم أنه مخلوق من نطفة قذرة تتقذر النفس من رؤيتها ثم تطور الى قطعة دم ثم الى قطعة لحم تعافها الانفس وتمجها الطباع ومهما كمل خلقه وعمر فى تلك الحياة فانه لابد من فنائه وموته فيصبح جيفة قذرة وترابا يطؤه الناس والدواب ومن كان فى اوله نطفة قذرة وفى آخره جيفة وترابا لايليق به أن يغتر بما بين ذلك من العوارض الزائلة والعاريات الذاهبة على أن كل شيء يصح للانسان أن يفخر به ويتعاظم بسببه انما هو عرضة للزوال فى حياته . فان كان سبب الكبر وفرة المال فكم من صاحب مال أصبح فقيرا معدما يتكفف الناس . وان كان سببه الجاه والسلطان فكم من صاحب سلطان ذهب سلطانه وأصبح ذليلا مهانا . وان كان سببه القوة فكم من قوى أصبح ضعيفا . وان كان بغير ذلك من الصفات المعنوية التى تلازم الانسان فى حال حياته كالنسب والعلم . فانك

قد علمت أن هذه الصفات تكون كالعدم اذا لم يتجمل صاحبها بالفضيلة وأن الكبر هو أشد الرذائل التي تذهب بمحاسن تلك الصفات وتقضي عليها . فمن اغتر بنفسه وتكبر على الناس فقد هدم ذلك النسب من أساسه وقضى على فضل آبائه وأجداده شر قضاء لأن الحمد وتكريم الناس لايكسبان بالأنساب وحدها بل يكسبان بالتمسك بالفضيلة واجتناب الرذيلة . وكذلك ماعند الله من منزلة فانه لا يكسب بالانساب . لهذا قال الله سبحانه (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) نعم ان للأنساب فضلا فى تكوين خلق الانسان . فمن كان من أصل طيب وعنصر كريم كانت أخلاقه حسنة وصفاته كريمة . ومن أجل ذلك تحترم الأنساب ويكون لصاحبها فضل على غيره . ومن اغتر بعلمه فقد قضى على نفسه وأضاع ثمرة علمه وأسخط عليه ربه وهو عالم به فكان وزره مضاعفا وجريمته أشد وما أقبح التكبر من العلماء الذين هم قدوة للناس وسند لهم فى اعمالهم

فاذا أدرك المرء كل ماتقدم وأيقن أن كل شيء فى هذه الحياة صائر الى الزوال ومنته الى الفناء وانه مهما عظم امره فانه لا يخرج عن كونه انسانا مخلوقا من ماء مهين وعما قليل سيكون جيفة قذرة وعظاما بالية فترابا يداس بالأقدام فان ذلك يزجره عن التكبر كل الزجر وينهاه عن احتقار خلق الله وايذائهم . ولقد أشار الله عز وجل الى حالات الانسان المذكورة وعجب من كبريائه عليه ودعا عليه بأشنع الدعاء فقال (قتل الانسان ماأكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره)

فقوله تعالى قتل الانسان دعاء عليه باشنع الدعاء وما اكفره تعجب من الافراط فى الكفر واعراض الكافر عن معرفة ربه وعن معرفة نفسه مع وضوح الأدلة وظهور البراهين ولقد دلت الجملة الأولى على استحقاق هؤلاء الكافرين لأشد أنواع العقاب وهو القتل عرفا . ودلت الجملة الثانية على أنهم انصفوا باعظم انواع القبائح والمنكرات شرعا وان ذلك الأسلوب لهو من أبدع الأساليب واعلاها بلاغة فان هاتين الجملتين مع قصرهما وايجازهما قد اشتملتا على نهاية الذم و شدة السخط . ولم يسمع التعبير بمثل ذلك قبل نزول القرآن الكريم . وقوله تعالى من اى شيء خلقه الخ استفهام توبيخ وتحقير لهؤلاء الذين يغفلون عن اوضح الدلائل ويتجاهلون اكبر النعم التى انعم الله بها عليهم فيقابلون ذلك بالكفران اذ كيف يصح للانسان ان يغفل عن مبدأ تكوينه وخلقه فانه لم يكن شيئا مذكورا ثم من الله عليه بنعمة الوجود فقدره فى احوال متعددة واطوار كثيرة فمن نطفة الى علقة الى مضغة الى عظام ثم انه سبحانه كسا تلك العظام لحما ثم انشأه خلقا آخر وبشرا سويا فبرز الى الوجود ضعيفا كل الضعف لا يقوى على شيء ولا يدرك شيئا سوى مافطره الله عليه من إلهام يدرك به الآلام وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فسخر له من يحنو عليه حنوا زائدا ويعطف عليه عطفا شديدا فيرضى لرضائه ويغضب لغضبه ويسر لسروره ويحزن لحزنه لا يضن عليه بتضحية ولا يبخل عليه ببذل يسهر على راحته ويحتمل من أجله المشاق والآلام فلا يستقذر منه فضلة ولا يكره منه عويلا ولا يصرفه عنه أنين ثم يسر الله له سبيل الحياة الدنيوية والأخروية. فبين له الطريق المستقيم التى ينجو من سلكها ويظفر بالسعادة الدائمة . وبين له طريق الفجور والضلال

التى يشقى من سلكها ويكون جزاؤه العذاب الأليم .وميزه بالعقل الذى يدرك به الطريق فيختار ماهو أنفع له ويجتنب ماهو ضار به ثم انه جعل له زاجرا يزجره عن سلوك طريق الغى واتباع الشهوات الفاسدة وهو الموت والفناء فان فيه اكبر عظة لمن يريد أن يتعظ واكبر عبرة لمن يريد ان يعتبر ولله در من قال فى رثاء استاذ له

كفى حزناً بدفنك ثم انى * نفضت تراب قبرك من يديا
وكنت وفى حياتك لى عظات * وأنت اليوم أوعظ منك حياً

وذلك حق لا شبهة فيه لأن عظة الموت بالغة مستمرة تقضى على كل لذات الدنيا وآمالها عند من تتأثر بها نفسه .وتزجر الناس عن ارتكاب الموبقات والجرائم ان كانوا يؤمنون بلقاء الله وعذابه وإنه لواقع ماله من دافع لذلك قال تعالى (ثم اماته فاقبره) ومعنى فاقبره شرع فى دفنه ليتوارى جثمانه تكرمة له واحتراما اياه ثم اذا شاء بعثه وإعادته للحياة الخالدة فى اليوم الموعود بعثه وأحياه وعند ذلك ينال جزاء ما قدمت يداه من خير وشر . فاذا كان الانسان على هذه الحالة ولم يعتبر بها ويتكبر على الله تعالى فلا يؤمن به ويتكبر على خلق الله تعالى ويحتقرهم فهو كالأنعام بل هو اضل سبيلا

مضار العجب

قد علمت ان العجب هو استعظام النعمة مع عدم اضافتها الى المنعم وأنه احد اسباب الكبر وقد بينا لك بعض مضار الكبر ومفاسده الكثيرة الضارة بالمجتمع وبالأفراد . فمن اجل هذا كان العجب مذموما على ان العجب سبب ايضا فى الانصراف عن الحق واهمال كثير من صفات الكمال وهجر التربية الصحيحة لأن المعجب بامر من الأمور لا يحب ان يعلم فيه جهة نقص ولا يطيق أن يعرف عنه ذما فهو مفتتن به دائما فاذا أعجب بعلمه مثلا فانه يقف عند الحد الذى اعجب به لأنه يعتقد فيه الكمال فيستمر جاهلا بكثير من الحقائق العلمية وربما انتهى به العجب الى اعتقاد الخطأ صوابا والصواب خطأ ولا يستطيع احد أن يصرفه عن ذلك أو يقنعه بالحق مهما حاول من وسائل الاقناع واذا أعجب بولده فانه لا يستطيع أن يسمع عنه نقيصة ولا يرضى لأحد أن يدله على موضع ضعف فيه فيذره يتمادى فى شهواته حتى تصبح داء عضالا لا يمكن علاجه واذا اعجب بقوته عند لقاء الخصم فان ذلك قد يسوقه الى الهلاك لانه يتأثر بعجبه فيترك وسائل الدفاع المشروعة ويلقى حتفه جهلا وغرورا . واذا اعجب بماله حمله على الطغيان على خلق الله واذلالهم كما مر فى مبحث المال

فالعجب بهذا المعنى شر على كل حال . وليس من العجب أن يستعظم الانسان نعمة من النعم التى انعمها الله عليه مع اضافتها له سبحانه فانه اذا ادرك ذلك المعنى وتحقق من ان الله هو المنعم الحقيق

أو هو الذى أجرى النعمة على يد عبد من عباده فانه لا يترتب على ذلك اثر من الآثار الضارة بل قد يكون ذلك مطلوبا اذا ترتب عليه شكر المنعم والفرح بنعمته

فان الذى يعرف ان الله هو الذى رزقه نعمة العلم لا يستنكف أن يستزيد منه لان الله تعالى يقول (وفوق كل ذى علم عليم) ومن أيقن أن الله هو الذى منحه العقل الذى يدرك به لا يحجم عن الاصغاء للحق ولا يستكبر عن الانصراف عن الباطل . وكذا من علم أن القوة من الله أو الولد الصالح نعمة من نعمه فانه يدرك أن هذه من الامور التى تعرض لها الزوال فلا يغتر بشىء من المظاهر ولا يأبى أن يستمع للدليل والبرهان وهكذا

ولقد ذم الله العجب فى كتابه العزيز قال تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فقد أنكر الله عليهم إعجابهم بقوتهم حيث قال بعضهم إنا لن نغلب من قلة . وقال تعالى (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فهم قد أعجبوا بقوة تلك الحصون وانصرفوا عن التفكير الصحيح فأفضى ذلك إلى هلاكهم .

وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبرانى وغيره . وقال ﷺ لأبى ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك » رواه أبو داود والترمذى وحسنه

ومعنى قوله — حيث ذكر آخر هذه الأمة — أى حيث تكلم عما تؤول اليه من الحوادث والوقائع فأرشدهم ﷺ الى ماتكون عليه الحالة من السوء بهذه الأمارات وهو أن يكون الشح مطاعا فيكثر بين ضعاف الأنفس غلاظ القلوب لأنها تصبح لكثرة ماتراكم عليها من الذنوب خاضعة لكل صفة من الصفات المرذولة . ومتى أصبح الشح مطاعا فقد تقطعت صلات المودة بين الناس وذهب التراحم وانفرضت مواساة بعضهم بعضا . وذلك شر وبيل كما تقدم فى مبحث الشح . وكذلك اذا اتبع الناس أهواءهم فان الفضيلة عند ذلك تختفى وتحل محلها الرذيلة ويضيع الحق ويقوى الباطل لأن أهواء الناس انما تتبع شهواتهم ولذاتهم سواء أكانت حلالا أم حراما . يقرها العقل أو يأباها . وذلك آية الفوضى وأمارة الفساد .

وأما العجب فقد بينا لك أهم ما يترتب عليه من المضار . فاذا وجدت هذه الأمور الثلاثة فالعاقل من يشتغل بنفسه ويبتعد عن هذه البيئة الفاسدة لأن علاجها غير مجد وإرشادها لا يفيد .

الغرور

هو سكون النفس الى مايوافق الهوى ويميل اليه الطبع لشبهة فاسدة . فسبب الغرور فى الواقع هو حب الشهوات والميل مع الاهواء والأغراض إلا أن المغرور يبرر إطاعة شهوته بدليل يقنع به نفسه ويسكنها الى عمله ولما كان الحق واضحا فى كل آن . وكان الضار والنافع بينا عند العقل كان دليل المغرورين شبهة فاسدة دائما لاتحتاج فى بطلانها إلالمجرد لفت وتنبيه . ولقد يعجب العقلاء من شبه المغرورين وأمانيهم كما ستعلم من الامثلة التى سنوردها عليك . ويضحكون منها . هذا ومناسبة الغرور للكبر والعجب ظاهرة لأن كلا منهما يفضى الى الاعراض عن الحق والميل مع الاغراض والشهوات الا أن الكبر هوالعظمة الناشئة من اعتقاد الرفعة على الغير . والعجب هو استعظام النعمة واعتقاد أنه أهل لها فى ذاته مع جحد فضل المنعم وانكار أنها منه. والغرور هو الميل الى مايشتهى لشبهة فاسدة وكل من هذه الصفات الثلاث مذموم مرذول لما يترتب عليه من الاعراض عن الحق والميل مع الهوى

اقسام الغرور

ينقسم الغرور الى اقسام

اولا : الغرور بالعلم كأن يتعلم المرء علوما كثيرة تتعلق بالدين والدنيا فيعتقد أنه قد أصبح عند الله بمكانة عظيمة ومنزلة كبيرة لأن تعلم العلم فضيلة لايعذب الله معها العلماء فتسكن نفسه الى ذلك ويهمل العمل الذى يقتضيه العلم ويفعل ما تصبو اليه نفسه من اللذات . فسكون نفسه الى ما يلائم طبعه من ترك العمل واتباع الشهوات لشبهة أن العلم فضيلة فى ذاته وهو كاف فى النجاة غرور شديد وجهل عظيم بالواقع . لأن العلم لم يمدح الا لما يترتب عليه من صلاح المجتمع ومنافع الانسان اما مجرد الحصول على المعلومات بدون تلك الفائدة فانه يضر أكثر مما ينفع خصوصا اذا كان العالم قدوة للناس فانه يكون شرا ووبالا عليهم كما علمت مما مضى . ذلك لان الناس يكونون معه على حالتين احداهما اعتقاد أن ما يفعله العالم يقره الشرع ويرضاه الدين وهذا لحسن ظنهم بعلمائهم ونزاهة عقيدتهم فيهم . وذلك فتنة فى الارض وفساد كبير لانه يكون سببا فى اغواء الناس واضلالهم حتى جعلهم يعتقدون أن الحرام حلال وأن الباطل حق . ثانيهما اعتقاد أن الذى يفعله لا يرضاه الشرع ولكن ما دام العالم قد أقدم عليه وفعله فلغيره المعذرة اذا فعل . أو لعل العالم يعلم أن فى الامر رخصة فلم يكن الذنب شديدا وبذا يسهل على الناس ارتكاب الجرائم اقتداء بذلك العالم

وقد ورد فى السنة الكريمة احاديث كثيرة فى زجر بعض العلماء الذين لا يعملون . فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أسامة بن زيد رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق اقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه فتجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما شأنك ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه » . قال وانى سمعته يقول . يعنى النبى ﷺ «مررت ليلة أسرى بى باقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون » ومعنى — تندلق أقتابه تخرج أمعاؤه — . وكفى بهذا الحديث زجراً لعلماء السوء الذين يقولون مالا يفعلون ويأمرون ولا يأتمرون . كفى به موعظة تدمى القلوب وتذيب الاكباد وتقرح الجفون . كفى به نهيا لمن اغتر بعلمه فاهمل ما يجب عليه لمولاه ورضى لنفسه أن تكون اسيرة الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة . كفى به تذيرا للعلماء الذين خرجوا عن طاعة الله وتعدوا حدوده غرورا بالعلم وهم أحق الناس بتمحيص الادلة وأقدرهم على معرفة الصحيح والفاسد منها . الا ان العلم لا ينفع بدون عمل فاذا ما أهمل العمل به كان شرا على صاحبه وعلى عباد الله تعالى ومن أجل ذلك استعاذ منه نبينا عليه الصلاة والسلام حيث قال «اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أناسا من اهل الجنة يطلقون الى أناس من أهل النار فيقولون لهم دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة الا بما تعلمنا منكم فيقولون انا كنا نقول ولا نفعل » رواه الطبرانى فى الكبير

فماذا يكون حال ذلك العالم اذ ذاك . أليس فى ذلك من الخزى والعار والفضيحة ما يكفى فى العذاب حتى ولو لم تكن نار ولا سعير . أليس فى هذا دلالة على أن هؤلاء الذين لم يطلعوا على سيئاته فلم يقلدوه فيها ودخلوا الجنة بما تعلموه منه من فضائل الدين لو أنهم اطلعوا على تلك السيآت فقلدوه فيها كانت حالتهم على العكس من ذلك وكان هو معهم كمن أخبرنا الله عنهم بقوله (وقالوا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)

فاللائق بالعلماء أن يذكروا ذلك جيداً وأن يحاربوا أنفسهم وشهواتهم محاربة شديدة فان الله تعالى قد من عليهم بنعمة العلم الذى هو أحسن صفات الانسان وأجلها قدرا كما تقدم فى أول الكتاب وليذكروا دائما أن منزلتهم عند الله عظيمة وأنهم أحق الناس بخشيته والقرب منه فقد قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما يخشى الله من عباده العلماء » رواه الطبرانى فى الكبير . وقال عليه الصلاة والسلام « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » رواه الترمذى وغيره وقال حديث حسن. وكفى بذلك مدحا للعلم والعلماء الذين يخشون ربهم ويقدرونه حق قدره فلا يبالون بأعراض الدنيا ولا يحفلون بلذاتها المحرمة وشهواتها الفاسدة اذ هم أحق الناس بذلك وأقدرهم على زجر أنفسهم وتأديبها . وعلى الناس أن يجلوا علماءهم ويعرفوا لهم قدرهم ولا يحل لهم أن يستهينوا بدينهم اقتداء بعالم مغرور فان الحلال بين والحرام بين والناس جميعا مسئولون امام الله تعالى فمن استهان بكبيرة

اقتداء بعالم لم يغن عنه ذلك شيئاً بل لابد أن يعذبه الله عليها عذابا أليما . فعلى الناس أن يعملوا بما يسمعون من العلماء وليس لهم أن يقلدوهم فى اعمالهم التى تخالف أقوالهم فى الدين فلقد سمعت من الحديث السابق أن أناسا دخلوا الجنة بما تعلموه من عالم دخل النار . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انى أخاف على أمتى أن يروا ذا علم فيضيعونه ولا يبالون عليه » من حديث رواه الطبرانى فى الكبير . وقال عليه الصلاة والسلام « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه » رواه الطبرانى فى الأوسط

والله المسئول أن يصلح من أنفس المغرورين ويهديهم الى اتباع الحق ونبذ الباطل ويوفق الناس الى التأدب بآداب الدين إنه سميع مجيب

ثانيا : الغرور بالعبادة فان بعض العباد قد يغتر ببعض أعماله فيعتقد أنها كافية فى نجاته وانه لاحرج عليه اذا ارتكب بعض الموبقات كالحسد والحقد والغيبة والاضرار بالناس وما الى ذلك فتسكن نفسه الى ما يهواه من الاتصاف بهذه الصفات لتلك الشبهة الفاسدة وهى أن ما يأتى به من صلاة وصيام وتلاوة أوراد وأدعية كاف فى نجاته ومكفر لتلك الجنايات . وهذا مغرور أثيم قد زين له الشيطان الشبهة الفاسدة ليورده موارد الهلاك والخسران وربما حبط لذلك عمله من حيث لايدرى لأنه قد يسوقه ذلك الى انه يأتى ببعض أنواع العبادة فى نظير ارتكاب ما يحلو له من اللذات والشهوات كى تكفرها وتذهب باثمها فلم يكن مخلصا لله تعالى فى عمل اذ لولا ذلك لقعد عن العمل رأسا وهذا محبط للعمل مضيع لثمرته . ومن يفعل ذلك فهو جاهل بالدين وأحكامه فلقد بين الدين ذلك بيانا شافيا قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)

وقال عليه الصلاة والسلام « الناس مجزيون باعمالهم ان خير فخير وان شر فشر » فمن أدى واجبا من الواجبات الدينية على وجه صحيح خال عن الاغراض الفاسدة فانه ينال جزاءه خيرا ومن قصر فى أداء واجب أو أداه لغرض فاسد أو ارتكب أمرا نهاه الله عنه فانه ينال عليه عقابا ولا علاقة لكل واحد بصاحبه فهذا يعاقب عليه وذاك يثاب عليه . وهذا هو العدل الكامل الذى يرضاه العقل وتستريح له النفس فليس من العدل أن من يرتكب جريمة يخلد بها فى النار ويضيع عليه كل ما فعله من حسنات - كما يقول بعض الناظرين - كما أنه ليس من العدل أن يعتدى المرء على حقوق العباد أو يهمل بعض حقوق الله فى نظير أن يصلى كثيراً أو يصوم كثيراً أو يقرأ كثيراً - ذلك هو الدين الصحيح والحق الصريح وما عداه فهو جدل ومراء . والآية تدل بعمومها على أن الكافر الذى يعمل الحسنات يثاب عليها وهو يعارض قوله تعالى (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقوله تعالى (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية . فهذه الآيات صريحة فى أن اعمال الكفار لا يثابون عليها وقد أجيب عن ذلك بجوابين . أحدهما ان الله تعالى يجزيهم بتخفيف العذاب عنهم ويعارض هذا قوله تعالى (فلا يخفف عنهم العذاب) وقوله تعالى (زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) والجواب ان الذين لايخفف عنهم العذاب والذين يضاعف لهم العذاب هم الذين لايعملون الصالحات ولا يؤدون ماهم مكلفون به من الواجبات وقوله تعالى (وقدمنا

الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)معناه أنه لا يفيدهم فى محو الخلود عنهم ولا ينجيهم من عذاب الكفر . أما التخفيف فقد ثبت بالسنة الصحيحة فقد ورد أن أبا لهب يخفف الله عنه العذاب لسروره بولادة النبى صلى الله عليه وسلم وعتقه لجاريته ثويبة حين بشرته بذلك .

ثانيهما .أن الله يجزيهم على الأعمال الصالحة فى الدنيا . فالمؤمن يرى جزاء عمله فى الدنيا والآخرة والكافر يراه فى الدنيا فقط . وقد ورد مايدل لذلك فى السنة . وكما أن الآية تدل على أن الكافر يجزى على حسناته خيراً كذلك تدل على أن المؤمنين يعاقبون على الصغائر لأن مثقال الذرة يتناول الصغيرة حتما مع أن الصغائر تكفرها الصلاة واجتناب الكبائر كماسيأتى قريبا . والجواب أن الصغائر يجزى عليها فاعلها شراً اذا لم تكفر . وقد استثناها الله تعالى بقوله (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) وبقوله(إن الحسنات يذهبن السيآت) فهى خارجة من العموم بذلك. على أنه يصح أن يقال إن أعمال الكافر الحسنة خارجة من العموم بالآيات الأخرى وبقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن)فدل ذلك على أن من يعمل مثقال ذرة من الخير يرى ثوابه فى الآخرة إن كان مؤمنا لاكافرا ولكن إذا كان الجمع بين الآيات ممكنا بالتأويل القريب الذى لاتكلف فيه وكان فى السنة الصحيحة مايقتضى ذلك كان من الحسن أن يرجع الى التأويل خصوصا إذا كان العقل يؤيده فان الله سبحانه لايضيع أجر من أحسن عملا ولا يظلم أحدا شيئا . فالأعمال الصالحة الصادرة من الكفار يجزون عليها خيراً فى الدنيا ويخفف عنهم بها فى الآخرة وقد اتفق العلماء على أنهم مكلفون بالمعاملات والجنايات وإن اختلفوا فى تكليفهم بغيرها . ولا معنى لتكليفهم إلا عقاب من تركها وثواب من عمل بها والثواب هو تخفيف العذاب عنهم والعقاب هو زيادة العذاب . فأما التخفيف فيدل له ماتقدم من الأحاديث الصحيحة . وأما الزيادة فيدل لها قوله تعالى (زدناهم عذابا)

فاذا فهمت ذلك على وجهه الصحيح وعلمت أن لكل عمل جزاء . كان من الغرور ان يعمل الانسان عملا ليستغنى به عن غيره . نعم قد ورد فى الصحيح أن بعض العبادة كالصلاة والصوم والصدقة تكفر الذنوب ولكن التحقيق على أنها تكفر الصغائر . أما الكبائر فانها لاتكفر إلا بالتوبة . والتوبة بالنسبة لحقوق العباد هى التحلل من المظالم بأن يرد اليهم حقوقهم التى اعتدى عليهم فيها أو يسامحونه وسيأتى بيان ذلك فى مبحث التوبة فى الجزء الثانى ان شاء الله

يدل لذلك مارواه مسلم من رواية أبى العلاء « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر » وقد فسر هذا الحديث على وجهين . أحدهما أن الصلاة تكفر الذنوب الصغائر التى تقع فى المدة التى بينها وبين الصلاة الثانية وهكذا . ولا تكفر الذنوب الكبائر وهذا لا اعتراض عليه الا أنه خلاف الظاهر من الحديث لأنه ظاهر فى أن اجتناب الكبائر شرط فى التكفير .

ثانيهما حمل الحديث على هذا الظاهر وهو أن اجتناب الكبائر شرط فى كون الصلاة مكفرة . وهذا يرد عليه أن اجتناب الكبائر وحده يكفر الصغائر كما يدل عليه قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم) فماذا يكفر بالصلاة بعد هذا . وأجيب بأنه لامانع من أن يكون للذنب الواحد مكفران فأكثر . فان وقعت مترتبة كان التكفير بالسابق منها . وان وقعت

دفعة واحدة فالله يكفر بما يشاء منها ويزيد للعبد فى ثواب مافيها بمقدار ما يكفر من الصغائر لو وقعت .

فعلى هذا من اجتنب الكبائر وصلى أمن شر الصغائر بالسببين . أما اذا فعل أحدهما فانه لا يكفيه فى تكفيرها لأنه اذا صلى مع ارتكاب الكبائر فصلاته لاتكفر الصغائر لاخلاله بالشرط . وان اجتنبت الكبائر ولم يصل لم يكن مجتنبا للكبائر لأن ترك الصلاة من أكبر الكبائر . وهل اجتناب الكبائر كاف فى تكفير الذنوب الصغائر من غير توبة أولا خلاف . والظاهر أنها كافية بدون توبة لأن التوبة تكفر الكبائر والصغائر بلا نزاع فما معنى كون الصلاة أو اجتناب الكبائر مكفر بعد هذا

وقد استدل من يقول بأن التوبة شرط بما روى معناه البخارى من أن رجلا من المسلمين كان فى السوق فرأى امرأة تبتاع تمراً فنظر اليها فأعجبته فقال لها ان عندى فى دارى تمرا جيداً بثمن بخس فخدعت المرأة بقوله وذهبت معه فلما اختلى بها أهوى الى فمها فقبلها ثم تنبه الى خطورة الحالة وأدرك عظم الجريمة فخرج فارّا من المنزل وهو وجل من عقاب الله تعالى لايهنأ له عيش ولا يطيب له نوم وكذلك كان أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام فان خشية الله تعالى كانت ملء قلوبهم . فمن غلبت عليه شهوة تضيق الدنيا فى وجهه ولا يرضى حتى ينال جزاءها فى دار الدنيا . فذهب الرجل الى أبى بكر فقص عليه القصص فأمره أن يتوب ويستغفر ولا يخبر النبى ﷺ بخبره فلم تسكن نفسه لذلك وذهب الى عمر فأخبره الخبر فقال له مثل ماقال أبو بكر فلم تطب نفسه فذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم وقص عليه الأمر فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أهكذا تخلف غازيا — فى سبيل الله — فى أهله وقد كان زوج هذه المرأة من الغزاة فتمنى الرجل عند سماع هذه الكلمة أنه يكون من المعذبين فى النار ولا يزل هذه الزلة فنزل قول الله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت) فقال الرجل أهذا خاص بى أو هو عام لى ولغيرى من المسلمين فقال له النبى ﷺ بل هو عام لجميع المسلمين .

فلا شك فى أن الرجل قد ندم أشد الندم وتاب توبة نصوحا . وهكذا كل من أقدم على عمل كبيرة وباشر مقدماتها ثم خاف الله تعالى وكف عنها فان الله يغفر له ماعمله من المقدمات . فمن عزم على اتيان امرأة وقبلها أو لمسها ثم أدرك عظم الجريمة فكف عنها خوفا من الله تعالى كان ذلك حسنة تمحو مافعله من القبلة واللمس أما اذا كف رغم أنفه أو لعجزه عن اتيانها فان هذا لا يكفر كما تقدم فيما يعفى عنه من وساوس النفس وسيأتى له بقية فى مبحث التوبة .

هذا ما احتج به القائلون باشتراط التوبة فى تكفير الصغائر وهو لاينتج لأنه لايلزم من أن ذلك الصحابى قد ندم ندما شديدا على مافرط منه ظنا منه أنه قد جنى جناية عظيمة أن يكون ذلك شرطا فى كل من يرتكب صغيرة بدليل آية (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) وحديث مسلم السابق فانهما صريحان فى أن الصلاة تكفر الصغيرة وأن اجتناب الكبائر يكفرها ولم يرد للتوبة ذكر فيهما .

ومعنى قوله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار) أى أد الصلاة المفروضة فى وقتها . وطرفا النهار

صلاة الصبح وصلاة العصر وقوله تعالى (وزلفا من الليل) معناه وطائفة من الليل وهى المغرب والعشاء لأن الزلف جمع زلفة - بضم الزاى - وهى جزء من الليل . وقيل الزلف الساعات جمع زلفة وهى الساعة . ولا ريب أن فى ذلك حثا على أداء جميع الصلوات المكتوبة فى أوقاتها . فمن صلى الصبح والعصر والمغرب والعشاء فى أوقاتها فان يفوته بعد ذلك صلاة الظهر فلا حاجة لتكلف بجعل طرفى النهار يشمل صلاة الظهر أيضا . يعنى الصبح والظهر والعصر . لأن الظهر وسط النهار لاطرفه

ومن الغرور بالعبادة مايفعله بعض الجهلة من اظهار العناية بحضور مجالس الذكر وقراءة الأوراد والصلوات ونحو ذلك . وفى الوقت نفسه يهملون حضور مجالس العلم مع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « طالب العلم فريضة على كل مسلم » من حديث رواه ابن ماجه وغيره فهم يتركون الفرض الذى يعاقبون على تركه ويحرصون على مالم يكلفوا به ولو بحثت حقيقة نفوسهم لوجدتهم انما يحفلون بما يشتهون من رقص وطرب ونحو ذلك . فهم انما يفعلون ماتسكن اليه أنفسهم ولا يعدمون شبهة يبررون بها عملهم وهى أنهم انما يحضرون مجالس الخير والعبادة فلهم على ذلك أجر ولو أنهم كانوا يحرصون حقيقة على الأجر والثواب ويرغبون فى مرضاة رب العالمين لفعلوا مايفترض عليهم من طلب العلم الذى كان أسلافهم يرحلون فى طلبه الى أقصى الجهات ويتحملون مشاق الأسفار وألم الحر والبرد . ولكنهم يتعمدون هجر مجالس العلم التى أصبحت قائمة فى كل مسجد وفى كل بلد ثم هم يسرعون الى حضور الذكر ويظنون أنهم بذلك يعبدون الله . أليس عجيبا أن يقع هذا من المسلمين . أليس عجيبا أن تدخل المسجد فترى المدرس جالسا وحده فلا يجد واحدا يرغب فى تعلم مايجب عليه من دينه ويرضى لنفسه أن يستمر جاهلا . فاذا ماوجدوا هينمة أو ضجة طاروا لها فرحا . أليس عجيبا أن يجدوا من يحرص على تهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم ثم يفرون منه فرار السليم من الأجرب . ألم يسمعوا قول النبى ﷺ « مامن خارج خرج من بيته فى طلب العلم الا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع » رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه والحاكم . وقوله عليه الصلاة والسلام « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذى وقال حديث حسن . وقوله عليه الصلاة والسلام « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » من حديث صحيح رواه مسلم وغيره

فهل لهؤلاء المغرورين معذرة بعد هذا . هل لهم أن يعللوا أنفسهم بالأمانى الفارغة بعد ماظهر لهم من البراهين القاطعة والأدلة الواضحة . فهذا هو قول نبينا عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الأمين وهذه هى تعاليمه الرشيدة تأمر الناس بتعلم العلم وتحثهم على الخروج من أسر الجهل . فانه عيب فاضح وشر لايرضاه لنفسه الا أخس الخلق وأحقرهم الذى هو أقرب شبها الى الحيوان الأعجم منه الى الانسان . فاذا لم يكن فى تعلم العلم سوى الخروج من عار الجهل لكفى به فائدة تبذل من أجلها الأموال وتضحى فى سبيلها الراحة . فما ظنك اذا اقترن بتلك الفائدة ذلك الأجر العظيم

والثواب الجزيل الذى أعده الله لطالب العلم . أليس فى ذلك مايبعث هؤلاء الذين قست قلوبهم وعميت بصائرهم الى ترك الأوهام الفارغة والتمسك بالوسائل النافعة التى تفضى بهم الى سعادة الدنيا والآخرة . هل لهم أن يعصوا شهواتهم وشياطينهم ويطيعوا الله ورسوله فيسمعوا ويعملوا مافيه خيرهم وفلاحهم .

اللهم انا نسألك أن توفق عبادك الى مافيه رشدهم وصلاحهم انك سميع الدعاء

ثالثا : الغرور بانفاق المال كأن ينفق جزء منه فى بعض أعمال البر التى يميل اليها طبعه وتشتهيها نفسه ويمسك عن الأعمال الواجبة عليه دينا وعقلا كما اذا كان يشتهى بناء مسجد أو معهد أو مصح يخلد له ذكراه ويحفظ له اسمه ويزيد فى احترامه بين الناس . وفى الوقت نفسه يترك زكاة ماله المفروضة عليه أو يقصر فى الانفاق على أهله ويهمل صلة رحمه او يجد اليتامى والمساكين من جيرانه وقبيلته يتضورون جوعا فلا يعطف عليهم بما يسد رمقهم . ولا ريب فى أن هذا مغرور لأنه فعل ماتسكن له نفسه ويميل اليه طبعه لشبهة فاسدة . وهو أن مافعله بر وخير يغنيه عن باقى الواجبات ويكفى لنجاته عند الله تعالى مع أنه لم يفعل فى الحقيقة الا مايرضى شهوته من أمر لم يكلف به وضحى الواجب عليه الذى لابد أن يسأل عنه يوم تبلى السرائر . ولقد قدنا لك فيما تقدم ان التكاليف الشرعية لايغنى بعضها عن بعض . ولا يكفر بعضها بعضا الا مانص عليه الشارع من ذلك . فانفاق المال له جهات أمر الشارع بانفاقه فيها كزكاة المال والنفقة على الزوج والولد والأهل وكالكفارات التى قدرها الشارع فى باب الصيام والأيمان والنذور ونحو ذلك على أن يكون انفاقه طبقا للنظم المبينة فى الفقه الاسلامى أحسن بيان فاذا تعدى تلك النظم كأن أنفق المال فى غير حقه فانه لايرفع عنه شيئا من المسئولية عند الله تعالى

فمن بنى مصحا أو شيد مسجدا أو معهدا من مال حلال ولم يظلم فى ذلك أحدا من عباد الله . فقد فعل خيرا كثيرا يؤجر عليه بنسبة فائدته للمجتمع الانسانى أو لجماعة من عباد الله . ولكن هذا لايرفع عنه عقوبة ظلم الناس فى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ولا يكفر عنه شيئا منها كما لايرفع عنه شيئا من حقوقهم المتعلقة بزكاة المال أو الانفاق من المفروض عليه لهم . وانما يرفع حقوق الله تعالى وحقوق عباده التوبة والندم . والتوبة بالنسبة للعباد هى رد حقوقهم اليهم او استسماحهم فيها . وبالنسبة لله تعالى الكف عن الجريمة والعزم على عدم العودة اليها فهذه هى طريق النجاة الصحيحة التى بينها الله فى كتابه الكريم . وشرحتها لنا السنة شرحا وافيا فى غير موضع . فلا يصح بعد ذلك أن يجهل الناس سبيل الصواب أو يتجاهلوها مرضاة لشهواتهم ثم يتشبثون بالدين ويقولون إنهم يعملون الخير الذى يدوم ثوابه فيكفر لهم مافرطوا من الحقوق والواجبات . فالواجب على من يريد أن يرضى الله حقا أن لايطيع شهوته وهواه بل يفعل ماأمره الله به فيؤدى ماعليه من فرائض وواجبات ويجتنب مانهاه الله عنه فلا يظلم أحدا شيئا فان كان ذا مال أخرج زكاته وأنفق على أهله وأقاربه بما يناسب حالهم وأدى فريضة الحج ونحو ذلك مما هو مفروض عليه ثم بعد ذلك يفعل من أعمال البر مايستطيعه على أن يقدم الأنفع فالأنفع للناس سواء رضيت نفسه أو سخطت لأن من يرى

اليتامى تتقاذفهم المحن ويرى البؤساء تحل بهم المصائب . فيضن عليهم بما يساعدهم على القوت الضرورى ويبخل عليهم باليسير من ماله . ثم يبنى بعد ذلك مسجدا يفخر به أو يحج حجا غير مفروض عليه ليقال إنه كثير الحج فهو مغرور لاثواب له على عمله لأنه انما يعمل ليرضى شهوته لاليرضى ربه . ولو أراد مرضاة ربه حقاً لأنفق ذلك المال على اليتامى ليربيهم تربية صالحة كى لايكونوا أعضاء فاسدة تؤذى الجماعة وتضر الناس . لو أراد مرضاة ربه حقاً لاحسن إلى الارامل والمساكين الذين قلب لهم الدهر ظهر المجن فلم يجدوا قلبا رحيما يحنو عليهم ولم يظفروا بالضرورى من القوت فى معظم الاوقات . لو أراد مرضاة ربه حقا لم يترك لاحد عليه حقا من الحقوق ومن كان له فى عنقه مظلمة تحال منه بذلك المال حتى تبرأ ذمته ويلقى الله آمناً مطمئناً . لو أراد مرضاة ربه حقاً لعمل بقوله (اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) فوصل رحمه وأنفق عليهم من ذلك المال ماهم اليه محتاجون .

هذه هى قوانين المال الشرعية التى من حاد عنها فقد ضل سواء السبيل ومن تمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

رابعا . الغرور بالأمانى الكاذبة والآمال الفارغة كغرور المنافقين بأمانيهم التى من جملتها الطمع فى ضعف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وانخذالهم وتلاشيهم . فكانوا يظهرون أنهم مع المؤمنين مجاراة للحالة الحاضرة التى يرونهم عليها من القوة ولكنهم يقعدون عن نصرتهم ومحاربة عدوهم تبعا لما تميل اليه طباعهم وتسكن اليه أنفسهم من بغضهم وعداوتهم ويعللون عملهم هذا بالأمانى الفارغة وهى أن المسلمين يخذلون ويقضى عليهم أو أنهم إذا انتصروا فان الرسول يعفو ونحو ذلك من الشبه الفاسدة التى لاترتكز إلى حقيقة ثابتة أو برهان واضح .

لهذا قال الله تعالى لهم (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) . فتنتم أنفسكم أهلكتموها بالنفاق . تربصتم انتظرتم الدوائر التى تحيق بالمسلمين فتقضى عليهم . ارتبتم شككتم فى أمور الدين حتى جاء أمر الله — الموت — والغرور الشيطان . وهذا خطاب للمنافقين المذكورين فى الآية التى قبل هذه بقوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) الخ

خامساً :الغرور بالدنيا وزينتها والانصراف عن الآخرة وشر مايترتب على هذا الكفر بالله تعالى وعصيانه كما فعل المشركون وعصاة المؤمنين . فأما الكافرون فقد قالوا إن لذات الدنيا محققة والحصول عليها مضمون وها نحن أولاء نتمتع بها فعلا . أما الآخرة فهى مشكوك فيها ولذاتها غير محققة فكيف نترك المحقق المضمون للمشكوك فيه وكيف نبيع العاجل المحقق بالآجل المشكوك فسكنت أنفسهم لما يوافق طبعهم ويلائم أهواءهم بناء على تلك الشبهة الفاسدة وكفروا بالله تعالى وكذبوا رسله . ولا ريب فى أن هؤلاء كالأنعام بل هم أضل سبيلا لأن الذى يصرف النظر عن الدلائل الصحيحة ويرتكز على الشبه الضعيفة فى أحرج المواطن وأدق المواقف التى يترتب عليها

شقاء المرء وسعادته دائما لهو من أكبر المغرورين وأشد الجاهلين ولو أنصف نفسه لعلم أن زينة الدنيا زائلة مهما طال أمدها وأن الانسان لابد أن يفنى مهما امتد أجله وذلك لايستطيع إنكاره أحد لأنه مشاهد محس . وليس من المعقول أن يخلق الله الانسان ويمنحه العقل والعلم ثم يجعله تراباً من غير أن يكون ذلك وسيلة لاعادته فى شكل أكمل وإيجاده على نظام أتم . وإلا كان مثله كمثل من يبنى قصراً بديع الصنع متين البناء ثم يأمر بهدمه وتركه خرابا عبثا بدون أن يتعلق له بهذا غرض كاعادته على صورة أجمل وفى حالة أكمل ومن يفعل ذلك فهو ناقص العقل يسخر منه كل من يعلم عنه هذا . فهل يليق بالاله الذى ليس كمثله شيء أن يخلق الانسان فى أحسن تقويم كما قال هو سبحانه . ويمن عليه بالعقل والعلم الذى هو من صفات الألوهية ثم يميته ويتركه تراباً بدون أن يعيده على حالة غير قابلة للفناء . لاريب فى أن ذلك محال لايرضاه لنفسه إلا الحيوان الذى لاعقل له ولا علم عنده . ومن تأمل فى أنواع المخلوقات فانه يجد كل نوع منها يرتقى بطبيعته إلى ماهو أعلا منه . فالجماد يرقى إلى نبات . والنبات يأكله الحيوان فيصبح جزءاً منه ويصير حيوانا . والحيوان يأكله الانسان ويصير جزءاً منه وهكذا . فهل يحرم الانسان من الرقى وهو أفضل الأنواع . لاشك فى أن فناء الانسان لامعنى له إلا الاستعداد لتكوين آخر فيعيده الله تعالى كاملا مستعداً للبقاء الدائم والخلود المستمر . بذلك أخبرت الرسل الذين برهنوا على أنهم من عند الله تعالى بالبراهين القاطعة . ومن يؤمن بالله فانه يكون جاهلا كل الجهل إذا أنكر اليوم الآخر لأنه لايعقل أن يكون لأحد الملوك رعية ثم يتركهم يعتدى بعضهم على أعراض بعض وأموالهم وأنفسهم بدون أن يأمرهم وينهاهم ويجزى المحسن على إحسانه والمسىء باساءته . ومن ينكر الاله فهو شر من الدواب الصم البكم الذين لايعقلون لأن لله فى كل شىء آية تدل على وجوده ووحدانيته كما سيأتى كل ذلك موضحا فى الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله

فهؤلاء المغرورين الذين اطمأنوا للحياة الدنيا ورضوا بها وكفروا بربهم ولم ينظروا إلى أنفسهم ولم يتفكروا فى خلق السموات والأرض واستندوا إلى تلك الشبهة الضعيفة الفاسدة سيعلمون أنهم خسروا خسراناً مبيناً وأنهم سيعذبون عذاباً خالداً مستمراً تلقاء نعيم زائل فان لم يكن بجانب العذاب شيئا مذكوراً

ومثل الكافرين فى الغرور بالدنيا ولذاتها عصاة المؤمنين الذين هجروا الأعمال الصالحة وارتكبوا الجرائم والموبقات بدون أن يحسبوا للآخرة حساباً . وهؤلاء قد آثروا الفانى على الباقى وسكنت أنفسهم إلى ماتميل اليه طباعهم الفاسدة من التمتع باللذات المحرمة والشهوات المهلكة والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم ودمائهم . وإذا قيل لأحدهم إن عملك هذا ستجزى عليه أشد الجزاء فى يوم يجعل الولدان شيباً أعرض ونأى بجانبه وربما سخر ممن يقول له ذلك معللا نفسه ببعد ذلك اليوم وأنه كيف يترك الحاضر اللذيذ من أجل الغائب البعيد . فهو كالكافر فى هذا تماما إلا أنه لايخلد فى النار إن مات وهو مؤمن . وكفى به ذماً أنه مشارك للكافرين فى الاعراض عن الآخرة . وكفى به زجراً أنه سيعذب على ما كسبت يداه عذابا شديداً وسيقتص منه رب العزة على ماانتهك من محارم وارتكب من مظالم . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون

سادساً . الغرور بالله تعالى من الكافرين وعصاة المؤمنين . فأما الكافرون فيقولون لو كان هناك ميعاد كما يقول الرسل لكانوا أحق بثمراته من غيرهم وأوفر منهم حظاً فيه . لأنهم عظماء فى ذاتهم وأهل للنعم بدليل أن الله قد أنعم عليهم فى الدنيا . فاذا كانت هناك آخرة لم تسلب تلك النعم عنهم . وقد ذكر الله ذلك عنهم فى كتابه العزيز قال تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) الى قوله (فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً) ومعنى هذا أن أخوين فى بنى إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فكان المؤمن ينصح للكافر ويحذره من الغرور بالدنيا ويخوفه بطش ربه والكافر لايسمع لنصيحته ويقول له على فرض وجود معاد فانه يكون لى فيه أوفر نصيب . فأظفر بخير من النعيم الذى أنا فيه فلما أهلك الله حديقتيه ندم على ماأنفقه عليهما من مال وعرف أنه كان مغروراً وأن النعم لاتعطى لمن يعتقد فى نفسه العظمة فى الدنيا فضلا عن الآخرة .

ومن ذلك ماوقع من العاص بن وائل القرشى أحد المتعنتين المنكرين للحشر مع خباب بن الأرت رضى الله عنه قال خباب كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال والله لاأقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث قال فانى إذا مت ثم بعثت جئتنى وثم مال وولد فأعطيك . فأنزل الله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) إلى قوله (ويأتينا فردا) رواه البخارى وملم وغيرهما ـ القين الحداد ـ وثم مال ـ هناك ـ

فالعاص بن وائل ظن أنه عظيم فى ذاته وأنه أهل للنعيم فى كل آن ومكان فعلى فرض وجود بعث فانه سيكون له هناك أوفر حظ وأكبر نعمة وليس وراء هذا من غرور لأن الذى يصرف النظر عن الدلائل الصحيحة ويرتكز على الشبه الضعيفة فى هذه المواطن ـ كما ذكرنا آنفاً ـ لهو من أكبر المغرورين وأشدهم ضلالا وخطأ . ولهذا رد الله عليه بقوله (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا) فانه لايجرأ على هذا القول إلا من استوثق كل الثقة وتأكد كل التأكد . إما بالاطلاع والمشاهدة . وإما بأخذ العهد والميثاق وإلا فهو جاهل أحمق مغرور .

ولقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله (ولقد فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) فهؤلاء المغرورون قد نظروا إلى ضعف المؤمنين وفقرهم فاحتقروهم ولم يصدقوا أن الله تعالى يختارهم من بينهم ويفضلهم عليهم . وقال تعالى حكاية عنهم (لو كان خيراً ماسبقونا اليه) فهم يعتقدون أن لهم المكانة الرفيعة على أى حال . وأحق بالسعادة حيثما وجدت . وذلك جهل فاضح وغفلة عظيمة عن سنن الله تعالى فى خلقه . فانهم لو تأملوا قليلا لعلموا أن العزة فى الدنيا تأتى وتزول . وكذلك الغنى والفقر والقوة والضعف والسعادة والشقاء . ونحو ذلك فانها كلها تتداول بين الناس فلا يدوم أحد على حال . ولقد جعل الله لكل شئ سبباً فمن تمسك به ظفر بمسببه وإلا فقد حاول المحال . وإذا كانت الحالة هكذا فى الدنيا فكيف يطمعون أن يثبتوا على منزلتهم فى الآخرة مع الكفر بالله وعصيانه وترك الوسائل التى أمرهم بالتمسك بها . ألا إن ذلك لهو الخسران المبين

وأما عصاة المؤمنين فانهم يرتكبون الجرائم والموبقات ويقولون إن الله كريم وإنا نرجو عفوه ولا ريب فى أن الله كريم حقاً وأن كل خلقه يرجون رحمته . ولكن ذلك الكريم قد أرسل لنا رسلا وأنزل عليهم كتبا تشتمل على أوامر ونواهى وعظات وأمثال وبين لنا طريق السعادة وطريق الشقاء ولم يترك شيئا من الفضائل التى تليق بالانسان إلا حث عليه وأمر بالتمسك به ولم يذر شيئا من الرذائل الضارة إلا نهى عنه ونعى عليه . وقال لنا على لسان هؤلاء الرسل إن عملتم بما أمرتم به واجتنبتم مانهيتم عنه وسلكتم سبيل السعادة وتنكبتم طريق الشقاء منحتكم رضوانى وأحللتكم محلا لاتشقون فيه أبداً فأدخلتكم جنات النعيم وأعطيتكم مالا عين رأت ولا أذن سمعت . وإن أنتم خالفتم أمرى ونهيى واتبعتم أهواءكم غضبت عليكم . وإن غضبى لشديد وعقابى لأليم . فمن غضبت عليه أحللته محلا دائم الشقاء وعذبته بنار حامية وقودها الناس والحجارة

ولا ريب فى أن قول الله صدق لايتخلف أبداً . وإن كان هو سبحانه صاحب السلطان المطلق والارادة الكاملة فان شاء أن يعفو عمن يشاء من عباده فعل ولكنه لم يعرفنا وسيلة لعفوه سوى التوبة من الذنوب والرجوع اليه بعد التمرد والعصيان . فمن ذا الذى يخاطر بنفسه ويقذف بها فى الشهوات الفاسدة واللذات القاتلة فيغضب عليه ربه ويعرض نفسه لعذاب جهنم طمعا فى عفوه الذى لايعرفه ولا يدري إن كان يمنح لفرد من الأفراد أو أكثر بل لايدرى إن كان يقع لأحد من المجرمين أو لا . حقا إن الله قال فى كتابه الكريم (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال (ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما) فهو إن شاء غفر ماعدا الشرك لأنه سبحانه مالك كل شيء وصاحب السلطان الذى لاينازع ولكن من ذا الذى يشاء الله له الغفران . ومن ذا الذى يستحق عفوه . لعله من هؤلاء الذين قال الله فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) فالتائبون هم الذين يستحقون عفو الله عما فرط منهم من الجرائم فانه سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت

ذلك هو الدين وما عداه تمسك بالمحال وتعلل بالأمانى والآمال وما كان الله ليرسل الرسل لعباً ولهواً وينزل الكتب تسلية وهزؤاً . ولكن حذر وأنذر ووعد وأوعد . فمن أطاع فقد فاز فوزاً عظيما . ومن عصى فقد خسر خسرانا مبينا . يرشدك الى هذا كتاب الله تعالى فانه وعد بالمغفرة التائبين الذين يعملون الصالحات قال تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى). وقال (والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال (إن رحمة الله قريب من المحسنين) الى غير ذلك من الآيات التى فيها وعد بالمغفرة أو وعد بالجنة ونعيمها فانه مشترط فيه الايمان والعمل الصالح . وسيعلم المغرورون ذلك عند مايرون العذاب بأعينهم ويتأكدون أن الجنة لاتنال بالأمانى وأن النار لاتجتنب بارتكاب الجرائم وإطاعة الشهوات فيقولون كما أخبر الله عنهم فى كتابه الكريم . (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) فهم سيذعنون بأن العمل الصالح هو الذى عليه مدار السعادة وأن العمل السيء هو الذى عليه مدار الشقاء . وما عدا ذلك فهو غرور وأحلام . فكيف لايتدبر المؤمنون فى قول رب العزة . وكيف تقسوا قلوبهم

وتنطمس بصائرهم وتستولى عليهم شهواتهم فتصمهم وتعمى أبصارهم . ألم يسمعوا قول الله تعالى (يوم توفى كل نفس ما كسبت) ويدركوا أن هذا كلام رب العزة الذى لاتبديل لكلماته ولا محو فيها فلا بد من أن تنال كل نفس جزاء عملها من خير وشر بدون أن يظلم احد شيئا . فما بالهم يعرضون عن قول ربهم هذا كأنهم به غير مؤمنين . ألم يسمعوا قول الله تعالى (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليما)

فواجب على المسلمين أن يتدبروا ذلك وأن تتأثر به قلوبهم فلا يحيدون عن العمل به لأنه هو وحده وسيلة السعادة الدائمة والنعيم المقيم . ولقد منّ الله تعالى على المؤمنين فوعدهم بقبولهم إذا تابوا وأنابوا. فلا عذر للمصرين على ذنوبهم المأسورين لشهواتهم ولذاتهم بعد ذلك فان الله تعالى قال لهم (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم) فمن سمع قول الله هذا ولم يسارع الى التوبة والانابة اليه فهو خاسر غليظ القلب لايحق له أن يرجو رحمته بعد ذلك . أما من تاب من ذنوبه وأناب الى ربه فانه جدير أن يرجو رحمته وغفرانه وهو الغفور الرحيم

الحقد والحسد

تعريفهما

الحقد هو الانطواء على البغضاء بأن يستثقل قلب الحاقد من يحقد عليه وينفر عنه ويبغضه وهو نتيجة الغضب وثمرته . لأن الغضب اذا ثار وطغى فانه لايبدأ الا بأمرين . أحدهما الحلم وهو يستلزم تقدير الأمور والتدبر فى عاقبة الغضب وما يجر اليه من المصائب والبلواء . وهذه درجة رفيعة ومنزلة سامية لاينالها الا عظماء الرجال الذين تملك عقولهم أيدانهم كما سيأتى فى مبحث الحلم . ثانيهما التشفى والانتقام من المغضوب عليه . فمن ثار غضبه ولم يكن حليما وعجز عن البطش بمن أهاجه انقلب غضبه حقداً بالمعنى الذى ذكرناه

وأما الحسد فهو تمنى زوال نعمة الغير فلا يحب ان يرى على من يحسده نعمته التى حسده من اجلها . وهذا احدى نتائج الحقد وثمراته المترتبة عليه فان من يحقد عليه يتمنى زوال نعمته ويغتابه وينم عليه ويعتدى على عرضه ويشمت فيه لما يصيبه من البلاء وغير ذلك من الصفات المذمومة التى لاتليق بالانسان . وكفى بالحقد ذما أن يكون الحسد ثمرة من ثمراته واثراً من آثاره

مضار الحسد

شر مضار الحسد وبلوائه التى تؤذى الأفراد والجماعات ان الحاسد اذا كان ذا بطش وقوة فانه لايبالى ان ينكل بمحسوده شر تنكيل فاذا امكنه القضاء على نعمته باى وسيلة من الوسائل المحرمة فانه يسارع الى ذلك حتى ولو ادى به عمله الى الاعتداء على بدنه وعرضه وماله . لأن داء الحسد اذا تغلغل فى النفس وكان الحاسد شريراً لاوازع له من دين او مروءة فانه يكون من شر الصفات التى يترتب عليها ظلم الأبرياء والاعتداء على عباد الله . فاذا كثر الحاسدون الأقوياء فى أمة من الأمم سادت فيها الفوضى واختل النظام واضطرب حبل الامن وكان الحسد من شر الادواء التى منيت بها . أما اذا كان الحاسد ضعيفا لايستطيع أن يبطش بالمحسود ولا يسعه أن يلقاه وجها لوجه فانه يتربص الدوائر به وينتهز الفرص للنيل منه بلسانه فلا يتعفف عن اختلاق الكذب عليه ورميه بالفحشاء زورا وبهتانا ولا يحجم عن النم عليه عند من يؤذيه ولا يتأخر عن غيبته وذكره باقبح الاوصاف وأسوأ العيوب . كل هذا يترتب على الحسد وما ذا يجنى الحاسد من وراء حسده من اللذات انه لايجنى شيئا أكثر من هذا الذى سمعت من مظالم الناس فاذا اعجزه الخوف من المحسود عن ذكره بالسوء فى غيبته أيضا فان قلبه يصلى نارا تلظى ويعذب عذابا اليما . فهو من أشقى خلق الله واتعسهم يشغل نفسه بما لافائدة فيه ويعذبها بدون لذة يجنيها سوى أنه فاسد الطبع سيء التربية وذلك هو البلاء المبين . وكفى بالحسد ضررا أن النميمة لازمة له وأثر من آثاره وقد علمت مالها من المفاسد والاضرار . من اجل ذلك حرمت الشريعة الاسلامية الحسد وذمه الله تعالى فى كتابه الكريم فقال (ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الى غير ذلك من الآيات وقد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام ان يستعيذ من شر الحاسد فى سورة الفلق وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منى ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا انا منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) » رواه الطبرانى والبهتان هو أن يقول فى شخص مالم يفعله ولقد اشار نبينا عليه الصلاة والسلام بتلاوة هذه الآية الى ما يترتب على الحسد من الشرور والمفاسد فان الحاسد لايبالى ان يؤذى المحسود ويقول فيه الزور . والبهتان كما علمت مما تقدم . وكفى بالحاسد ذما ان رسول الله ﷺ يتبرأ منه ولم يرض ان يكون منسوبا اليه فان دينه يأمر بالفضيلة وينهى عن الرذيلة . وكفى به زجرا ان يكون قد احتمل اثما مبينا بفعل ما يترتب على الحسد من الاضرار بعباد الله لان جزاء الآثمين جهنم وبئس المهاد

أسباب الحسد

ينشأ الحسد غالبا من امور خارجة عن طبيعة الحاسد واهم هذه الأمور الكبر والعجب والعزة والتزاحم على ما تستلزمه الحياة من مال وجاه والخوف من فوات اللذات والشهوات فان كل

هذه الصفات العارضة على نفس الانسان تستلزم الغضب وهو يستلزم الحقد والحسد كما علمت آنفا وقد ينشأ الحسد بسبب داخل فى نفس الحاسد كأن يكون شريرا بطبيعته قد سرى اليه خبث النفس بقانون الوراثة او انتقل اليه من البيئة التى ربى فيها فتراه مفطورا على العداوة والبغضاء للمحسود بدون سبب ظاهر سوى الخبث وسوء التربية . وهذه الأمور كلها تنتج العداوة والبغضاء وهى رأس كل شر ومصدر كل بلاء ولقد بينا لك كيف ان الكبر يستلزم الحسد وكذلك العجب فى محله اما التزاحم على شئون الحياة فالأمر فيه محس ومشاهد لنا فى كثير من الناس خصوصا طلاب المال باسباب متشابهة كالتجار والصناع والزراع فانك ترى التحاسد كثيرا بينهم وقد يذهب الحسد ببعض الحاسدين منهم الى الدرك الاسفل من الخسة فيحسد غيره على ربح خبيث كالكسب بالميسر او الغش او النصب والاحتيال والتدليس . وكذلك الحال فى طلاب الشهوات واللذات فان من يظفر منهم بلذة يحسده الآخر عليها حتى ولو كانت محرمة ومن هؤلاء فريق كالانعام بل هم أضل سبيلا فان بعضهم يحسد شريرا مثله على وصوله الى امرأة فاجرة او غلام فاسد الأخلاق . وكثيرا ما يقتتلون من جراء ذلك وذلك هو الخزى المبين

مراتب الحسد

يمكنك أن تفهم مما تقدم أن صفات النفس المرذولة لها ثلاث حالات الحالة الاولى ان تترتب عليها آثارها السيئة وهى انما يتفاحش شرها بتفاحش ما يترتب عليها من تلك الآثار فكلما اشتد ضررها للفرد أو للجماعة اشتد ذمها وكبر اثمها وعظم جرمها . الحالة الثانية أن توجد الصفة ولكن لا يترتب عليها شىء من تلك الآثار وهذه تنقسم الى قسمين . الاول أن يكون ذلك ناشئا من عجز المتصف بها عن فعل ما يترتب من الشر بحيث لو امكنه أن يفعل لا يتأخر ولا ينى وهذا يكون مذموما يعاقب عقابا شديدا على هذه الصفة . وكذلك يعاقب على الجرائم التى لم يباشرها لعجزه وإن كان عقابه عليها أهون من عقاب الذى باشرها فعلا . الثانى أن يكون له وازع من دين وخوف من الله فيجاهد نفسه ويكفها عن إيذاء خلق الله بالقول والفعل وهذا يكون ممدوحا وان كان يلزمه أن يعالج نفسه حتى تبرأ من تلك الصفة ويستريح من شرها . وقد علمت فيما مضى أن كل صفات النفس قابلة للزوال فليس للانسان عذر فى ترك الأمراض النفسية حتى تصبح داء عضالا يتعسر زوالها . الحالة الثالثة أن تترتب عليها آثار نافعة للفرد أو للجماعة وهذه الحالة شاذة غير طبيعية لأن صفات السوء يندر أن يترتب عليها خير وهى فى هذه الحالة تكون ممدوحة بطريق الاستثناء بناء على قاعدة جلب المصلحة ودرء المفسدة فان نظر الشريعة الاسلامية فى جميع قضاياها انما هو الى مصلحة الافراد والجماعات وقد يحاول بعضهم عند هذا تسميتها باسم آخر وهو ليس بضرورى كما علمت فى مبحث الكذب لان المعول على المعانى والاغراض المترتبة عليها لا على الالفاظ والعبارات

اذا علمت هذا فاعلم أن للحسد ثلاث مراتب . المرتبة الاولى هى أن يتمنى زوال نعمة الغير

لتنتقل اليه فيعمل على ذلك بالوسائل المحرمة الظالمة ويسعى فى اساءته بكل مايتيسر له وهذه الحالة هى الغالبة فى الحساد خصوصا المتزاحمين فى صفة واحدة فان من يربح منهم ربحا كبيرا أو يظفر بلذة يرقبها غيره فان ذلك الغير يحسده على ماحصل عليه من ذلك ويسعى فى حرمانه من هذا الربح ليظفر به هو. ويكثر ذلك فى طلاب المناصب والجاه كما علمت فى النميمة. المرتبة الثانية أن يجد من نفسه الرغبة فى زوال النعمة عن المحسود سواء انتقلت اليه أو لغيره ولكنه جاهد نفسه وكفها عن فعل ما يؤذيه خوفا من الله تعالى وكراهية فى ظلم عباد الله ومن يفعل هذا يكون قد كفى شر غائلة الحسد ودفع عن نفسه العقوبة الأخروية ولكن ينبغى له أن يعالج نفس الصفة حتى يبرأ منها . المرتبة الثالثة أن يتمنى زوال نعمة الغير بغضا له لسبب مشروع كأن يكون ظالما يستعين على مظالمه بهذه النعمة فيتمنى زوالها ليريح الناس من شره وهذا لا يسمى حسدا مذموما وان كان تعريف الحسد يشمله لأنه تمنى زوال نعمة الغير ولكنه فى هذه الحالة يكون ممدوحا كل المدح بل قد يكون لازما اذا ترتب عليه عمل يرفع هذا الظلم ويردع ذلك الظالم . هذه هى مراتب الحسد وليس منه أن يتمنى أن يكون له نعمة مثل نعمة أخيه من غير أن يحب زوالها عنه وهذا يسمى غبطة وهى ممدوحة لاشىء فيها الا اذا ترتبت عليه وساوس نفسية وخواطر شيطانية تجر الانسان الى مواضع الخطر من حيث لا يدرى كأن يقول فى نفسه أنا أحق منه بهذا ثم ينتقل من ذلك الى الغيرة منه وبغضه وحسده وهو لا يدرى. فخير للانسان أن لاينظر الى ما فى أيدى الناس بل يسلك هو السبل التى قدرت له فى هذه الحياة بجد ونشاط وما يصل اليه من نعيم الحياة ولذتها يحمد الله عليه ويقنع به. اما كونه يتمنى أن يكون له قصر مثل قصر فلان أو زوج مثل زوجه أو ولد صالح مثل ولده أو نحو ذلك فانه يشغل به نفسه من غير جدوى . نعم اذا كان ذلك التمنى يبعثه الى العمل ويدفعه الى تقليد غيره فى جده ونشاطه كى يحصل على ماحصل عليه — وهو معنى التنافس — فهو حسن ممدوح خصوصا اذا كان فى اعمال الخير الذى يأمر بها الدين فان التنافس فيها مطلوب والتزاحم عليها ممدوح وفيها فليتنافس المتنافسون

علاج الحسد

ينبغى ان يعالج الحسد بمعالجة اسبابه فان كان سببه الكبر أو العجب أو حب الرئاسة فانه يعالج بعلاج هذه الصفات فمتى قدر على ازالتها فان الحسد المسبب عنها يزول بزوالها طبعا . نعم ان علاجه فى هذه الحالة يكون شاقا لأن من اجتمعت فيه هذه الصفات أو بعضها فلا غرو أن يحتاج فى علاجها الى جهاد طويل شاق وصبر على محاربة نفسه حتى يكبح جماحها ويردها عما تطلبه تلك الصفات من المفاسد وتقتضيه طبيعتها من الاضرار بالناس . ولكن المسلم الذى يدين بالاسلام حقا ويعتقد ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وهناك يجزى كل امرء بما كسبت يداه فانه لايحجم عن علاج نفسه ولا يترك تلك الصفات الرديئة التى تفتك بالانفس كما تفتك الاوبئة فتوردها موارد الهلاك فى الدنيا والآخرة . واما الحسد الناشىء من خبث الطبيعة وسوء التربية

فان صاحبه ناقص العقل سيء التربية وإلا فماله وللناس وما الذى يضيره من نعمهم حتى يتمنى زوالها وما الذى يناله من وراء حسده سوى تعذيب نفسه وايلامها . ان مثل هذا يجب عليه أن يعالج عقله حتى يدرك أن ما يتصف به من هذا حماقة وجنون لامبرر له فانه لايجنى من ورائه ادة عاجلة حتى يضحى من اجلها نعيم الاخرة الاجل ولا يظفر منه بسوى العذاب الاليم فى الدنيا والاخرة فاذا امكن للحاسد بأى سبب من الاسباب أن يمنع نفسه من ايذاء المحسود بالقول والفعل فانه يسهل عليه القضاء على الصفة النفسية التى تدفعه الى الايذاء ويرتفع عنه اثم الاضرار بالناس . فعلى كل حاسد أن يذكر دائما بطش الله وقوته قبل ان يبطش بعباد الله وان يعلم أن الله شديد العذاب وأنه لعن الظالمين واعد لهم سعيرا وأن كل ذنب يغتفر بالندم ما عدا حقوق العباد فانها لاتغتفر إلا إذا ردت اليهم أو سامحوا فيها . وأنه لن يستفيد أدنى فائدة من وراء الحسد والكبر والعجب سوى الآلام التى تساور نفسه والهموم التى تنتابها عند مايعجز عن نيل ماتطلبه منه . وأن يذكر دائما أن كل منصب لايدوم وأن كل رئاسة لن تستمر . فكم رأينا فى بعض حياتنا القصيرة رؤساء أصبحوا مرءوسين وسادة أصبحوا خدما . وأعزة أصبحوا أذلة . وليس من الكياسة والحزم أن ينغص الانسان عيشه ويعذب نفسه ويعتدى على خلق الله من أجل أمر زائل لايدوم لأحد ولا يبقى لمخلوق .

ومع ذلك فالمناصب والرئاسات تكتنفها مسئولية عظيمة عند الله وعند الناس . فلا ينجو من شرها إلا من جاهد نفسه جهاداً كبيراً وحاسبها حساباً عسيراً كى يقف معها عند الحد الذى يقتضيه الحق والواجب ولا تحمله شهوتها على الخروج عن العدل والانصاف . فمن كان له عقل سليم ونظر صحيح فلا يندفع فى سبيلها الا حيث يظن من نفسه القدرة على دفع شرها . على أنها كغيرها من لذات الحياة وأنعمها يمكن الوصول اليها من طريق مشروع لايترتب على سلوكه ضرر أحد من خلق الله فاذا جاءت من هذا الطريق فذاك وإلا فانها مهما عظمت لذتها وطالت مدتها لاتقاس بمثقال حبة من غضب الله تعالى ولا تساوى لحظة واحدة من عذابه وكذلك سائر لذات الدنيا وزينتها فان من وصل إلى شئ منها من طريق مشروع واستمتع بها حلالا طيبا فهو ممدوح . ومن قعد به حظه عن الوصول إلى مايشتهى وجب عليه أن يصبر على مامنع عنه ويرضى بما قدر له وإلا كان حيوانا مفترسا وذئبا ضاريا لايعنيه إلا الوصول الى لذاته مهما ترتب عليها من الفتك بغيره والاعتداء عليه .

ذلك بعض مايعالج به الانسان نفسه من صفات النفس التى يترتب عليها الضرر بخلق الله على أنه ينبغى للمسلم الذى يدين بالاسلام حقا أن يتأمل دائما فى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يكثر من الاطلاع على سيرته الكريمة وسيرة أصحابه . ويديم النظر فيما كان عليه أتباع الرسول الصادقين من سلامة الصدر وطهارة القلب ومعاملة بعضهم بعضا بالرفق والرحمة فلا يتحاسدون ولا يتباغضون . فهم كانوا دائما إخوانا متصافين يتعاونون على البر والتقوى ويتناهون

عن الاثم والعدوان وبذلك أعلا الله قدرهم فى الدنيا وأعد لهم فى الآخرة جنات النعيم .

فالمسلمون الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه يجب عليهم أن ينزعوا من صدورهم العداوة والبغضاء ويطهروا أنفسهم من الضغائن والأحقاد . فمن غلبت عليه طبيعته ووجد من نفسه بغضاً لواحد من خلق الله وجب عليه أن يكف عنه يده ولسانه وأن يعالج نفسه حتى تبرأ من هذه الصفة التى نهى الله عنها ورسوله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » أخرجه أحمد والبخارى ومسلم

هذه هى آداب الاسلام وتعاليمه الكريمة التى لايفلح من حاد عنها . ولا يسعد من خالفها . ولا يشقى من تمسك بها . فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعها فى كل شأن من شئونها ويهدينا الى سبيلها القويم وطريقها المستقيم ويقينا شر الحسد وغوائله إنه بعباده رءوف رحيم

الباب الثالث

فى ذكر بعض صفات النفس الممدوحة

تمهيد

قد علمت فى أول الكتاب أن الانسان مركب من أمرين . أحدهما الجسم المادى المؤلف من العناصر المختلفة . والثانى العقل وإن شئت فسمه بالنفس أو الروح . وهو الذى يمتاز به الانسان عن الحيوان وبه يدرك الخير والشر ويعرف الفضيلة والرذيلة . وما سوى العقل من وجدان وحس باطن وظاهر فانه عون للعقل على ذلك الادراك .

فالانسان يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم وهذا خير وذاك شر بالبراهين التى يرتب العقل مقدماتها مما يصل إلى الحواس الباطنة والظاهرة من المشاهدات والتجارب والأخبار الصادقة والنظر فى أراء الأمم وأحوال الناس . على أن العقل الانسانى مهما أوتى من قوة فانه يصيب ويخطئ فلا بد له من الاستناد إلى قوة معصومة من الخطأ حتى يكون حكمه صحيحاً دائما . وتلك القوة هى قوة الوحى الالهى الذى أشار الله تعالى اليه بقوله (ماضل صاحبكم وماغوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) فعند ماتضل العقول وتشتبه عليها الأدلة وتضطرب لديها المقدمات ترجع الى ميزان الوحى فتهتدى وتنظر فيما أتى به الدين فتسكن لأنه من لدن عليم خبير لاتخفى عليه خافية من خلقه . ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فما يأمر به الدين فهو فضيلة . وما ينهى عنه فهو رذيلة وما يستقبحه فهو شر . وما يستحسنه فهو خير .

هذا هو الذى يعول عليه المسلمون الذين يعرفون حقيقة الاسلام . ويعلمون أنه لم يترك فضيلة من الفضائل عند ذوى العقول السليمة الا أمر بها وحث عليها . ولم يدع رذيلة من الرذائل الا نهى عنها ونعى عليها . ولم يأمر بشيء أو ينه عنه الا اذا كان فى فعله . أو تركه مصلحة تعود على الأفراد والجماعات . وهو مع هذا لم يحظر على العقول أن تنظر فيما جاء به . بل جعل لها مجالا واسعا فى النظر والاستدلال والبحث والتفكير وشجع الباحثين على استنباط مافيه المصلحة للناس بالوعد الكريم . فجعل لهم على بحثهم أجراً عند ربهم حتى ولو أخطأوا فى اجتهادهم مادامت النية الصالحة موجودة . وما دام الواحد منهم قد بذل منتهى الجهد وأقصاه بشرط أن لايخرج عن قواعد الدين العامة وأن لايصطدم بأصوله المتفق عليها من كتاب وسنة واجماع يرتكز على الكتاب والسنة لأن الخروج على تلك الأصول هو ضلال العقل الذى ذكرنا فاذا رجع الى تلك القواعد وأعاد النظر فيها المرة بعد المرة وتأمل فيما يشتبه فيه من أمرها فانه لابد أن يهتدى الى الصواب ويدرك أن علة اشتباهه ترجع الى عدم دقة النظر وعدم فهم المقدمات .

ومن هذا تعلم أن العقل هو الذى يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم معتمدا فى ذلك الحكم بالدين ومستندا اليه فى كل شأن من الشئون . وإن شئت فقل إن العقل يحكم بقضايا الدين فاذا خرج العقل عن قواعد الدين فقد ضل وغوى .

ويمكنك أن تستفيد من مجموع ماتقدم فائدتان .

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الدين الاسلامى انما يحكم على الأشياء بالمدح والذم باعتبار مايترتب عليها من المنافع والمضار التى تعود على الأفراد والجماعات لأن كل تشريعه مبنى على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . فما يترتب عليه المصلحة فهو حسن ممدوح . وما يترتب عليه مفسدة فهو قبيح مذموم . واذا تعارضت المصلحة مع المفسدة قدم درء المفسدة على جلب المصلحة . ويؤخذ من هذا أن الحكم على الشيء بأنه خير أو شر . فضيلة أو رذيلة ليس باعتبار ذاته بل باعتبار مايترتب عليه من المنافع والمضار . فالصدق فضيلة والكذب رذيلة . ولكن اذا ترتب على الكذب خير يعود على الفرد والجماعة . وترتب على الصدق ضرر فان كان ذلك الضرر يعادل إثم جريمة الكذب أو يفوقها كما اذا كان يترتب عليه ازهاق نفس أو هزيمة جيش . فان الشريعة الاسلامية تحتم الاخبار بغير الواقع دفعا لمفسدة قتل النفس وإذلال الأمة بهزيمة جيشها . اذ ليس الاخبار بالواقع فضيلة فى ذاته . بل باعتبار مايترتب عليه من تحصيل المنافع ودفع المضار التى بيناها لك فى مبحثه . وهكذا فى سائر الأمور

ومعنى هذا أن الانسان إذا طلب الفضيلة لينال من ورائها منفعة شخصية أو منفعة عامة كان ذلك جائزا فى نظر الدين . وهو كذلك لأن الله تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ووعده سبحانه لابد أن يتحقق كما قال (إن الله لايخلف الميعاد) وقال (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله) الى غير ذلك من الآيات الصريحة فى أن وعده لايتخلف فمن تمسك بالفضائل التى أمر بها الدين واجتنب الرذائل التى نهى عنها . ليحيا فى الدنيا حياة طيبة . ويعيش عيشة هنيئة ويظفر فى الآخرة بالسعادة وهى النعيم الخالد والملك المقيم . فهو ممدوح كل

المدح وهذا يؤيد قول من يقول ان الانسان لايطلب الفضيلة الا لما يترتب عليها من منفعة عامة أو منفعة شخصية . والأول يسمى مذهب السعادة العامة . والثانى يسمى مذهب السعادة الشخصية إلا أن الدين الاسلامى يشترط فى المنفعة أن لاتتعارض مع قواعده فلا يترتب عليها اخلال بحقوق الناس أو بحقوق الله والا كانت الفضيلة التى تترتب عليها المنفعة رذيلة فى نظر الدين

هذا هو الرأى السديد وما سواه فهو زخرفة فى القول واحلال للنظريات محل العمليات . فمن قال ان الفضيلة تطلب لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المنافع واللذات . وإن الرذيلة تجتنب لذاتها بقطع النظر عما يترتب عليها من المضار والآلام لايريد الا أن يبالغ فى تنزيه الانسان . أو يتمنى أمنية محبوبة للنفوس وهى أن الانسان ينبغى له أن لايحفل بنعيم ولا شقاء . ولا يبالى بمنفعة ولامضرة بل يسعى لما يعتقدأنه فضيلة بفطرته . فانه أرقى من أن تبعثه اللذة ويمنعه الألم ويسمى هذا مذهب اللقانة — البصيرة — والواقع أنه مذهب غير عملى لاينطبق على فطرة الانسان ولا يمكن أن يقع فى الوجود . اللهم الا اذا خلق الانسان خلقا جديدا . وذلك لأنه لاريب فى أن الناس مسوقون فى هذه الحياة بعوامل اللذة والألم فلا يخطو الواحد منهم خطوة ولا يتحرك حركة الا اذا اعتقد أن من ورائها خيرا له ومنفعة تعود عليه . ولقد علم الله سبحانه ذلك من طبيعة عباده . فأرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين يرغبون أهل الفضائل فى الجنة ويحذرون أهل الرذائل من النار وجاءت الشريعة الاسلامية لتبين للناس حدود الخير والشر وما يجب على الانسان وما يجوز تحصيله من المنافع الشخصية والمنافع العامة . وعرّفت كل واحد ماله وما عليه من الحقوق لنفسه ولغيره من الأفراد والجماعة كما سيأتيك بيانه مفصلا فى الجزء الثانى فى الواجبات الدينية ان شاء الله

ووعدت من اتبع ارشادها وعمل بما جاءت به بأن ينال من اللذات مالا عين رأت ولا أذن سمعت وأن يحظى فى اليوم الآخر بكل ماتشتهيه نفسه وتقر به عينه من نعيم دائم وسعادة خالدة فضلا عما يظفر به من حياة طيبة فى الدنيا خالية من الأمراض النفسية والبدنية وقائمة على رفعة القدر وسمو المنزلة . كل ذلك ليعمل الناس بما تقتضيه الفضائل وينتهوا عما تتطلبه الرذائل . ولا سبيل لحملهم على ترك المنافع واللذات التى تنافى الفضيلة الا بتخويفهم من عاقبة أمرها ووعدهم على الصبر على هجرها بلذات دائمة مستمرة . لايعقبها عناء . ولا يتبعها ندم . ولا تساوى لذات الدنيا الى جانبها شيئا .

ولقد كان المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم يتمنون القتل فى سبيل الله ليظفروا بالنعيم الخالد وكانوا يقولون (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة) وليس بعد القتل ألم ولكنه أصبح لذة لما يعقبه من سعادة دائمة ونعيم خالد وهكذا فى كل شأن من الشئون . فان الناس لايعملون الا طمعا فى الخير وفرارا من الشر أو بالتالى طمعا فى الثواب وفرارا من العقاب .

لعلك تقول ان من قواعد الاسلام الاخلاص فى العمل لله تعالى وهذا يستلزم أن يعبد لذاته ويطاع من غير شرط ولا قيد . ولهذا نقل عن بعض العباد أنهم كانوا يقولون اننا لانعبد الله خوفا من نار ولا طمعا فى جنة واذا كانت نتيجة عبادتنا ذلك فقد خسرنا وهذا القول صحيح من بعض نواحيه لأن الذى يعمل على مرضاة سيده بدون أن ينتظر جزاء أكرم وأعز من الذى ينتظر

الأجر . وأن الذى يخلص لحبيبه الطاعة حتى ولو عذبه لايقاس بالذى يعمل ليأخذ جزاء . ولكن اذا حللت المسألة تحليلا دقيقا . علمت أن المخلصين فى الواقع يطلبون جزاء أكبر ولذة أعلى لانهم انما يطلبون بذلك مرضاة الحبيب وهذا أكبر أجر لان من يرضى القادر الذى بيده مكافأة العاملين فانه يكون له من الجزاء أكبر حظ وأوفر نصيب . فاذا بحثت حال العباد الذين راضوا أنفسهم وتجردوا عن كل اللذات الجثمانية وهجروا جميع الشهوات الحيوانية فانك تجدهم لم يفعلوا ذلك الا لما يبتغونه من لذة أكبر مما هجروه وسعادة حسية أو معنوية يقدرون الوصول اليها من هذه الطريق وأقلها انكشاف الحقائق العلمية . وأعلاها مرضاة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم أما الاخلاص فانه لاينافى ذلك لأن معناه أن يعبده لالغرض يطلبه من غيره . أما اذا كان يعبده وحده ليرضى ويجزل له العطاء فان هذا نهاية الاخلاص . ولئن كانت الشريعة قد حثت على الاخلاص فانها قد وعدت عليه أحسن الوعود ورتبت عليه أحسن الجزاء فى دار النعيم

وجملة القول فى ذلك أن على الانسان أن يطلب الفضائل التى أمر بها الدين وحث عليها . ويجتنب الرذائل التى نهى عنها ابتغاء مرضاة ربه لا لغرض من أغراض الدنيا ولا لشهوة من شهواتها التى لا يقرها الدين كما علمت فى مبحث الرياء . أما اذا كان غرضه من عمله ما عند الله من نعيم الجنة فانه حسن ممدوح بلا نزاع . فان كانت ملاحظة ذلك تشجعه على العمل وتعينه عليه كان ذلك واجبا .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ ان حكمه على الأشخاص بالمدح والذم انما هو باعتبار مقاصدهم ونواياهم كما قال صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات » فمن قصد الى عمل خير قصدا صحيحا يريد به وجه الله تعالى واستمسك بكل الوسائل الموصلة اليه بدون تقصير ولا اهمال . ثم ترتب عليه شر فانه يكون ممدوحا . ومن قصد الى شر فترتب عليه خير فانه يكون مذموما . مثلا المجتهد الذى ينوى الوصول الى الحق فى مسألة من المسائل ثم استمسك بجميع الوسائل التى توصله الى غرضه وبذل أقصى جهده فى ذلك ولكنه أخطأ ووصل بمقدماته الى عكس المطلوب فانه يكون ممدوحا ويثاب على نيته وما بذله من مجهود . ومثله الطبيب الذى يبذل أقصى جهده فى معالجة مريض ثم يخطئ فى وصف الدواء فيترتب عليه هلاك المريض فانه يكون ممدوحا . وانما يذم اذا أهمل فى العناية المطلوبة منه . وعلى العكس من ذلك . اذا أراد شخص غش آخر وايذاءه فأشار عليه بسلوك طريق يظن أن فى سلوكه إياها هلاكه فسلكها فظفر فيها بكنز أو كانت سببا فى نجاته من شر فانه يكون مذموما باعتبار قصده ونيته . فالعبرة انما هى بالنية على كل حال .

واذا علمت هذا فانك تستغنى به عن الأبحاث الكثيرة والخلافات المتشعبة فى البحث عما تعرف به الفضيلة والرذيلة ويدرك به الخير والشر . فان ذلك أمر قد فرغ منه بما قرره الدين وأجمع عليه أرباب العقول السليمة .

ومن أجل ذلك اضربنا صفحا عن كل ماقيل فى هذا . لأنه ليس من غرض الدين . وانما غرض الدين معرفة ما يمدحه الدين وما يذمه وما يأمر به وينهى عنه . فما يأمر به ويمدحه فهو الفضيلة . وما يذمه وينهى عنه فهو الرذيلة . فالفضيلة فى نظر الدين الخلق الحسن

الذى يترتب عليه آثار صالحة . والرذيلة الخلق السيء الذى يترتب عليه آثار سيئة . وقد قدمنا لك معظم الأخلاق الصالحة وضدها فى البابين السابقين فلنذكر فى هذا الباب طائفة من الصفات الفاضلة التى فاتنا ذكرها هناك مبتدئين منها — بالعدل — لأنه أساس الفضائل

العـــدل

هو التوسط بين طرفى الافراط والتفريط فى ثلاث قوى . القوة الأولى الشهوية. القوة الثانية الغضبية . القوة الثالثة العقلية . فاعتدال هذه القوى هو العدل . وقد ذكرنا لك فى بابى الشهوة والغضب ما يمكنك أن تعرف منه ذلك حق المعرفة . فان من يتوسط فى شهوته البهيمية وغضبه فلا ريب فى أنه يكون عادلا مع غيره ومع نفسه فأما عدله مع غيره فلأن التوسط فى الشهوة البهيمية هو العفة المتوسطة بين الخلاعة والجمود . والتوسط فى الغضب هو الشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور ومن كان كذلك فانه ينصرف عن ايذاء الناس وظلمهم فى أعراضهم واموالهم وانفسهم ويحمله على اعطاء كل ذى حق حقه . وأما عدله مع نفسه فلأنه يستمتع بالحلال الطيب من رزق الله وينجو من عار الجبن وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه ويسلم من فضائح الشهوة . كل ذلك فى الدنيا وله فى الآخرة أحسن الجزاء

وأما القوة العقلية فاعتدالها معناه الحكمة وهى متوسطة بين البلادة والغرور وهى تتناول حكمة الاعتقاد . وحكمة العمل . وحكمة الأخلاق . فاما حكمة الاعتقاد فمنها توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل مالا يليق به وهو متوسط بين رذيلتين . نفى الألوهية رأسا كما تقول الدهرية او اعتقاد الهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . واما حكمة العمل فهى اداء الواجبات بلا افراط أو تفريط وهو متوسط بين ترك العمل رأسا أو المبالغة فيه كما اذا ترك المباحات تشبها بالرهبان وأما الحكمة الأخلاقية فهى كالجود المتوسط بين الاسراف والشح ونحوه مما قدمناه لك فمن اعتدلت فيه هذه القوى الثلاث كان عادلا حقا

وتفسير العدل بهذا المعنى أحسن مايفسر به ومنه يؤخذ أن العدل رأس الفضائل وأساس الخير وأن الظلم منبع الرذائل ومصدر الشرور وهو يؤيد من يقول ان أساس الفضائل خضوع الشهوة والغضب للعقل فمن جعل لعقله سلطانا كاملا عليها فلم يفرط ولم يفرط بل اتبع سبيلا وسطا فقد ملك زمام الفضائل وهذا الرأى هو اسد الآراء التى ذكرت فى هذا الموضوع واقربها للصواب . وقد اعترض عليه بعض الناظرين بأن بعض الصفات النفسية لا يظهر لها طرفان كالعدل فانه ليس هناك سوى عدل وظلم فلم يكن العدل وسطا بين رذيلتين مع أن هذا المذهب يستلزم أن كل فضيلة ممدوحة لا تكون الا بين طرفين مذمومين . وأيضا فان بعض الصفات لا يظهر كونها وسطا لكونها أقرب الى أحد الطرفين من الطرف الآخر كالشجاعة فانها أقرب الى التهور منها الى الجبن وكالكرم فانه أقرب

الى الاسراف منه الى الشح . والاعتراضان ساقطان أما الأول فلأنك قد علمت أن العدل هو نفس الوسط المعتدل فالمعترض فسره بغير ما يراد منه ومثله غيره من الصفات النفسية التى لا يظهر لها طرفان عند بعض الناظرين . وأما الثانى فليس المراد أن تكون الأبعاد متساوية من جميع الجهات وأن تكون الفضيلة موجودة فى حاق الوسط — أى وسط الوسط — بالدقة بل المراد أن يكون لها طرفان مذمومان ولو كانت الى احدهما أقرب من الآخر

وبعضهم يقول ان اساس الفضائل هو المعرفة الصحيحة فمن عرف أن هذا حق وذاك شر فانه ينبعث الى فعل الخير وترك الشر فما يقع من المظالم والشرور فهو نتيجة الجهل أما ما نراه من وقوع الشر من العالم به فذلك لأنه لم يعلم به على وجه صحيح ولم تتأثر به نفسه حقا . ألا ترى أن من علم أن فى هذا الجحر ثعبانا لا يضع يده فيه والواقع أن هذه سفسطة ظاهرة لان العلم لا يستلزم العمل بلا نزاع واما ماذكره من أن العالم بالثعبان لا يقدم عليه فذلك لأن ضرره عاجل لم يعارض بلذة أخرى ولم يعلل بعلة تسهل فعله فهذا القول خطأ واضح

هذا وقد فسر بعضهم العدل بتفاسير أخرى غير ماذكرنا ولكنها كلها ترجع الى هذا التفسير فمن ذلك ما روى عن عمر بن عبد العزيز أنه دعا ببعض العلماء وطلب منه أن يصف له العدل فقال له كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العالين . وبديهى أن ذلك يرجع الى اعتدال بعض القوى التى ذكرناها آنفا ومثله ما نقل عن بعضهم من أن العدل استواء السريرة العلانية فى العمل فان من كان عمله الظاهرى مطابقا لاعتقاده وكان اعتقاده صحيحا فقد اعتدلت فيه قوة الاعتقاد وقوة العمل وهكذا

اقسام العدل

ينقسم العدل الى ثلاثة اقسام عدل المرء مع نفسه وعدله مع غيره وذلك الغير اما أن يكون فرداً أو جماعة فاما عدله مع نفسه فقد علمت أنه سلوك سبيل الاعتدال فى العقيدة والعمل فلا يتمرد على الله تعالى ورسله ولا يخرج عن البراهين الصحيحة ولا يلقى بنفسه فى تيار الشهوات القاتلة ولا يطيع غيه وهواه وبذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من امراض الشهوات البدنية والعقلية ويقى نفسه ناراً وقودها الناس والحجارة يوم يقوم الناس لرب العالمين ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وعرضها للهلاك والخسران فى الدنيا والآخرة

أما عدله مع غيره فانه يترتب عليه تلك النتيجة التى ذكرناها وهى السلامة فى الدنيا من شرور الناس وحقدهم عليه والأمن على نفسه واهله وما أنعم الله عليه من نعم فى دار الدنيا والنجاة من هول يوم القيامة والسعادة الخالدة فى دار النعيم وله أمثلة كثيرة نكتفى بذكر المهم منها هنا

المثال الاول . عدل ولاة الأمور مع رعيتهم وهو أهم أنواع العدل وأعلاها قيمة وقدراً لأنه يترتب عليه سعادة المجتمع وصلاح أفراده فان الحاكم العادل لايقصر فى شيء من واجبه مع رعيته ولا يهمل شيئا يرقى أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم ويحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ويكون لهم مثلا أعلى فى معاملة بعضهم بعضا بالعدل والانصاف . فالحاكم كالقلب من الجسد إذا صلح صلح وإذا فسد فسد كما ورد فى الصحيح فلهذا كانت مسئولية ولاة الأمور عظيمة فى نظر الشريعة الاسلامية وقد حذر منها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام تحذيراً شديداً

روى عن أبي ذر رضى الله عنه « قال قلت يارسول الله ألا تستعملنى قال فضرب بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر انك ضعيف وإنها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها » رواه مسلم

وحقها فى نظر الدين أن يقوم بكل شيء فيه مصلحة المحكومين . قال سيدنا عمر والله لو عثرت بغلة فى العراق لوجدتنى مسئولا عنها فقيل لماذا ياأمير المؤمنين فقال لأننى مكلف باصلاح الطريق . هذا مثال الحاكم العادل ولهذا جعل الله له فضلا عظيما وميزة كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لاظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله . ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »

ولقد اشتمل هذا الحديث الشريف على جميع الكمالات الانسانية فالامام العادل هو الذى تنصلح به رعيته ويستقيم به امر دينها ودنياها وهو اعظم السبعة قدراً وأجلهم منزلة ومن أجل هذا بدأ به عليه الصلاة والسلام .وأما الشاب الذى نشأ فى طاعة الله فهو خير لنفسه ولغيره لأن من يتعود العمل الصالح لاتطغى عليه شهوته فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . وأما الذى قلبه معلق بالمساجد ليؤدى فيها الصلاة التى فرضها الله عليه فى اوقاتها ويحرص على عمارتها فان صلاته تنهاه عن الفحشاء والمنكر لأن من يتعلق بالمساجد لابد أن يكون ذلك ناشئاً من خشية الله تعالى ومن شعر قلبه بخشية ربه وصلى له خاشعا خاضعا فانه لامحالة ينتهى عن الفحشاء والمنكر فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره . واما المحبة فى الله تعالى فمعناها التعاون على البر والتقوى فمن أحب غيره لهذا الغرض فقد خدم نفسه وخدم الناس اجل خدمة . واما الذى دعته امرأة ذات حسب وجمال لنفسها فامتنع خوفا من الله فهو ذلك الرجل الذى ملك شهوته وجعل لعقله عليها سلطانا عظيما فهو امين على عرضه وعلى أعراض الناس وجدير أن تكون له تلك المنزلة . واما الذى يتصدق بصدقات خفية فهو ذلك الرجل الذى هو خير وبركة على عباد الله فانه يغيث المكروب ويطعم البائس والمضطر ولا يحب أن يمن على الفقير فيؤذيه بمنه ولا يحب ان يعمل رآء الناس فان مدحوه فعل وان لم يمدحوه ترك ومثل هذا جدير برضاء الله تعالى وحسن جزائه . وأما الذى تفيض عيناه عند ذكر ربه فهو المؤمن حقا الذى قال الله فيه (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)

فهؤلاء السبعة جديرون برحمة ربهم واحسانه واهل لأن يقيهم الله تعالى هول يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد

ويتبع عدل الولاة والسلاطين عدل القضاة والشهود وهو أهم ركن تقوم عليه سعادة المجتمع وينبني عليه أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأنفسهم فاذا جار القاضي ولم يقسط الشهود فان النظام يختل وتسود الفوضى ولهذا كانت مسئولية القاضي شديدة في نظر الاسلام فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فاما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به . ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار . ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه

فالقاضي الممدوح في نظر الدين هو الذي يعرف الحق ويقضي به فاما معرفة الحق فانها تحتاج الى مجهود عظيم وبحث في كل الظروف والاحوال المحيطة بالخصوم واما الحكم بالحق فانه يحتاج الى مجاهدة عظيمة حتى يتنزه القاضي عن التحيز والميل مع أقربائه أو أصدقائه أو من تربطه معهم رابطة أو تجمعه معهم جامعة أو يكون له في الميل غرض يناله من مال أو منصب أو شهوة . فالقاضي لاينجو إلا إذا كان بالنسبة إلى الخصوم كالميزان المضبط . فلا يميل مثقال ذرة إلى واحد منهم إلا بالحق . ومن لم يفعل ذلك فانه يتحقق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ولي القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد ورواه غيره

ومعنى الحديث أنه عرض نفسه للهلاك والعذاب الأليم . وهذا إن لم يقض بالحق كما تقدم في الحديث الأول .

وبديهي أن الركن الأعظم الذي يعرف القاضي به الحق هم الشهود فاذا تحيزوا وشهدوا زوراً وضللوا القاضي فقد احتملوا كل هذه المسئولية وكانوا من أشقى الخلق وأتعسهم عند الله وعند عباده

من أجل ذلك قال الله تعالى (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً)

قوامين . مواظبين على العدل في جميع الشئون والأحوال فلا يحل لكم أن تتخلفوا عنه في أي حال . شهداء لله . تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله تعالى فلا تحملكم الأغراض الدنيوية على التحيز وشهادة الزور . ولو على أنفسكم . مبالغة في الحث على أداء الشهادة على وجهها لأن الشهادة لاتقع من الانسان على نفسه . وإنما الذي يقع منه يسمى إقراراً إلا إذا أريد بالشهادة بيان الحق مطلقاً فتشمل الاقرار . أو الوالدين والأقربين . رأى بعض أئمة المسلمين أن شهادة الولد لوالديه وبالعكس جائزة أخذاً من هذه الآية . ولقد روى بعضهم أن سلف المسلمين كانوا على ذلك حتى تغيرت أخلاق الناس فعدلوا عن ذلك . وقد علمت أن الغرض انما هو المبالغة في الحث على قول الحق . فلا

يلزم منه ماذكر . وقوله إن يكن غنيا أو فقيراً . معناه أن الشاهد ينبغى أن لايلتفت لأى سبب من الأسباب الموجبة للتحيز سواء كانت صلة قرابة أو كانت عاطفة شفقة أو رحمة كما إذا خشى أن يشهد على فقير فيضره فى ماله أو كانت هيبة وخوفا من غنى . أو غير ذلك . بل يجب على الشاهد أن لايعرف فى هذا المقام سوى الله تعالى الذى يأمره بأن لاينثنى عن قول الحق قيد شعرة . فلا تحملكم أهواؤكم وأغراضكم على أن لاتعدلوا فى حقوق الناس . وإن تلووا . ألسنتكم فلا تأتوا بالشهادة على وجهها . أو تعرضوا . عن أداء الشهادة رأساً . فان الله كان بما تعملون خبيراً . فيجزيكم على ما عصيتموه .

وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)

لايجرمنكم . لايحملنكم . شنآن قوم . شدة بغضكم لهم . على أن لاتعدلوا . فى حقوقهم . اعدلوا . أيها المؤمنون فى أعدائكم وأوليائكم فان العدل . هو أقرب للتقوى . أى أدخل فى مناسبتها وأشد الأمور شبها بها لأن التقوى نهاية الطاعة والعدل أساس الفضائل

فهذا قول الله وقول رسوله فى الحث على عدل ولاة الأمور والقضاة والشهود . فعلى المسلمين أن يعملوا به وأن يتبعوه فى كل أمورهم ليظفروا بالسعادة فى الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين

المثال الثانى : عدل رؤساء الأسر والقبائل . فاذا وفق رئيس أسرة أو زعيم قوم إلى إقامة العدل بينهم فانه يحيا معهم حياة طيبة مباركة ويعيش هو وهم عيشة راضية مرضية . فان عدل الرئيس يوجب استمرار روابط المودة والوئام بينه وبينهم من جهة وبينهم وبين بعضهم من الجهة الأخرى فضلا عما يترتب على ذلك من اقتدائهم به قدوة حسنة . فانه يكون مثالا صالحا للصغير والكبير فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره ويعامل الكبير الناس بالعدل . وبذلك يكتفون شر المظالم الداخلية والخارجية .

أما إذا كان الرئيس ظالما فانه يكون شراً ووبالا على نفسه وعلى مرءوسيه فان المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه لأجله فتنقطع بينهم روابط القربى وعلاقات المودة ويمعن كل واحد فى الاضرار بالآخر . فضلا عما يسرى لهم من خلق الظلم فيتسلطون على خلق الله فيظلمونهم كما ظلمهم وبذلك يكونون من أشقى خلق الله

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من نيط به عمل مسئولا عن العدل فى ذلك العمل وليس العدل قاصراً على السلاطين وولاة الأمور . فقال عليه الصلاة والسلام « كلكم راع ومسئول عن رعيته . الامام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم . وهذا الحديث صريح فى أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة مايكلف به من الأعمال . فرئيس الأسرة والقبيلة يجب عليه أن يعمل على تحقيق العدل بينهم . فلا يظلمهم فى مطعم أو مشرب أو مسكن ولا يدنى هذا ويقصى ذاك بدون سبب يستدعى ذلك من عقوبة على ذنب ومكافأة على خير . ولا يهمل أمر تربيتهم

وتعليمهم مالهم وما عليهم من الواجبات . ولا يقصر مع واحد منهم فى تعليمه ماينفعه فى دينه ودنياه . ولا يذرهم يعتدون على أموال الناس أو أعراضهم . ويتعهد تهذيب نفوسهم وإصلاح أخلاقهم . فاذا ترك الرئيس شيئا من ذلك فانه يكون ظالما مسئولا عن تقصيره هذا وعن كل مايترتب عليه من المآثم بين يدى أحكم الحاكمين الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة وسيجزى الناس على أعمالهم يوم يبعثون

وأما المرأة فانها مسئولة عن تدبير منزلها بما يوافق حال زوجها . فلا ترهقه فى الانفاق ولا تظلمه بطلب مالا يقدر عليه ولا تخونه فى عرضه . ولا تفعل مايؤذيه . وكذلك يجب عليها أن تعدل بين أبنائها فيما بين يديها من طعام وشراب . فلا تفضل واحداً على صاحبه من غير حق بل تعطى كل واحد مايناسبه . فلا تحرم من تبغض وتجزل العطاء لمن تحب . فان خانت زوجها فى عرضه أو ماله . أو آذته بعصيانها . أو فضلت بعض أولادها على بعض كانت ظالمة تستحق عند الله سوء العقاب

وأما الخادم أو العامل فهو مسئول عن العمل الذى يسند اليه والمال الذى يؤتمن عليه . فاذا أهمل العامل عملا أو أداه ناقصا فقد ظلم سيده واستحق عقاب الله تعالى . وكذلك الخادم إذا خان سيده فى مال كأن كلفه بشراء شىء فزاد فى ثمنه وأخذه لنفسه أو أهمل مساومة التاجر فغبنه فى السلعة أو رأى أحداً يعتدى على مال سيده فلم يرده أو كلفه بالانفاق على عمل فأسرف فيه بدون حق أو غير ذلك فانه يكون آثما ظالما يستحق العقوبة التى أعدها الله للظالمين فى الدنيا والآخرة

ومن هؤلاء الصناع الذين يتعاقدون على عمل شىء ثم لايجيدون صنعه ويغشون الناس فان لهم عقاب الظالمين وعليهم إثم الغاشين . كالبنائين والنجارين والحدادين ونحوهم . فان هؤلاء جميعا مكلفون بالعدل فى صنائعهم بأن يجيدوها ولا يتركوا باباً من أبواب الخلل إلا أصلحوه . ومتى فعلوا ذلك لوجه الله تعالى وابتغاء ماعنده . فان الله يبارك لهم فى أجورهم فى الدنيا ويثيبهم على ذلك فى الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » رواه ابن حبان فى صحيحه . فهؤلاء مسئولون جميعا عن العدل فى أعمالهم فمن حفظ ماوكل اليه من الأعمال فله جزاء الحسنى . ومن ضيعه فله سوء العذاب .

الرحمة والاحسان والرفق

هذه الصفات من أجل الصفات الانسانية الممدوحة وهى كالعدل . والكرم من الصفات التى يشارك الانسان خالقه فى الاتصاف بها وإن كانت صفات الانسان حادثة يمكن تحديدها . وأما صفات الاله فهى تابعة لذاته فى التعقل . فكما أن ذاته تعالى قديمة لاأول لها ولا آخر لوجودها . فكذلك صفاته . وإنما تعرف بآثارها التى تعجز صفات الحوادث عن التعلق بمثل ماتتعلق به . فالرحمة رقة فى القلب تستلزم معاملة الناس بالاحسان وهو التفضل باسداء الجميل . ولكنها فى الاله سبحانه صفة

تسع التائبين من المذنبين والكافرين فيمحو الله عنهم برحمته ماافترفوه من سيآت وارتكبوه من جرائم. وتسع الانسان والحيوان والدواب فيسخر لهم برحمته من وسائل الرزق وأسباب الحياة من ماء وهواء ونبات وشمس وقمر وحر وبرد ما لولاه لهلكوا. وتسع العصاة الذين يفسدون فى الأرض إلى أجل ما حتى يكون لهم الوقت الكافى لمراجعة أنفسهم والكف عن عصيانهم. وتسع كل شيء فى هذا الوجود كما قال تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء)

أما حقيقة هذه الرحمة فليس علينا أن نعرفها إذ لم يكلفنا الله بها وهيهات أن نعرفها أو نقف على حقيقتها بل الذى علينا أن نؤمن بأن الله رحمن رحيم وأن نعرف أن رحمته وسعت كل شيء كما بينا ونؤمن بأنه تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن مماثلة الحوادث ذاتا وصفة. هذا معنى الرحمة. ومثلها الرأفة إلا أن الرأفة زيادة الرحمة. وأما الاحسان فانه ينقسم إلى قسمين

الأول : إحسان الشيء بمعنى إتقانه وهذا يتعدى بنفسه فيقال أحسنه إذا أتقنه وقد فسر بأنه الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق وفسره صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح بأن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وهذا هو معنى الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق لأن من يراقب الله فى أعماله وقلبه ممتلىء بجلاله وعزته حتى كأنه ماثل أمامه فانه لابد أن يأتى بها على الوجه اللائق فلا يخرج عن الحدود التى سنها الله تعالى . وكذا من كان يعمل وهو مؤمن بأن الله مطلع عليه لاتخفى عليه خافية من أمره فانه لايعمل الا ما أمره به على الوجه الأكمل. وهذه المرتبة أقل من الأولى لأنه فى الأولى يعمل كأن الله حاضر أمامه بذاته فيستحى منه كل الحياء. وأما الثانية فانه يرى الله غائبا عنه ولكنه حاضر بعلمه فيحذره ويخشاه

الثانى : الاحسان بمعنى التفضل وهو يتعدى بالى فيقال أحسن إلى الناس إذا تفضل عليهم وأسدى اليهم الجميل فضلا منه وكرما. فالاحسان هو أن يفعل الانسان الواجب عليه مع الناس ويزيد عليه فهذه الزيادة فى عمل البر والخير مع الأفراد والجماعة تسمى إحسانا . وقد فسر بعضهم الاحسان بترك الاساءة فمن فعل الواجب مع الناس وكف عن الاضرار بهم كان محسنا وإن لم يسد اليهم من المعروف أكثر من ذلك

وأما الرفق فهو اللطف وأخذ الأمور بأحسن الوجوه وأيسرها . وضده الخرق - بالضم - مأخوذ من خرق كتعب إذا عمل عملا لم يرفق فيه . ويضاد الرفق أيضا العنف وهو الشدة والمشقة وهل يجوز أن يسمى الله رفيقاً أولا . الصحيح أنه يجوز لأنه ورد فى الأحاديث الصحيحة تسميته بذلك وهو كاف فى صحة التسمية . وقد سأل عمرو بن العاص ابنه عبد الله فقال له ما الرفق قال أن تكون ذا إناة وتلاين الولاة . قال فما الخرق قال معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقال سفيان بن عيينة لأصحابه أتدرون ماالرفق قالوا قل ياأبا محمد قال أن تضع الأمور فى مواضعها . الشدة فى موضعها واللين فى موضعه . أخرجه ابن أبى الدنيا وهو وما قبله يوضح لك معنى الرفق فان التأنى فى الأمور وعدم العجلة فيها يفضيان إلى إدراكها على وجه صحيح ومعالجتها بما يناسبها وأخذها بأحسن الوجوه وأيسرها وتصريفها على حسب ماتقتضيه من الشدة واللين فيضع كل شيء موضعه فلا يستهين بمن هو أكبر منه قوة ولا يناوئ من يستطيع

الاضرار به ولا يرضى بالدنيئة من الأمر . فهذا هو الرفق ومنه تعلم أنه لايوجد إلا مع الحلم لأن الثورة وطغيان الغضب لايتأتى معهما تصريف الأمور على هذا الوجه كما سيأتى فى الحلم . ولهذا قيل إن الرفق بنيّ الحلم - تصغير الابن - ثمرته ونتيجته . أخرجه ابن أبى الدنيا . أما الخرق فانه قد يوجد مع عدم الغضب لانه قد يكون مسببا عن البلادة والجهل بعواقب الامور

وإذ قد علمت هذه الصفات فاعلم أنها كلها ممدوحة فى نظر الدين الاسلامى لما يترتب عليها من إسداء الخير الى الناس والعناية بهم لان الدين الاسلامى يرى أن الخير كل الخير فى معاملة الناس بالحسنى وأن الانسان فى هذه الحياة لم يخلق لنفسه فقط بل عليه واجبات وحقوق يؤديها للمجتمع وهذه الحقوق تختلف باختلاف علاقته بغيره شدة وضعفا وقربا وبعداً . وكل ذلك سيأتى بيانه فى الجزء الثانى إن شاء الله على أتم وجه . فلنذكر لك هنا بعض مايترتب على كل صفة منها من الآثار النافعة مع ذكر الاحاديث الصحيحة الدالة على فضلها

آثار الرحمة

فاما الرحمة فانه يترتب عليها من الفوائد النافعة للأفراد والمجتمع مايأتى

أولا : الكف عن الاعتداء على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم . لان رحماء القلوب لايؤذون غيرهم واذا وقع من أحدهم مايؤذى قهراً عنه فانه يتالم له كل الالم ولا يستريح الا اذا تحلل ممن لحقه اذاه . فاذا لم يكن فى الرحمة الا هذا لكفى بها فضيلة يتقى بها أشد الاخطار التى يتعرض لها بظلم الناس فى الدنيا والآخرة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) » رواه البخارى ومسلم والترمذى . فالظالم لابد أن ياخذه الله بظلمه وينتقم منه وان صبر عليه .

ومعنى قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك) اى مثل ذلك الأخذ والاهلاك المتقدم ذكره فى الآيات السابقة لقوم عاد وثمود وآل لوط وغيرهم . (أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة) فان الله تعالى يصبر عليهم ويمدهم فى طغيانهم ثم بعد ذلك ينتقم منهم شر انتقام . فكل فرد أو جماعة يظلمون الناس لابد أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء الظالمين فى دار الدنيا مهما طال الأمد ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما المفلس قالوا المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع فقال ان المفلس من امتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة . ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ماعليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم والترمذى . فمن لم يتحلل من حقوق الناس ويرد لهم مظالمهم فى الدنيا كانت حاله فى الآخرة هكذا . ان كانت له حسنات ياخذون منها فان وفت فذاك والا طرح فى النار . وقد ورد فى الحديث

ـ وسفك دم هذا ـ ومعنى سفك الدم اراقته فلا يلزم منه ازهاق الروح اذ قد يريق دمه بشج رأسه أو اتلاف عضو منه اما قتل النفس عمداً فانه لا يبقى معه حسنات فان الله تعالى قال (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه) ولهذا قال بعض أئمة المسلمين ان قاتل النفس بغير حق يخلد فى النار كما يخلد الكافر وسواء كان هذا القول صحيحا أو كان الصحيح أنه لايخلد خلود الكافرين وأن معنى الخلود طول المكث فان قول الله هذا يتجلى فيه غضبه على القاتل ويظهر منه شدة وعيده وتهديده اياه وما كان الله ليقول ذلك لعبا بل لابد من ان يجزى ذلك المجرم الأثيم أسوأ الجزاء ويعاقبه اشد العقاب وكفى به اثما ان يذكر عقابه كعقاب الكافرين ويجعل جزاءه الخلود فى نار السعير وقانا الله السوء بمنه وكرمه

من هذا تعلم ان عاقبة التعدى على الناس وظلمهم شر كبير وبلاء عظيم فى الدنيا والآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض او من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته وان لم تكن له حسنات اخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخارى والترمذى

فاحسن مايفيد المرء فى ذلك أن يجتهد فى ترضية الناس ويعمل على رد حقوقهم ان استطاع الى ذلك سبيلا فان لم يستطع فعليه أن ينوى سدادها عند القدرة ويطلب منه العفو عما يستحيل عليه الوصول اليه اما التعدى على الأعراض فانه لا يلزم ذكره مفصلا لأنه يؤلم صاحبه وربما زاده حقدا وغضبا فلا يصفح ابدا بل الحق انه يكفى فيه ترضيته من طريق أخرى حتى اذا رضى يطلب منه أن يعفو عنه فيما فرط منه فى حقه مطلقا وسيأتى تتمة الكلام فى مبحث التوبة فى الجزء الثانى

ثانيا . تأدية مافرضه الله على الانسان من زكاة مال او انقاذ نفس معصومة من الهلاك لأن الرحماء لايستطيعون أن يروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ان اخوانهم فى الانسانية يتضورون جوعا ويمشون عراة وهو متمتع بالمال الزائد عن حاجته وحاجة من يعول

ثالثا . إغاثة الملهوف واعانة المكروب وقضاء حوائج الناس على قدر ما يستطيع لأن رحمته تدفعه الى ذلك وبذلك يكون خيرا وبركة على نفسه وعلى الناس ويكون من العاملين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة قيل ارأيت ان لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قال ارأيت ان لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قال قيل له ارأيت ان لم يستطع قال يأمر بالمعروف أو الخير قال ارأيت ان لم يفعل قال يمسك عن الشر فانها صدقة » رواه البخارى ومسلم . وقوله صلى الله عليه وسلم « لايزال الله فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة اخيه » رواه الطبرانى

والحديث الاول يفيد ان الانسان مكلف بمعونة غيره اما بالمال او بالعمل او بالقول فان كان له مال فانه يجب عليه ان يخرج منه مافرضه الله عليه فان زاد على ذلك فانه صدقة واحسان يضاعف الله عليه الأجر فان لم يكن له مال فانه لايصح ان يكون عالة على الغير بل عليه ان يكسب المال بعرق جبينه وعمل يده لينتفع هو وينفع غيره بقدر مايتاح له .فان لم يستطع فعليه أن يعين المكروب ويساعده

فى عمله مساعدة بدنية فان لم يستطع فليعمل بلسانه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فان لم يفعل فليكف الناس شره وهذه اقل المراتب وأدناها

اما الحديث الثانى فانه يدل على مقدار فضل قضاء حاجات الناس والسعى فى مصالحهم فان من يقضى بحاجة اخيه يكون الله له عونا فى حاجته ومن كان الله له عونا فانه لن يشقى ابدا ويحفظ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة . اما اذا ضن على الناس بما أنعم الله عليه من جاه ونعم وبخل عليهم بمعونته فان الله يتخلى عنه وبذلك تتعرض نعمته للزوال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن عبد انعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبرانى باسناد جيد . وقال عليه الصلاة والسلام« من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه »رواه مسلم وغيره

فانظر الى ماتضمنته احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحث على معونة الغير فانها صريحة فى ان الانسان لم يخلق لنفسه فقط وأن السعادة فى الدنيا ليست عبارة عن الحصول على اكبر نصيب من شهوتى البطن والفرج وأوفر حظ من المال والبنين والجاه والسلطان من غير مبالاة بما يصيب من حوله من اذى أو يلحقهم من بؤس وشقاء كلا بل السعادة الحقيقية فى دار الدنيا هى ان يتعاون الانسان مع اخوانه فى قطع مراحل الحياة ويمدهم بما اتاه الله من مال أو علم أو جاه أو سلطان وهو مع ذلك لاينسى نصيبه من التمتع بالحلال الطيب من رزق الله ولا يهمل واجبا من واجباته تعالى . هذه هى السعادة التى ينبغى ان يتنافس فيها المتنافسون ويتبارى فى تحصيلها المجتهدون ويتسابق فى ميدانها المتسابقون ومن ظفر بهذا فى دار الدنيا فقد ظفر بالسعادة الكاملة من نعيم خالد مستمر وملك دائم مقيم فى دار الآخرة كما تقدم فى معنى السعادة

رابعا . تبعثه الرحمة الى مواساة جاره فلا يطيب خاطره أن يرى نفسه يمرح فى نعم الله عليه فيأكل انواع الطعام ويشرب لذيذ الشراب ويلبس فاخر الثياب الى غير ذلك من انواع اللذات ثم يرى الى جانبه جاره يذوق مرارة البؤس والشقاء فيبيت يطوى على الجوع وحوله صبية عضهم الشقاء بنابه فلم يذوقوا لنعيم الدنيا طعما ولم يعرفوا له وصفا لاشك أن الرحماء لايصبرون على هذا ولا يستطيعون الاغضاء عنه فيؤدون مافرض الله عليهم نحو جيرانهم البؤساء ويمدون اليهم يد المعونة وذلك من فضائل الأعمال فقد قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن الذى ليشبع وجاره جائع» رواه الطبرانى ورواته ثقات ورواه غيره وقال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليقل خيرا أو ليسكت »رواه مسلم . وقال عليه الصلاة والسلام« خير الاصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ورواه غيره الى غير ذلك من الاحاديث الدالة على ضرورة العناية بالجار كما سيأتى فى الواجبات الدينية

خامسا . تبعثه الرحمة الى مواساة اليتيم وكفالته ومعونة الأرامل والمساكين ومساعدة البؤساء والمضطرين . وذلك من خير أعمال البر وأفضل مايدخره الانسان لينفعه فى دنياه وآخرته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . واشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخارى وابو داود والترمذى . ومعناه أن كافل اليتيم له منزلة فى الجنة رفيعة لأنه يكون جار النبي صلى الله عليه وسلم وقريبا منه وفى هذا الحديث اكبر حث على ايواء اليتيم وتربيته حتى لايتعرض فى هذه الحياة لمحن الايام وينشأ عضواً فاسدا فى الهيئة الاجتماعية فمن يوفق الى كفالة يتيم كان له ذلك الأجر العظيم مالم يرتكب من الجرائم ما يحول بينه وبين هذه المنزلة فقد ورد فى حديث آخر صحيح أنه تكون له هذه المنزلة مالم يعمل ذنبا لا يغفر

وبالجملة فصفة الرحمة تدفع الى كل الفضائل الانسانية وتقضى على صاحبها بأن يؤدى للناس مايجب عليهم نحوه وزيادة . ولكن ينبغى أن لا تكون الرحمة سببا فى الخروج عن حدود الدين مثلا الحاكم فانه يجب عليه أن يقتص من الظالم وأن يعاقب المجرم فاذا دفعته رقة القلب الى الاغضاء عن السارق مثلا أو ذهب به الى ترك الزانى فانه يكون مذموما كل الذم بل يكون جاهلا بمعنى الرحمة والشفقة لأنه إذا رحم فردا بترك عقوبته فقد قسا على الجماعة وظلمهم ظلما مبينا لأن الجرائم تفشوا بينهم بكثرة المجرمين الذين لايخافون عقوبة ولا يخشون قصاصا وبذلك تسود الفوضى ويختل النظام وتتعرض الامة بتمامها للفناء ولهذا قال الله تعالى (ولكم فى القصاص حياة ياأولى الالباب) . وقال تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله)

وكذلك الشاهد الذى تذهب به رحمته الى الشهادة بغير الحق رحمة بمن اذا شهد عليه بالحق يفلس فى تجارته ولا يجد قوت أولاده أو تضيع أرضه التى يعيش منها فان هذا يكون مذموما لان الله تعالى أمر باداء الشهادة على وجهها بقطع النظر عن فقير وغنى لانه هو وحده يتكفل بامر الفقير وهو أولى به لانه إذا فتح باب الزور هدد النظام وضاعت الحقوق وكثرت الجرائم واضطرب أمن الناس وذلك شر عام عظيم لايعادله افلاس فرد أو أفراد . فالرحمة الممدوحة هى التى تكفه عن إيذاء الناس وتدفعه إلى أن يؤدى ما عليه من الحقوق والواجبات سواء كانت لله أو لعباد الله وقد ذكرنا لك أمثلة ذلك . ولهذا حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحمة ونعى على قساة القلوب فقد قال رسول الله ﷺ « من لايرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم وغيرهما وقال صلى الله عليه وسلم « من لايرحم من فى الارض لايرحمه من فى السماء » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى . وقال عليه الصلاة والسلام « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم » من حديث رواه أحمد باسناد جيد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم صلى الله عليه وسلم « يقول لا تنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داود وغيره . وعن عائشة رضى الله عنها قالت جاء أعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخارى ومسلم ومعناه أن النبى ﷺ يوبخه على هذا ويعرض بأن هذه قسوة مذمومة فهو يقول له وماذا أصنع لمثلك الذى نزع الله الرحمة من قلبه . ولقد وصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالرحمة والشفقة على الضعاف من خلق الله ولو كانوا بهائم فقد روى عن معاوية بن قرة عن أبيه رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله إنى لأرحم الشاة أن أذبحها فقال «إن رحمتها رحمك الله» رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته فقال النبى صلى الله عليه وسلم «أتريد أن تميتها موتات هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها» رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى. ورواه غيره

وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى كما وردت أحاديث فى الحث على الرحمة بالخدم وغيرهم فمن ذلك ما رواه مسلم وغيره عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال « كنت أضرب غلاما لى بالسوط فسمعت صوتا من خلفى اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبداً» وفى رواية «قلت يارسول الله هو حر لوجه الله تعالى فقال أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»

فانظر الى رحمة رسول الله ﷺ وعطفه على الضعيف وانظر الى طاعة المسلمين له وتأثرهم بأمره ونهيه فان ابا مسعود حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم متأثراً من ضرب الرجل ويحذره بطش ربه وقدرته لم يجد وسيلة يكفر بها عن ذلك سوى عتق ذلك المملوك . وامثال هذا كثير سيرد عليك فى الواجبات ان شاء الله

الاحسان

وأما آثار الاحسان فهى الخير الكثير الذى ينفع المحسنين وينفع عباد الله تعالى سواء كان الاحسان بمعنى التفضل والزيادة على الواجب أو كان بمعنى الاتقان أما الأول فظاهر لأن الذى يفعل مايجب عليه لله وللناس ثم يزيد على ذلك فانه يكون ذا فضل عظيم على نفسه وعلى الناس واما الثانى فهو ينقسم الى قسمين القسم الاول إتقان الاعمال المتعلقة بامور الدنيا من صناعة وتجارة وزراعة ونحو ذلك فالصانع اذا أتقن صناعته وأجاد عمله فانه ينفع نفسه وينفع الناس لأن اتقان العمل الصناعى ينتج أجل الفوائد للمجتمع إذ يوفر على الناس كثيراً من أموالهم التى تذهب سدى فى سبيل خلل الاعمال وكذلك يوفر عليهم كثيراً من الوقت الذى يقطعه الجاهل فى معالجة عمله . ويسد عليهم حاجتهم التى يبتغونها من العمل وهو باتقانه يخدم نفسه لأن ثقة الناس به تقوى واقبالهم عليه يزيد فتروج صناعته ويصبح بين الناس ذا سمعة حسنة وهى رأس مال الصانع التى عليها مدار حياته واستمرار عمله . اما الصانع الذى لايجيد صنعته ويهمل فيها فانه بذلك يغش الناس ويظلمهم فى أموالهم ويضيع عليهم وقتهم وربما أضاع عليهم فرصا كثيرة كانوا ينتفعون بها من وراء جودة الصناعة وعدم خللها

وهو بذلك يهدم نفسه ويرفع ثقة الناس به فتكسد صنعته ويعيش بائسا فقيراً . بخلاف التاجر الذى يتقن العمل فى تجارته ويراقب الله تعالى فلا يكذب ولا يغش ولا يبيع للناس الا أجود الأنواع وأحسنها ولا يغبنهم فى البيع فيربح منهم زيادة عن غيره ولا يبيعهم ما يظهر فيه عيب فى المستقبل. ولا يضايقهم فى رغباتهم فانه بذلك يخدم نفسه ويخدم أمته أما التاجر الغاش المهمل الذى يغبن الناس فى بيعه وشرائه فبشره بانصراف الناس عنه وافلاسه فى العاجل القريب

وكذلك الزارع الذى يتقن عمله فانه يخدم أمته باخراج ما ينفعهم ويخدم نفسه بالانتفاع بثمرات زرعه. وهكذا كل من يناط به عمل من أمور الدنيا فانه مكلف باتقانه فى نظر الدين فان أهمل فيه وكان ذلك الاهمال يفضى إلى الاضرار بالناس كان حراما أما إذا لم يضر أحدا فانه لا يعاقب عليه عقاب المجرم ولكنه نقيصة لا يرضا ها الدين لأن كل فرد لا يصح له أن يرضى بنقص فى عمله وهو يستطيع أن يسده ولا يصح له أن يهمل أمراً ينفع غيره الا إذا عجز عنه . يرشد الى ذلك الحديث المتقدم فى مبحث الرحمة من أنه على كل مؤمن صدقة فانه مكلف باسداء الجميل للناس فاذا عجز كف عن عن اساءتهم فالكف عن الاساءة أقل مراتب الانسانية

القسم الثانى . أداء مافرضه الله عليه من حقوقه أو حقوق عباده على الوجه الأكمل فمن أتقن صلاته وصيامه وحجه وأخرج زكاة ماله طبقا لقواعد الدين وأداها خالصة لوجه الله تعالى بدون رياء ولا سمعة وليس له غرض فاسد من ورائها وانما يفعلها امتثالا لأمر ربه وأدى ما فرضه الله عليه من حقوق عباده كبر الوالدين وصلة الارحام والانفاق على الأهل والاقارب ونحو ذلك مما سيأتى فانه بلا شك يكون خيراً وبركة على نفسه وعلى الناس ولهذا فسر رسول الله ﷺ الاحسان بان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ومن يفعل ذلك فقد كف عن ظلم الناس وظلم نفسه وأسدى الجميل الى نفسه والى الناس وكان من الفائزين

الرفق

وأما آثار الرفق فهى تصريف الامور على الوجه الأتم وعدم التعرض للأخطار والصدمات التى قد تودى به وهذا خير عظيم ينفع المرء فى حياته . روى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية كتابا يستعجله أمراً ويحضه على اغتنام الفرصة فكتب له معاوية أما بعد فان التفهم فى الخير زيادة رشد وان الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الاناة وان المتثبت مصيب أو كاد يكون مصيبا وإن العجل مخطىء أو كاد يكون مخطئا . وان من لا ينفعه الرفق يضره الخوف . ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالى اخرجه ابن ابى الدنيا . فقوله ان التفهم فى الخير أى فهمه شيئا بعد شىء فلا يستعجل فيه فيفهمه بدون تأمل . وقوله زيادة رشد أى زيادة علم فلا يضل الصواب لأن الرشد ضد الغى والضلال فالرشيد هو الذى لا يعجل فى أمره والاناة بالكسر بمعنى التأنى فما لاريب فيه أن الرفق فى الأمور خير وبركة على الفرد والجماعة فان الأخرق يضر بنفسه ويضر بغيره ممن لهم به

علاقة لهذا قال رسول الله ﷺ «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله» رواه البخارى ومسلم وقال ﷺ «الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ولا ينزع من شىء الا شانه» رواه مسلم وقال ﷺ «من أعطى حظه من الرفق فقد اعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير» رواه الترمذى

واذ قد عرفت أن الرفق يستلزمه الحلم فان الآثار المترتبة على الحلم من خير المجتمع والافراد تترتب على الرفق وسيأتى بيانها مفصلة فى مبحث الحلم

الحلم وكظم الغيظ

الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب . أو احتمال الأعلى الاذى من الادنى وهو يرجع الى الاول لان من احتمل الاذى ممن دونه مع القدرة عليه فقد ضبط نفسه عند الغضب ولا يسمى الانسان حليما الا إذا كان ذلك طبعا له لا تكلف فيه . فاما ضبط النفس عند الغضب مع التكلف فهو تحلم لا حلم وهو يسمى كظم الغيظ . فاذا تكلف الانسان الحلم بأن كظم غيظه مرة بعد أخرى اصبح الحلم عادة له

وأصل الكظم شد رأس القربة عند امتلائها فيقال كظم القربة اذا ملأها وشد رأسها وكظم الباب سده . شبه به من أمسك نفسه عند امتلائها بالغضب فلا ينتقم ممن أهاجه ومنه فلان كظيم بمعنى ممتلى حزنا . والغيظ مرادف للغضب الا أن الغيظ لا ينسب الى الله تعالى بخلاف الغضب . وقيل ان بينهما فرقا وهو أن الغضب يتبعه ارادة الانتقام حتما أما الغيظ فلا . وعلى كل حال فمعنى الكاظمين الغيظ المحتملين الغيظ الذين كفوا انفسهم عن الانتقام مع القدرة عليه

وقد علمت مما تقدم أن ذلك يكون ممدوحا إذا لم يترتب عليه اخلال بالدين والا كان جبنا فمن حلم على من يعتدى على دينه أو عرضه أو ماله ولم يكفه عن ذلك نال منتهى الذم نعم قد علمت انه ينبغى لمن يدافع عن الفضيلة أن يضبط نفسه عند الدفاع فلا يسرف فى الانتقام ولا يتجاوز الحد المشروع لرد المعتدين والا كان متهوراً ظالما فالشجاعة فى نظر الدين تستلزم الحلم لانك قد عرفت ان ليس الشجاعة مجرد القوة التى يستطيع بها المرء مواجهة الاخطار بل لابد معها من ضبط النفس عند الغضب حتى يتمكن من اتباع سنن الدين فى الدفاع على الوجه الذى بيناه لك فيما تقدم

ما يترتب على الحلم من الآثار والمنافع

يترتب على الحلم آثار جليلة . ومنافع عظيمة يعرف الفرد أو الجماعة قدرها . إذا طغى الغضب فأثار النفوس وأسعر نار الفتنة . فاضطربت الأمور واستحكمت العداوة

والبغضاء واستولى على النفوس حب النزاع والصدام وحبب اليها الفتك والتدمير وسهل عليها القضاء على الأنفس والأموال والأعراض وعذب لديها تخريب الديار . والاستهانة بالنظام ونسيت مايجره الطيش والتهور من بلاء دائم وشقاء مستمر . وينتجه من نتائج قد تغير مجرى الحياة فتبدل العز ذلا والسعادة نحسا والربح خسرانا والأمن خوفا والطمأنينة قلقاً وراحة النفس عذابا . عند ذلك يعرف الناس فضل الحلم ويكبرون قدر الحليم . فان الحليم هو الذى يدفع بحلمه كل هذه الشرور لأنه يستطيع أن ينظر إلى كل أمر من الأمور نظراً صادقا ويقدره تقديرا صحيحا ويزنه بميزان عادل فلا يستخفه الغضب والطيش فيدفعه إلى المخاطر ويسوقه الى مالا قبل له به . وربما كان زعيم قوم وقائد جماعة فيعرضهم بطيشه الى الهلكة والدمار . وينقذهم بحلمه من مزالق الفناء ومواطن البوار

فالحلم خير وقاية تقى مصارع السوء وتحفظ من الوقوع فى مواطن الهلاك

ولهذا أمثلة كثيرة بين الجماعة والأفراد . فلنذكر هنا المهم منها ليتضح لك الأمر وتتجلى لك الحقيقة من جميع الجهات .

المثال الأول الحاكم إذا كان حليما لايستفزه الغضب الى ابرام الأمور قبل التثبت منها فانه يكون نعمة وبركة على نفسه وعلى أمته لأن التثبت فى الأمور قبل إبرامها يستلزم العدل واعطاء كل ذى حق حقه وجزاء كل فرد بما هو أهله . وبذلك تسعد أمته وتدوم دولته وترتفع مكانته عند الله وعند عباده . فيرضى عنه ربه فيستجيب له إذا دعا ويهيئ له وسائل النصر والظفر على الأعداء ويديم عليه نعمه فى الدنيا والآخرة كما قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لاترد دعوتهم . الصائم حتى يفطر . والامام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » رواه أحمد والترمذى وغيرهما . وقال عليه الصلاة والسلام « عبادة يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » من حديث رواه الطبرانى باسناد حسن . إلى غير ذلك من الأحاديث الكريمة الدالة على فضل الحاكم العادل وما له من المنزلة عند الله تعالى وعلى العكس من ذلك الحاكم الجائر الذى يستفزه الغضب فيحمله على الانتقام من الضعفاء وظلم الأبرياء من غير تثبت ولا دليل . ويكفى مثل هذا تخويفا وتحذيراً قول رسول الله ﷺ « إن دعوة المظلوم لاترد وإن الله تعالى يرفعها فوق السحاب ولا بد أن ينصره ولو بعد حين » فالمظلوم يغضب الله من أجله ويستجيب له دعوته وينتقم له ممن ظلمه فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وقد تقدم تفصيل ذلك فى مبحث العدل

المثال الثانى . زعماء القبائل والعشائر ورؤساء الأسر إذا كانوا حلماء فانهم يرفعون عن أتباعهم كثيرا من الأذى ويدفعون عنهم شر التنازع والخصومات مع بعضهم بعضا أو مع غيرهم . فان الحليم يمكنه أن يعالج الأمور بالهدوء ويفكر فى الوسائل التى تزيل الضغائن والأحقاد . فيقبض على ناصية الأمور ويصرفها بالحكمة وبذلك يستميل اليه الخصوم ويثنيهم عن الشر ويأخذ منهم بحلمه ولينه مالم يستطع أخذه بجاهه وقوته فتحسم مادة الشر ويحل الوئام محل الخصام . ومثل هؤلاء الزعماء القضاة اذا اتصفوا بالحلم . فان القاضى الحليم يستطيع أن يهتدى الى الصواب ويعرف الحق الذى ينشده . لأن سعة صدره لاستماع كل مايذكره الخصوم وحلمه عليهم حتى يدلوا اليه بكل حججهم ويبينوا له كل

مايستطيعون من طرق الاثبات . لهى من خير الوسائل التى تفيده فى استنباط الحق ومعرفة الزائف من الصحيح . أما اذا كان سريع الغضب لايصبر على سماع حجة ولا يطيق مناقشة دليل فان خطأه يكون أكثر من صوابه وضرره يكون أكثر من نفعه

المثال الثالث . المربى اذا كان حليما فانه ينتج أحسن النتائج ويؤدى لأمته أجل الخدم وأفضلها لأنه يستطيع بحلمه أن يتبين مواضع الضعف من نفس القائم على تربيته فيعالجه بما يناسب حاله حتى يشب صالحا نافعا خصوصا اذا كان قائما بتلقينه العلم فان ملقن العلم اذا لم يكن حليما فانه يضيع على من يعلمه أحسن الفرص فى حياته لأنه يحرمه من مناقشة الحقائق العلمية التى يتمكن بها من معرفة الخطأ من الصواب والحق من الباطل ويتدرب بها على المناظرة المفيدة للفكر فضلا عما تتركه حماقة المربى من الأثر السيء فى نفس الطالب . فان عدواها تسرى اليـــه من استاذه ويكون شراً على نفسه وعلى الناس .

المثال الرابع . الزوج مع زوجه . اذا كان كل منهما حليما فانهما يعيشان عيشة راضية مرضية اذ يغضى كل منهما عن هفوات صاحبه فلا يثيران نزاعاً لأيسر الأمور وأحقر الأسباب خصوصا اذا كان لهما أبناء تتطبع فيهم أخلاقهما وتنقل اليهم صفاتهما فان فضل الحلم فى هذه الحالة عظيم وضرر الحماقة شديد لما يصيب الأبناء من نفع الاول وضرر الثانى . فالحلم فى الحياة الزوجية سعادة عاجلة وآجلة وخير عظيم للأسرة بتمامها .

المثال الخامس . التاجر اذا كان حليما . فان تجارته تكون رائجة . واقبال الناس عليه يكون كثيرا . لان حلمه يرغبهم فى معاملته . أما اذا كان أحمق يثور غضبه لاهون الاسباب وأيسر الامور فيؤذى بلسانه من لم يسوّم سلعته بالثمن الذى يحب أو يمنع عنه السلعة . فلا يمكنه من اعادة النظر اليها أو يحلف الأيمان بأنه لايبيعها منه . الى غير ذلك مما يفعله كثير من الباعة حماقة وجهلا فانه من أكبر الأسباب فى كساد تجارتهم لانصراف الناس عنهم ونفرتهم من معاملتهم وقد يفضلون معاملة الحليم حتى ولو كانت سلعته أقل جودة من سلعة ذلك الأحمق . فكما أن الصدق من وسائل نجاح التاجر فكذلك الحلم . ومثل التاجر الصانع . فان الصانع الأحمق تنفض القلوب من حوله ويأبى الناس معاملته خوفا من شره فلا يعامله أحد ويظل فقيرا بائسا . أما الحليم فانه يكون محببا للنفوس يستريح معه الناس فتروج صنعته ويعيش بها سعيدا . فكما أن الكذب سبب فى بوار الصانع وعطلته فكذلك الحماقة والغضب

فالحلم نافع للأفراد والمجموع والرئيس والمرءوس والتاجر والصانع والزارع ومفيد للناس أجمعين بشرط أن يستعمل فى موضعه كما ذكرنا آنفاً

﴿ وبعد ﴾ فلنذكر هنا أمثلة من حلم رسول الله ﷺ ليقتدى به المسلمون . ويهتدى بهديه المسترشدون فانه عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أخلاقا وأكثرهم حلما كما وصفه الله تعالى بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) فمن ذلك مارواه جابر رضى الله عنه أنه ﷺ « كان يقبض للناس يوم حنين من فضة فى ثوب بلال فقال رجل يانبى الله اعدل فقال رسول الله ﷺ ويحك فمن يعدل اذا لم أعدل فقد خبت اذاً وخسرت إن كنت لاأعدل فقام عمر فقال ألا أضرب عنقه فانه منافق فقال معاذ الله

أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » رواه مسلم . وكان رسول الله ﷺ فى حرب « فاستظل تحت شجرة بعيداً عن أصحابه وقد علق سيفه بتلك الشجرة . فجاء رجل مشرك فأخذ سيف رسول الله المعلق ووقف على رأسه وفى يده السيف ثم قال للنبى ما يمنعك منى فقال ﷺ الله عزوجل يمنعنى منك فدهش الرجل فى نفسه وسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف من الأرض وقال من يمنعك الآن فقال الرجل كن خير آخذ قال قل أشهد أن لا إله إلا الله فقال لا غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فجاء الى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس » ومعنى هذا الحديث متفق عليه

وروى ابن القيم أن رسول الله ﷺ « كان يقسم تمراً فى عرجونه فى يوم شديد الحر فهجم عليه أعرابى فضايقه فضربه رسول الله بعرجونة فقال له الرجل أتضربنى يارسول الله فقال له خذ فاقتص فقال له بل عفوت يارسول الله »

وروى أيضا أن معاذاً شبح رأس رجل فطالب قومه بالقصاص فرضاهم رسول الله ﷺ بمال حتى يعفوا فرضوا به فقال لهم عليه الصلاة والسلام انى سأعلن ذلك فى ملا من الناس فقالوا نعم فذكره صلى الله عليه وسلم فى اجتماع ثم قال لهم هل رضيتم فقالوا لا . فلم يغضب عليهم واختلى بهم مرة أخرى وزاد لهم فى المال حتى رضوا فقال لهم انى سأذكر ذلك فى جمع فقالوا نعم ففعل ثم قال لهم هل رضيتم قالوا رضينا » فاذا تأملت فيما ذكرنا من تلك الامثلة ترى أن رسول الله ﷺ كان يصفح عن كل ماليس له مساس بالدين ويعفو حيث يكون للعفو أثر صالح وينسى نفسه الكريمة عند الحق والعدل . فانظر الى عفوه عن الرجل الذى أراد قتله فانه لفت بعفوه نظر الرجل الى مكارم أخلاقه ﷺ . وذهب الى قومه فقال لهم جئتكم من عند خير الناس وفى ذلك من توجيههم الى النظر فى تعاليمه والبحث فيما جاءهم به من عند ربه ماقد ينتج اسلامهم وهدايتهم وتلك هى النتيجة التى يسعى اليها رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . وكذلك عفوه عن الرجل الذى قال له اعدل يارسول الله فانه عله ﷺ بقوله انه اذا اقتص منه كما قال عمر يقول الناس ان محمداً يقتل أصحابه وذلك خطر شديد على الدعوة الى الله لأن الناس ينفرون عنه ويخشون الاجتماع عليه . وهذا هو الذى بيناه لك من أن الحليم الذى لايستفزه الغضب يستطيع أن يتدبر فى عاقبة الأمور وينظر الى ماعساه أن يقع ولو تقديراً فيحكم حكما لايكون وراءه ندم على أى حال . وكذلك حلمه مع الاعرابى الذى قال له أتضربنى يارسول الله فانه ﷺ لم يتماد فى غضبه ولم يستنكر من الاعرابى استفهامه الذى فيه مطالبة بحقه فقضى عليه حلمه أن يخضع للحق وأن يقول للأعرابى خذ العرجون واقتص منى . ألا ان فى ذلك لابلغ العظات وأجل المثل

فهذا رسول الله ﷺ يقتص من نفسه لانه لطم أعرابياً ضايقه بعرجون مع أنه أرفع قدراً من الملوك وأعلا منزلة من القياصرة . ولقد كان يقول له قومه لو أمرتنا أن نخوض بحراً لخاض واحد منا وكانوا يبايعونه على الموت فهل من مدكر . على أن فى هذا الموقف عظة أخرى ينتجها الحلم وهى المحافظة على الحقوق العامة . والتمسك بالنظم فهو ﷺ يرشد بذلك أمته الى أن الناس سواسية بالنسبة للنظام فلا فرق بين كبير وصغير وعظيم وحقير فليس لواحد مهما علا قدره أن يعتدى على

غيره ويفلت من العقاب الذى سنه الله لذلك . ولقد بلغ من حلمه ﷺ أنه لم يضرب قط امرأة ولا خادما كما ورد فى حديث متفق عليه . وقيل له وهو فى القتال لو لعنتهم يارسول الله « فقال انما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً » رواه مسلم . وروى الشيخان من حديث أبى هريرة « قالوا يارسول الله ان دوساً قد كفرت فادع عليها فقيل هلكت دوس فقال اللهم اهد دوساً وأت بهم » ولما آذاه المشركون يوم أحد وكسروا رباعيته وشجوا وجهه وشق ذلك على أصحابه فقالوا لو دعوت عليهم « فقال انى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعياً ورحمة اللهم اغفر لقومى أو اهد قومى فانهم لايعلمون » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم أنا بشر فأيما مسلم سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها منى صلاة عليه وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة » رواه مسلم ومعنى هذا الحديث متفق عليه . وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص لرسول الله ﷺ أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذى بعثنى بالحق مايخرج منه الا حق وأشار الى لسانه » رواه أبو داود باسناد صحيح . وفى الحديث الذى قبله نهاية الحذر والاحتراس منه ﷺ فانه يخشى أن تتغلب عليه الطبيعة البشرية مرة فتخرجه عن حالته المعهودة من الحلم فيشتم أحداً شتمة أو يضربه ضربة فطلب من الله تعالى أن يجعلها قربة لمن حصلت له والواقع أنه ﷺ لم يضرب أحداً بيده قط الا أن يجاهد فى سبيل الله وما لعن مسلما بصريح اسمه أبداً . روى الحاكم مالعن رسول الله ﷺ مسلماً بذكر اسمه وما ضرب بيده شيئا قط الا أن يضرب فى سبيل الله ولا سئل شيئاً قط فمنعه الا أن يسأل مأثما ولا انتقم لنفسه من شىء الا أن تنتهك حرمات الله تعالى فيكون لله فينتقم .

ومن أجل ذلك أمر عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو أن يكتب عنه مايقول فى حال الغضب والرضى لانه معصوم عن الزلل واثق من أن الغضب لايخرجه عن طوره ولا يصرفه عن قول الحق على اى حال .

وقال على كرم الله وجهه كان ﷺ لايغضب للدنيا فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له » . رواه الترمذى

فهذه أمثلة من حلمه ﷺ وترى من حديث على كرم الله وجهه انه ﷺ كان يحلم حيث يكون للحلم موضع . اما اذا جحد الحق جاحد او خرج عن دين الله فاجر او اعتدى عليه معتد فانه كان عند ذلك يغضب حتى يقوم الحق وتنتصر الفضيلة وتنهزم الرذيلة . وهذا هو معنى الشجاعة التى ذكرناه لك فيما مضى

ولاغرو فانه صلى الله عليه وسلم كان اجمع الناس واحلم الناس فمن تمسك بسنته فقد اهتدى ومن حاد عنها فقد ضل سواء السبيل وكذلك كان حال اصحابه رضى الله عنهم فانهم تخلقوا باخلاقه الكريمة ولم يحيدوا عن طريقه القويم فيدشعرة فنصرهم الله على أعدائهم وأعزهم واعلا قدرهم

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن فنزل على الحر بن قيس وكان ممن يدنيهم عمر وكان القراء اصحاب مجلس عمر فقال عيينة لابن أخيه الحر يابن اخى هل لك وجه عند هذا الامير تستأذن عليه فاذن له عمر فدخل فقال يابن الخطاب ماتعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر

حتى هم به فقال الحر يا امير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وان هذا من الجاهلين . قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وقال له صدقت فكأنما كانت نارا فانطفأت . وكان عمر وقافا عند كتاب الله رواه البخارى

وانا نقف مع القارىء عند هذا الحد لاننا لو شئنا أن نتتبع ما كان عليه كرام المسلمين من الحلم لضاق بنا المقام وحبذا لو فهم المسلمون ذلك وعملوا به ليعيشوا مثلهم كراما فى الدنيا ويكونوا بررة عند الله يوم يبعثون

التواضع

التواضع يقابل الكبر وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق وانما ينشأ ذلك من معرفة الانسان قدر نفسه وقدر ربه لان من يدرك أنه شخص ضعيف فان وأن كل صفة من الصفات الموجبة للرفعة والكبر فى هذه الحياة لاثبات لها بل هى أعراض زائلة متنقلة ويدرك أن ربه هو الخالق العظيم المنفرد بالبقاء والكبر وأنه سبحانه سيجزى الذين اساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى فان قلبه دائما يكون منكسرا لربه فلا يتمرد عليه باقتراف الجرائم والآثام وعند ذلك يعامل الناس بالرفق والرحمة ولين الجانب فلا يتكبر على أحد ولا يزهو على مخلوق ولا يبالى بمظاهر العظمة الكاذبة فلا يحقد على من لم يقف اجلالا له ولا يعتدى على من يتصدر فى مجلس هو فيه وإن كان دونه منزلة ولا يستنكف من مجالسة الفقراء ومخاطبتهم بطيب الكلام ولا يأنف من أن يستمع نصيحة ممن هو دونه ولا يحتقر احدا من خلق الله الى غير ذلك مما بيناه لك فى مبحث الكبر

وبذلك تعرف الفرق بين التواضع والضعة فان الضعة هى الدناءة والخسة وابتذال النفس فى سبيل شهواتها الفاسدة فيقف المرء فى مواقف تذرى به من أجل الحصول على منصب أو مال أو جاه أو امرأة أو غير ذلك فلا يبالى أن يذل لمن هو دونه أو يتملق لمن يهينه أو يقف على باب من يستثقله ويظهر الاشمئزاز منه وهو لا يبالى بالالحاف عليه والوقوف بين يديه ذليلا خاضعا . والتواضع من صفات النفس الممدوحة والضعة من صفات النفس المذمومة ولقد ذكرنا لك فى مبحث الكبر أن ليس من الكبر معرفة الانسان قدر نفسه والترفع بها عما يذرى والضابط فى ذلك أن كل ما يترتب عليه مصلحة للافراد والجماعات فهو حسن ممدوح وما يترتب عليه ضرر وشر فهو سيء مذموم كما تقدم غير مرة

وللتواضع بالمعنى الذى ذكرنا فوائد كثيرة ومنافع جزيلة تعود على الافراد والجماعات بالخير الكثير فان المتواضع محبب الى النفوس قريب من الناس وكلما دنا منهم ارتفعت منزلته عندهم وعظم قدره فى أنفسهم واستفاد منهم وأفادهم وكلما كان المتواضع عظيما كان تواضعه اكبر أثرا وأكثر فائدة لان الاشياء تعظم بنسبة من تسند اليه كما ذكرنا غير مرة . ولنورد لك بعض امثلة على ما ذكرنا

المثال الأول . إذا كان المتواضع عالما فانه بالتواضع يزداد علما لانه لايستنكف أن يأخذ الفائدة ممن دونه . ولا يأبى أن ينقل الحق عن أى مخلوق أما المتكبر فهو كالمغرور فانه كثيراً مايفوته الحقائق العلمية لأنه يأبى أن يأخذ الحق حيث كان . ولذا قيل ضاع العلم بين الحياء والكبر وكذلك إن كان متعلما فانه بالتواضع يجد عطفا من معلمه فلا يضن عليه بمجهود ولا يبخل عليه بفائدة لأن التواضع يستلزم الأدب . وما أحسن الأدب من المتعلم مع أستاذه الذى يعصر مخه فى سبيل تثقيفه وتهذيبه فانه بالتواضع له والتأدب معه يبرهن على أنه يعرف قدر العلم ويدرك قيمة المعروف وأنه ممن يجزى الاحسان بالاحسان . أما المتكبر الذى يرم أنفه على من يعلمه أنفة واستكباراً ويحمله الكبر على سوء الأدب مع أستاذه فهو غبى جاهل لايعرف للعلم قيمة ولا يريد أن يخرج من جهله وذلك مشاهد بين المتعلمين . فانك ترى المتكبرين على أساتذتهم لاينفكون عن الجهالة ولا يخرجون عن السخف فضلا عما يتصفون به من نكران الجميل وجحد المعروف

المثال الثانى . إذا كان المتواضع ذا مال فانه بمخالطة الناس وعدم الترفع عليهم يعرف البؤساء والمحتاجين ويرى بعينى رأسه مايصيبهم من الشقاء ويمسهم من الجوع والعرى . وما يؤذيهم من ألم الحر والبرد فتألم نفسه لما يصيبهم فيسهل عليه أداء مافرضه الله عليه للسائل والمحروم ويهون عليه أن ينقذ المكروب ويغيث الملهوف . وفى ذلك فائدة له وللناس لأنه بعمله هذا يرضى عنه ربه وخالقه ورضاء الله خير ذخيرة يذخرها الانسان تنفعه فى الدنيا والآخرة لأن من يرضى عنه مولاه العزيز الحكيم لن يصيبه ضيم ولن يمسه شقاء فضلا عما يكسبه من قلوب الناس ومحبتهم إياه واحترامهم له وإخلاصهم فى خدمته . وتضافرهم على الدفاع عنه والانتصار له . وبعد هذا كله فانه يستريح من سفاسف الأمور التى يتألم لها المتكبرون وتغلى من أجلها دماؤهم ويطفى غضبهم فيحملهم على العدوان على عباد الله لأن المتواضع لايعنى بمظاهر العظمة الكاذبة التى ذكرناها آنفاً

المثال الثالث . إذا كان المتواضع ذا جاه فان التواضع يجعل لجاهه معناه . لأن الجاه إن لم يستعمل فى فائدة الجماعة والأفراد فلا يكون له معنى ومن ترفع عن الناس ولم يتواضع لهم فانه لايدنو منه أحد ولا ينتفع بجاهه محتاج فيظل جاهه قاصراً عليه ويصبح اسما بدون مسمى ومن يظن أنه متى حصل على مايسد شهوته وحده من مال أو جاه أوسلطان فقد ظفر بلذات الدنيا ونعيمها فلا يبالى بعد ذلك بغيره شقى أم سعد فهو تعس لأن الانسان لايستقل فى هذه الحياة بل لابد له من التعاون مع غيره وقد فرض الله عليه أموراً كثيرة يؤديها لأهله وأقربائه وجيرانه وأهل مدينته والبيئة التى هو فيها كما فرض عليه إغاثة الملهوف وانقاذ الأنفس من الهلكة عند القدرة وعمل مافيه الخير للناس ومن تأخر عن ذلك فهو آثم مجرم كما سيأتى فى الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله .

وما أحسن التواضع من ذى الجاه فانه يعظم فى أعين الناس جد العظمة . ويرتفع قدره كل الارتفاع ويكون كمن قيل فيه

دنوت تواضعاً ورفعت قدراً * فشأناك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تعلو إذ تبارى * ويدنو الضوء منها والشعاع

أما ذو السلطان فان تواضعه يجب أن يكون مقترنا بالحيطة فلا يفعل ماقد يطمع فيه المحكومين أو يسهل عليهم مخالفة النظام . وذلك يرجع للبيآت التي يعيش فيها فان كانت تدرك معنى الواجب وتعرف معنى النظام فان الحاكم يكون فى خارج الحكم كغيره كما كان فى صدر الاسلام فان المسلمين يومئذ كان الواحد منهم إذا اقترف جريمة ينمّ عن نفسه ويطلب أن يقتص منه ولو كان الجزاء يفضى به إلى الاعدام كما حصل من ماعز الذى ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إنى زنيت وطلب أن يعدم . ففى مثل هذه البيئة التى تحافظ على القانون من تلقاء نفسها لا يصح للحاكم أن يحتجب عن أفرادها او يترفع عن مخالطتهم . أما إذا كانت البيئة لاتعرف للنظام قيمة ويرى الواحد منهم أن قرب الحاكم منه فرصة للخروج على النظام وربما اتخذ ذلك ذريعة يوهم بها غيره إلى أنه قادر على رفع العقاب عن الجانى والحكم على البرىء . فيسلب الناس أموالهم كرشوة على هذا الحساب . فان الحاكم يجب عليه أن يحتاط إلى هذه الحالة كل الاحتياط كما قدمنا فى مبحث الكبر ويكون معنى تواضع الحاكم حينئذ لين جانبه والاصغاء لحجج الخصوم ومخاطبة الناس بالأدب وعدم الغرور بمنصبه الذى لابد أن يزول وإقامة العدل بين الناس فيسوى بين الصغير والكبير فى الحقوق ومن يفعل ذلك فله أحسن الجزاء عند الله كما تقدم . من أجل ذلك كله حثت الشريعة الاسلامية على التواضع وأمرت به فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازاد الله عبداً يعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة . وأنفق مالا جمعه فى غير معصية . ورحم أهل الذل والمسكنة . وخالط أهل العفة والحكمة » رواه البخارى فى التاريخ ورواه غيره

وفى الحديث إشارة إلى أن التواضع الممدوح هو غير الضعة التى ذكرناها وهى أن يقف موقفاً يذرى به

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى التواضع ومكارم الأخلاق . فقد روى الحاكم بسند صحيح « أنه أتى للنبي صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيبته فقال هوّن عليك فلست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل من القديد » والقديد اللحم اليابس لأن قريشا كانت تجفف اللحم وتخزنه لوقت الحاجة . وقال ابن عامر « رأيته صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة على ناقة صهباء لاطرد ولا ضرب ولا اليك اليك » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وهو حسن صحيح . ومعناه أنه صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد العالمين وإمامهم الاعظم كان يرمى جمرة العقبة كآحاد الناس فلا يخلون له الطريق . ولا يطردون الناس ولا يضربونهم ولا يقولون لهم تنحوا إلى جهة وذلك بالنسبة له عليه الصلاة والسلام أكبر تواضع . وروى أبو داود والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا اليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه » والدكان كما يطلق على الحانوت يطلق على الدكة التى يجلس عليها — المصطبة —

فذلك مثل من تواضعه صلى الله عليه وسلم . فعلى المسلمين أن يقتدوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام ليسعدوا فى الدنيا والآخرة ويكونوا من الفائزين .

الحياء والعفة

الحياء هو انقباض النفس عن القبائح وهو صفة من صفات النفس الممدوحة لأن اشمئزاز النفس عن القبائح يستلزم تركها والانصراف عنها . فالحياء بهذا المعنى من أفضل صفات النفس وأجلها قدراً . وهو مركب من أمرين . الجبن . والعفة . لأن الانقباض عن الشيء يقتضى الاحجام عن فعله كما علمت وذلك أثر الجبن . وترك القبيح أثر العفة . فالحياء الممدوح هو ماتركب منهما معا . أما انقباض النفس عن الفضائل فانه لايسمى حياء بل هو الجبن . فاذا كان المرء مع أحد العظماء الذين يتركون الصلاة ويأتون المنكر فانقبضت نفسه عن فعل الخير وانبسطت لفعل الشر مجاراة لذلك العظيم كان فعله ذلك جبناً لاحياء . ومثل ذلك مايفعله بعض الناس من مجاملة بعضهم بسماع الغيبة ونحوها فانه جبن مذموم كل الذم . والحياء يستلزم الخجل وليس هو الخجل لأن الخجل حيرة النفس وارتباكها من فرط الحياء

وأما العفة فهى التوسط بين طرفى الافراط والتفريط فى الشهوة والغضب على الوجه الذى بيناه فيها فهى مساوية العدل لأن من توسط فى شهوته وغضبه كان مؤديا لما يجب عليه من الحقوق لنفسه وغيره سواء كانت متعلقة بحقوق الله أو حقوق عباده وذلك معنى العدل . وبديهى أن العفة تستلزم الكف عن القبائح أما التلذذ بالمباح فقد ذكرنا لك حكمه فى مبحث الاقتصاد ومبحث شهوة الفرج وغيرهما وقلنا لك ان العفة لاتستلزم ترك التمتع بنعم الله وطيبات رزقه لان الله خلقها للناس ليستمتعوا بها ويذكروا نعمة الله عليهم فاذا وجد مايقتضى هجر اللذات المباحة كما اذا راض نفسه ليصل الى ادراك حقيقة من الحقائق أو يكون قدوة للبؤساء الذين حرموا من لذات الدنيا أو يكون مثالا لقومه فى الاقتصاد أو نحو ذلك فانه إنما يريد بذلك لذة أرقى وتمتعا أكبر لان استمتاع النفس بهذه الامور المعنوية الباقية أكبر وأعلى من استمتاعها باللذات الحسة المنقضية كما بيناه لك فى أول هذا الباب . أما هجر اللذات المباحة وترك التمتع بالطيبات من الرزق لالغرض سوى أنه يريد به الرهبنة فانه لايجوز فى نظر الاسلام لان الله أمر الناس أن يأكلوا من طيبات رزقه قال تعالى (ياأيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا) فقد أمر الله تعالى باكل الحلال الطيب نعم اذا كان الاستمتاع يفضى إلى الترف والاسواف كما بينا فى موضعه فانه يكون مذموما .

أنواع الحياء

ينقسم الحياء الى قسمين . حياء من الله . وحياء من الناس وهو بقسميه رأس الفضائل وأساس مكارم الاخلاق لانه يترتب عليه مايترتب على العدل والعفة ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله » رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء من الايمان والايمان فى الجنة . والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » رواه أحمد وغيره . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل الحياء من الدين فقال بل هو الدين كله » من حديث رواه الطبرانى وغيره . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » من حديث رواه البخارى ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء والايمان قرناء جميعاً فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » رواه الحاكم وغيره

هذا بعض ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحياء وهو كما ترى يتضمن وعد من اتصف بالحياء بالجنة ووعيد من اتصف بضده من البذاء والفحة بالنار فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الحياء خير كله وأنه قرن الايمان فاذا رفع الحياء رفع الايمان ثم قال ان الايمان — أى أهل الايمان — فى الجنة . وأن البذاء من الجفاء وأهل الجفاء فى النار . ولا ريب فى أن ذلك من أجل الحكم وأفضل الموعظة فما من أحد يستمسك به ولا يحيد عنه الا عاش فى دنياه عيشة راضية مرضية وظفر فى آخرته بالسعادة الدائمة والملك المقيم .

آثار الحياء

قد علمت أن الحياء ينقسم الى قسمين حياء من الله وحياء من الناس فاما الحياء من الله فانه يترتب عليه كل الفضائل التى يسعد بها الناس فى دنياهم وآخرتهم فان الذى يستحي من الله لايفعل منكراً ولا يترك واجبا مادام يؤمن بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره وأنه لابد أن يجزى المحسن باحسانه والمسيء باساءته وأنه سبحانه هو الذى خلقه فسواه وأمده بنعمه وفضله على كثير ممن خلق وأنه مدين له سبحانه فى وجوده وبقائه وفنائه وبعثه وأنه محتاج اليه فى جميع حركاته وسكناته وأنه اذا تأمل فى نفسه وأدرك ماانطوت عليه من دقيق الصنع وبديع التركيب وعلم أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فلا بد من أن يستحي من عصيان ذلك الخالق ولا بد أن يفعل ماأمره الله به وينتهى عما نهاه عنه وذلك هو الخير كله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ظاهر لان الذى يطيع الله فيما أمر لايظلم أحداً من عباده ولا ينقص أحدا منهم حقه فيوقر الكبير ويرحم الصغير وينزل كل واحد

منزلته ولا يترك مايجب عليه نحو أحد . ولا يهمل حقا من حقوق ربه ومن يفعل ذلك فهو ذوفضل عظيم وخير كثير على نفسه وعلى غيره يعيش فى هذه الحياة عيشة راضية مرضية ويحيا حياة هنيئة طيبة فى الدنيا والآخرة وذلك هو الفوز العظيم

وأما الحياء من الناس فهو قسمان ايضا . الاول أن يستحيي المرء من الناس وهو جازم بانه لايأتى هذا المنكر ولا يفعل هذه الرذيلة خوفا من الله تعالى وحياء منه أيضا ولولم يطلع عليه أحد من خلقه وهذا هو الحازم الذى عرف كيف يستفيد من صفة الحياء ويأخذ أجرها كاملا لأن الحياء انما يمدح من جميع جهاته إذا ترتب عليه الكف عن القبائح التى لايرضاها الدين فى جميع الاحوال . الثانى أن يترك القبيح حياء من الناس بحيث لولم يطلع عليه أحد لفعله وهذا وان كان لم ياخذ أجره كاملا ولكنه يرجى منه الخير وينجح فيه العلاج لأنه مادام الحياء موجوداً فى نفسه وما دام لا يفعل القبائح بين الناس فانه يسهل تذكيره بعظمة ربه وجلاله إن كان مؤمنا وتعليمه ان الله أولى وأحق بأن يستحى منه لأنه هو القادر الذى بيده ملكوت كل شيء وهو بكل شيء عليم فليس من الحزم أن يستحى الانسان من الناس ولا يستحى من ربه . وليس من العقل أن يضيع ثواب ترك القبيح بانصرافه عن ملاحظة خالقه ومراقبة ربه

أما الذى يجاهر بالعصيان ولا يستحى من الله ولا من الناس فهو من شر ما منيت به الفضيلة لأن المعاصى داء سريع الانتقال لاتلبث عدواه أن تسرى الى النفوس الضعيفة فيعم شرها ويتفاقم خطبها فضلا عما فى المجاهرة من انتهاك حرمة الفضيلة والقضاء عليها فشره على نفسه وعلى الناس عظيم وخطره على الفضائل كبير فيجب على جماعة المسلمين أن لا يتركوا أولئك الذين يجاهرون بارتكاب الموبقات يعيشون بينهم بل يجب على كل واحد أن يبذل مجهودا فى ردهم عن غيهم بكل ما يستطيع من نصيحة وغيرها . وخير علاج للقضاء على هؤلاء مقاطعتهم وعدم مخالطتهم واحتقارهم فى مجالسهم والانصراف عن حديثهم حتى يرجعوا عن غيهم ويكفوا عن المجاهرة بجرائمهم . ومن الأسف أن المجاهرة بالعصيان قد فشت فى زماننا بدون حياء من الله ولا من الناس وأصبح الناس على الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة شائعا والتسابق فى ميدان القبائح شاملا فلا شاب ينزجر ولا شيخ يرعوى ولا رجل تدركه العبرة . ولا امرأة يغلب عليها الحياء وذلك آية فناء الأمم وهزيمتها فى كل شأن من شؤونها فانما الأمم تحيا حياة طيبة بالتمسك بالفضائل وتعيش عيشة سعيدة باجتناب الرذائل فاذا انتهكت المحارم وغلبت الشهوات وضاع الحياء فماذا يرتجى بعد ذلك من عيش وراءه سخط الله وعقابه ومقته وعذابه ألا إن ذلك هو الهلاك والخسران كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء » من حديث رواه ابن ماجه

فها أنت ذا ترى النساء خرجن عن كل معنى يطلبه الحياء فيخرجن فى كثير من المدن عاريات الصدور كاشفات الاذرع يعرضن زينتهن التى لا يحل الاطلاع عليها الا لمحارمهن الذين ذكرهم الله على كل غاد ورائح ولا يبالين أن يختلطن بالرجال اختلاطاً معيباً مذرياً ويكلمن الشبان على مرأى ومسمع من الناس بدون أن يخطر على بال واحدة منهن شيء من الحياء الذى كان شعار آبائهن وأمهاتهن من قبل . ولا يعرفن للعفة التى عليها صيانة الشرف وحفظ الذرية معنى ولا يدركن ان هذا العمل

يقضى على بناتهن واخوتهن وأقربائهن شر قضاء لأن الشبان الذين يجدون حاجتهم من أولئك العاهرات ينصرفون عن الزواج ويكتفون بالسفاح فتبور الفتيات ويصبحن عاطلات معرضات للخنا والفساد فأى شر بعد هذا الذى يفعلنه هؤلاء الفاجرات وأى ضرر بعد هذا الذى يلحقنه بنظام العمران وأى فساد بعد ذلك الفساد الذى يقضى على الادب والفضيلة ويعرض الفتيان والفتيات لأسوأ المحن وشر البلواء كما بينا ذلك فى مبحث الزنا واللواط . ألا ان ذلك لما تسيل من أجله العبرات وتذوب من اجله الاكباد . ومما يضاعف البلاء ويزيد فى المصيبة أننا قد منينا بقوم يظنون أن الفضيلة كل الفضيلة فى الاقتداء بغيرهم من الامم التى أتيح لها من القوة المادية ما يكون لها به السلطان على الضعاف فلا ينفكون عن تحريض النساء على الخروج عن الآداب باسم الحرية والمدنية ومنهم من يبالغ فى النكاية بالفضيلة فيجعل التهتك فى أرذل حالاته فضيلة من الفضائل وعلما من العلوم التى يجب أن تطلب ومن ذلك — الرقص — فانه أصبح عند هؤلاء فنا من الفنون التى يجب على المرأة أن تتعلمه وما عليها من بأس أن تخاصر من تشاء من الشبان وتلصق جسمها بجسمه وما عليها من حرج اذا وضعت سوأتها على سوأته على مرأى ومسمع من بعلها ان كان لها بعل وما عليها من عار اذا اختلت بذلك الشاب الذى رقص معها فى أى وقت شاءت . فهل بعد ذلك من فضيحة تقضى على الفضيلة شر قضاء الا نبؤنا أيها الظرفاء المتعلمون هل هذه الحالة هى التى تفيد المرأة فى حياتها المنزلية المستقبلة فتعلم منها كيف تسهر على تربية ابنائها وبناتها تربية تنفعهم وتنفع قومهم هل هذه الحالة هى التى تعلم المرأة كيف تصون عرضها وتحفظ نفسها وتكون مثالا حسنا لبناتها وبنيها . هل هذه الحالة هى التى تقضى على المرأة باحترام زوجها وعدم التطلع الى غيره ايا كان حاله فتدوم بينهما الالفة وتستمر علاقة الزوجية مصونة عن العبث أو هى على العكس من كل هذا تمرن المرأة على اللهو والخلاعة والانصراف عن تدبير منزلها وتلفت نظرها الى غير زوجها ان خالت فيه ميزة من جمال أو مال أو نحوهما وتكون مثالا سيئا لاسرتها وعارا على ذويها . لعلكم تقولون ان التربية الاخلاقية شىء والفنون الجميلة شىء آخر فمن كانت مصونة لايؤثر فيها ذلك شيئا . وهذا هو الذى نعيبه عليكم ونؤاخذكم به لانكم بذلك تجهلون بيئتكم التى تعيشون فيها وتحكمون على قومكم بغير أخلاقهم وطباعهم جهلا منكم بصفات النفوس وطبائع الناس بل هو جهل أو تجاهل بالمشاهد المحس — المحسوس — الذى لاينبغى أن يجهله أحد منكم . فكم رأينا أن التهتك جرّ الى فساد كثير من الاسر وأضاع حياء كثير من القبائل وقاد كثيرا من الفتيات والفتيان الى المجاهرة بالفسق والخروج على أهلهم وذويهم . وكم رأينا مصارع الفضيلة على مسارح الرقص . وكم شاهدنا حرمة الآداب تنتهك فى سبيل ذلك التهتك الذى يسمونه مدنية وحرية . وكم جرّ ذلك من أمراض أخلاقية وبدنية على الفتيان والفتيات . فهل تخفى ذلك على هؤلاء الذين يقولون ان التهتك والخلاعة والمجون لاعلاقة لها بالخنا والفساد ألا ان ذلك لجهل عظيم فان أسباب الشر تنتج الشر وأسباب الخير تنتج الخير فمن يتمسك بأسباب الفساد يلق الفساد بلا نزاع .

وأعجب من هذا وأشد مصيبة أنهم يتوسلون فى اغراء النساء على الخروج عن الآداب بأن المرأة شريكة الرجل فى الحياة فلا يصح أن يكون هو طليقا حراً وهى رهينة منزلها وأسيرة مخدعها

ويستدلون على انحطاط الأمة وعدم تقدمها فى المدنية بعدم رقى المرأة وجهلها. وفى هذا غاية العجب فان هؤلاء كأنهم يعتقدون أن الفساد وانتهاك حرمات الفضيلة والخروج على الآداب والأخلاق سبب فى رقى الأمم وسعادتها فيا أيها الناس بربكم قولوا لنا ما للرقى وما لرقص النساء على المسارح وتبرجهن فى الطرق ومغازلة الرجال والشبان ما للرقى ومال تعرض عفاف المرأة وصيانة عرضها للفساد . ما لرقى الأمم وخروج المرأة عن كل قيد من قيود الحياء . ومن قال إن الرجل طليق لاحرج عليه فيما يأتيه من الأعمال لاريب فى أن الرجل كالمرأة تماما فى جانب الفضيلة والرذيلة فما هو محرم عليه محرم عليها وما هو واجب عليه واجب عليها فكما لا يحل لها أن تضيع عفافها كذلك لا يحل له . وكما يحرم عليها اجتناب الوسائل التى تفضى الى ارتكاب الجرائم والموبقات كذلك يحرم عليه اجتنابها فاذا قلنا للمرأة لاتتبرجى ولا تنتهكى حرمات الفضيلة ولا تخالطى من يطمع فى عفافك وتجتنبى وسائل الفساد كذلك نقول للرجل غض بصرك عما لا يحل لك واجتنب كل ما يؤذى الناس فى أعراضهم واحذر أن تطمع فى سلب عفاف امرأة لا تملك عصمتها ولا تتوسل بأى وسيلة تفضى إلى ذلك وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) فلا فرق بين الرجل والمرأة فى التكاليف الشرعية إنما لكل منهما وظيفة يؤديها فى هذه الحياة كاملة ولكل منهما طبيعة يترتب عليها آثار غير طبيعة الآخر وعلى كل فرد من الأفراد سواء كان رجلا أو امرأة أن يتمسك بكل ما يترتب عليه صالح ويتجنب كل ما يترتب عليه سوء فالشريعة إنما تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنهى عن التمسك بالأسباب التى توصل إلى ذلك . فاذا وجد بين الناس من يقول إن الفحشاء والرذائل لذات لايصح تركها فهؤلاء قد خرجوا عن موازين الانسانية وأصبحوا كالانعام لا هم لهم إلا اللذات فلا يغارون على أعراضهم ولا يخافون على بناتهم ونسائهم كما بينا لك فى مبحث الزنا. وهؤلاء لافائدة من إرشادهم ولا جزاء لهم إلا أن يبيدهم الله من المجتمع ويحفظه من شرهم — وبعد — فان الاسلام قد أمر النساء أن يتعلمن ما لهن وما عليهن من الحقوق والواجبات فمهما أمكن ذلك بالأدب والحشمة والوقار وعدم التعرض للفساد كان ضروريا ولقد كان المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين من أعز الأمم قدرا وأرفعهم مكانة وكانت نساء المسلمين يومئذ مهذبات مثقفات متمسكات بكتاب الله تعالى فلا يتبرجن ولا يتهتكن ولا يرقصن على المسارح ولا يطمعن أحدا فى عفافهن فهل كان ذلك جمودا قضى بتأخر المسلمين وانحطاطهن أو كان المسلمون يومئذ من أعز الأمم قدرا وأعلاهن مكانة وقد قهروا أشد الأمم يومئذ بطشا وأكبرهم قوة فهزموا الفرس والرومان وقضوا عليهما قضاء مبرماً بسبب تمسكهم بالفضائل الدينية وتجنبهم للرذائل الأخلاقية وصيانة أعراضهم ونسائهم من الفساد فمن كان مسلما يؤمن بالله ورسوله فليقتد بهؤلاء الكرام البررة وإلا فليتعرض للهلاك والدمار فى الدنيا والآخرة وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

هذا بعض ما يجاهر به النساء من العصيان والخروج عن الأدب والحياء أما الرجال فانهم لايبالون بمهاجمة النساء وتحريضهن على الفساد واغرائهن على الاستمرار على حالهن بدون خوف على نسائهم وبناتهم كما تقدم فى مبحث الزنا وهم مع ذلك لايبالون من معاقرة الخمور جهارا ولا يستنكفون عن

كسب المال من أى طريق كان ولو كان فيه هلاكهم وفضيحتهم ولا يستحيون من الغش والخديعة والميسر والزور ولا يبالون بارتكاب الجرائم علانية بدون حياء ولا وجل وهذا غاية الفساد ونهاية الضلال فلا هم يتأثرون بالمواعظ ولا هم يزدجرون بالحوادث ولا هم يخافون من عقوبات دنيوية وامراض جثمانية ولا هم يخشون عذاب الله وعقابه يوم لا ينفع مال ولا بنون فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

الصبر

هو من أجل صفات النفس وأعلاها قدراً فقد أثنى الله تعالى عليه فى أكثر من سبعين موضعا من كتابه العزيز ووردت أحاديث كثيرة فى الحث على الصبر ومدح الصابرين كما سيرد عليك

أما حقيقة الصبر لغة فهى حبس النفس عن الجزع أى منعها من الاستسلام له كى لا يترتب عليه فعل ما لا ينبغى وليس الغرض منه طرح الجزع رأسا لأنه أمر طبيعى لا يمكن الانفكاك عنه وظاهر أن المعنى اللغوى قاصر على الصبر عند المصائب . أما فى نظر الدين فهو أعم من ذلك لأنه حبس النفس عن الجزع ومنعها عن محارم الله . وإلزامها بأداء فرائضه يدل لذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله . وصبر على محارم الله . وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى وقد رواه ابن أبى الدنيا من حديث على كرم الله وجهه ويمكن أن يجعل الصبر بالمعنى اللغوى شاملا للأمور الثلاثة لأن حبس النفس عن الجزع لازم لمنعها عما تتوق إليه من اللذات والشهوات فاذا ما منعها عن شهوة محرمة محبوبة لديه جزعت لذلك فمنعها عن الجزع على الشهوة المحرمة هو الصبر وكذلك هو لازم لأداء الفرائض والتكاليف لأن فيها مشقة على النفس فمن داوم على ادائها تجزع نفسه من المشقة فحبسها عن الجزع لذلك هو الصبر . على أن حبس النفس عن الجزع عند المصيبة مختص باسم الصبر فلا يطلق عليه اسم آخر فالصبر على المصيبة يضاده الجزع والهلع . وأما منع النفس عن الشهوات المحرمة فانه يطلق عليه اسم الصبر وغيره فمنعها من شهوة البطن والفرج أو المال المحرمة كما يسمى صبراً يسمى أيضاً عفة ومنعها عن الجزع عند لقاء العدو كما يسمى صبراً يسمى أيضا شجاعة ويقابله الجبن . ومنعها عن التعدى على الغير عند ثورة الغضب كما يسمى صبراً يسمى أيضا حلما وشجاعة كما تقدم بيانه ويقابله التذمر والطيش . ومنعها من افشاء حديث لم يؤذن فى افشائه كما يسمى صبراً يسمى كتمان السر . ومنعها من الاسراف فى اللذات الضارة كما يسمى صبراً يسمى زهدا ويقابله الشره ومنعها من الغرور بالثروة والمال كما يسمى صبراً يسمى ضبط النفس ويقابله البطر . وهكذا فكل شىء أمر الله به أو نهى عنه فتلقاه الانسان بالقبول والرضى ظاهراً وباطنا وعمل به ان كان أمرا واجتنبه ان كان نهيا فهو صبر وان كان له اسم آخر ولهذا قد ورد فى بعض الآثار ان الصبر هو الدين كله

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه ثبات باعث الدين أمام باعث الهوى . فأما باعث الدين فهو قدرة العقل على قهر الشهوة والغضب وهذه القدرة تحصل له من النظر فى قضايا الدين والعمل بها . وأما باعث الهوى فهو الشهوة والغضب لأنهما بطغيانهما يقودان المرء إلى مالا يقره الدين ولا يرضاه العقل فاذا ثبت العقل أمام الشهوة والغضب وقام بوظيفته على الوجه المطلوب فلا يجعل لهما عليه سلطانا ولا يسمح لهما بالطغيان فينقاد لهما صاغراً بل يكون هو الآمر الناهى فيسلك بهما سبيل الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط فانه بذلك يستطيع أن يظفر بالصبر على حرمات الله وطاعته وأن يحبس نفسه عن الجزع عند المصيبة فلا يستفزه الجزع إلى قول أو عمل مالا يرضاه دينه مهما كان لنفسه فيه لذة . ومن ذلك الصبر على إيذاء الناس إياه فانه اذا أغضبه أحد بقول أو عمل فان غضبه لايطغى عليه فيحمله على التعدى حدود الله بل يكظم غضبه حتى يجرى على سنن الدين من القصاص العادل أو العفو (كما هو مبسوط فى موضعه كما سلف فيما تقدم . وقد ورد فى الكتاب الكريم مايشير لذلك قال تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . فللمظلوم الحق فى الانتصار من الظالم . واذا صبر على الاساءة وغفر لمن أساء اليه ذنبه فان ذلك من الأمور التى ينبغى أن يعزمها كل أحد لشرفها كما يأتى قريبا .

هذا وقد فسر الصبر بتفاسير كثيرة غير هذا . منها أنه الثبات على الكتاب والسنة . ومنها أنه ترك الشكوى . ومنها أنه هو الاستعانة بالله . وقال بعضهم الصبر أن لاتفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الى طرفيهما . وقال بعضهم هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقيل غير ذلك

وما قدمناه لك هو أجمعها ويقرب منه تعريفه بأنه الثبات على الكتاب والسنة لأن من ثبت عليهما فقد صبر على المصائب وعلى أداء الطاعات واجتناب المحرمات

واعلم أن اظهار البلوى . إما أن يكون لله تعالى كما قال أيوب عليه السلام (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وهذا لاينافى الصبر . وإما أن يكون لغير الله تعالى فان كان لحاجة كشرح العلة للطبيب أو بيان المظلمة لمن يقدر على رفعها فانه لاينافى الصبر أيضا مادام راضيا بقضاء الله تعالى فلا يضجر ولا يتبرم مما ينزل به من البلاء . فان اشتكى لغير الله بدون فائدة تبرماً وضجراً لم يكن من الصابرين ولم يستفد من مصيبته سوى عذاب الدنيا وسيسأل عن ضجره من قضاء الله يوم القيامة خصوصا اذا كانت شكواه مصحوبة ببعض العبارات الجريئة على الله تعالى فانه يكون من أتعس الحمق لأنه بذلك يشكو الاله القادر الذى يرحم للعبد الضعيف الذى لايغنى عنه شيئاً

أقسام الصبر

قد علمت أن الصبر فى نظر الدين ينقسم الى ثلاثة أقسام . صبر على الطاعة . وصبر على المعصية . وصبر على المصيبة . وهذا التقسيم بالنسبة لما يتعلق به الصبر . وقد ينقسم باعتبار القوة والضعف

الى ثلاثة أقسام أيضا . لأن سلطة العقل ان كانت كاملة بحيث يتغلب بها دائما على الشهوة والغضب كان الصبر فى هذه الحالة على أتم حالاته . وانما يصل الى هذه المرتبة الصديقون المقربون . وان تقهقرت سلطة العقل أمام الشهوة والغضب فى معظم الأحيان كان الصبر فى أسفل درجاته . وهذه حالة الغافلين الذين تملكتهم شهواتهم وخلت قلوبهم من عظمة خالقهم . وان كانت الغلبة بين المتنازعين سجالا بأن تغلبت سلطة العقل مرة . وتغلبت سلطة الشهوة مرة أخرى كان الصبر فى وسط حالاته وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر شيئا عسى الله أن يتوب عليهم لأن فى جهاد الشهوة وقهرها فى كثير من المواطن رجوعاً الى الله تعالى وهو سبحانه واسع الرحمة والمغفرة فيقبل الحسنات ويعفو عن السيآت

آثار الصبر

ومنافعه

لاريب فى أن الصبر بجميع أقسامه ممدوح فى المواطن كلها الا فى المواطن التى تنتهك فيها حرمات الدين . والفضيلة . ويخذل فيها الحق فان الصبر فى هذه الحالة يكون جبنا . فالصبر حسن جميل سواء تعلق بأمر خطير أو حقير ولكنه يكون أجمل شأنا وأعظم أجراً اذا كان متعلقا بمصيبة عظيمة كفقد ولد نافع . أو كان متعلقا بشهوة لم تستطع النفوس البشرية أن تكف عنها بسهولة . كما اذا دعته امرأة ذات مال وجمال لنفسها فصبر على شهوته وقال انى أخاف الله . ومثل هذا قد اختصه الله بميزة عظيمة وهى أن يكون فى ظله يوم لاظل الا ظله . كما تقدم فى الحديث .

ومن هذا تعلم أن ماورد من التفاضل بين الصبر وهو أن الصبر على أداء الفرائض أقل درجة من الصبر على المحرمات وأن الصبر على المحرمات أقل درجة من الصبر على المصائب . ينبغى أن يحمل على ماسيناه لك . لأن التفاضل فى الواقع انما يكون بالنسبة لعظائم الأمور التى تظهر فيها تضحية الشهوات ويتجلى عندها ثبات العقل ومتانة الدين . على أن الصبر على صغائر الأمور قد يكون له فضل عظيم لأن النفس اذا تعودته فانه يسهل عليها الصبر على عظائم الأمور . فالصبر كله خير كما ستعرفه فيما سنذكره لك مفصلا

فاما القسم الأول . وهو الصبر على المصيبة فانه يتناول الصبر على موت الأحباب من الأهل والأصدقاء كما يتناول الصبر على البؤس والفقر وضياع الأموال ولقاء الاعداء فى ميادين القتال ونحوها . والصبر على السقم والاوجاع . وإيذاء الاهل والجيران وغيرهم واحتمال الآلام كالضرب الشديد والمرض العظيم والجراحة ونحوها . وقد أثنى الله على الصابرين عند المصائب وأعدّ لهم جزاء حسنا وأجراً كبيراً .

قال تعالى (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فالبأساء الفقر والبؤس . والضراء المرض . والبأس القتال . فمعنى الآية وأمدح الصابرين فى حال

الفقر والمرض وحين قتال الاعداء . ولقد وصفهم الله بأنهم الصادقون فى إيمانهم بربهم الموقنون باليوم الآخر فلا يبالون بحادثات الدنيا الزائلة..المتقون فى أعمالهم . وكفى بذلك مدحاً من رب العزة الذى بيده ملكوت كل شيء . وقال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فمن ابتلاه الله تعالى بنقص فى ماله أو منعه شيئا من شهوات الدنيا ولذاتها وعجز عن تحصيله بالوسائل المشروعة أو قبض اليه نفسا عزيزة لديه أو أخافه من عدو فانه لادواء له الا الصبر على ماأصابه . فاذا صبر المبتلى على مصيبته وعمل بقول ربه عز وجل فقد هانت عليه البلوى وضاع أثرها فاستراح من عذابها فى الدنيا وفاز فى الآخرة بالجزاء الحسن .

فالفقير الذى لاتبهره المناظر الكاذبة . ولا يذهب بلبه متاع الحياة الدنيا وزينتها ولا يحزنه مالا يستطيع الوصول اليه من ذلك المتاع الفانى بل يطمئن قلبه الى ماقدر له فى هذه الحياة من تعب ونصب ويرضى بما قسم له فلا يسخط ولا يفعل حراماً فانه لابد أن يجعل الله له من أمره فرجا فى حياته الدنيا . كما قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) وهو فى رحمة الله ورضوانه يوم الخلود . أما الفقير الذى يزين له الشيطان والهوى ما فى أيدى الناس فيفسد قلبه بالوساوس الضارة والامانى الكاذبة والاحلام الباطلة فيحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولايبالى أن يتمسك بأى وسيلة من الوسائل المحرمة فى الوصول الى شهوة لن تغنى عنه شيئا ولن تسد عنه فقره لهو من أتعس خلق الله وأضلهم وأشقاهم لانه بعمله هذا يكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

وكما أن الفقير محتاج للصبر على فقره . فكذلك الغنى محتاج للصبر على غناه لانه مكلف بحقوق وواجبات لايسهل على النفس فعلها من زكاة مال واغاثة ملهوف وانفاق من غير تبذير ولا تقتير الخ ماتقدم فى مباحث المال والا كان بطراً يعرض صاحبه للدمار . وكذلك من يصبر على فقد عزيز لديه فان مصيبته تهون عليه فى الدنيا وله على ذلك الجزاء فى الآخرة . فمن مات له حبيب كان من واجبه أن يرجع الى الله تعالى وأن يعلم أن كل شيء فى هذه الحياة صائر الزوال فليس من الحكمة أن يخرج المرء عن آداب دينه ويعرض نفسه لسخط ربه من أجل مصيبة مهما عظم خطبها . لان الانسان لم يخلق فى هذه الحياة الا هدفا للمصائب ورمية للأحزان وليس هو وحده الذى خص بالمصائب بل كل الناس فى ذلك سواء أولهم وآخرهم كبيرهم وصغيرهم . غنيهم وفقيرهم . يبتليهم الله تعالى بأكبر المصائب وأشد المحن من ألم ومرض وموت . ومتى كان الحكم عاما كان الصبر عليه أهون . وليس من اللائق بالمسلم أن يغفل عن هذه الحقائق ويفعل مالا يقره الدين ولا يرضاه العقل من لطم الوجه وشق الجيب والنطق بعبارات الكفر والهذيان . وقد يستخف الجزع بعض ضعاف النفوس فيرتكبون الجرائم من حيث لايشعرون . وقد يذهب عقل بعضهم ويصبح مجنونا فان كل ذلك غفلة عن نظام الله فى خلقه وطمع فى المحال فان المنية لن تترك أحداً وان الضيم والشقاء فى هذه الحياة لادافع له . ويعجبنى فى ذلك قول بعضهم :

من رأيت المنون خلدن أم * من ذا عليه من أن يضام خفير

نعم ان الجزع أمر طبيعى فى الانسان كما ذكرنا ولكن الذى يكلف به المرء انما هو الكف عن فعل مالا يليق والتسلية بمصائب الناس وأرزائهم والتأدب بآداب الدين فاذا وجد بعد ذلك أثراً للجزع والحزن فى نفسه فانه لايؤآخذ عليه لانه يكون قد فعل ماهو داخل تحت اختياره . على أن من يعلم أنه هالك لامحالة وأنه لابد أن يرجع الى ربه ويلحق بمن مات اما عاجلا أو آجلا فان حزنه يذهب سريعا وجزعه ينتهى فوراً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن يتصبر يصبره الله » من حديث رواه البخارى ومسلم ومعناه أن من يتكلف الصبر ويعمل بوصايا الدين الواردة فى شأنه فان الله يمنحه الصبر ويسهل له تحصيله . وكذلك من يصبر عند الخوف من لقاء العدو فانه يستطيع بالصبر أن يثبت فى نهاية أمره وأن لايضيع شجاعته من أجل خوفه وفزعه فيخدم بذلك دينه وأمته ويظفر بثناء الناس ورضاء الله فى الدنيا والآخرة .

فأجر الصابرين عظيم فى الدنيا والآخرة كما يستفاد من الآية الكريمة فانها تبشرهم بأمور ثلاثة .

أولها : صلوات الله عليهم والصلاة من الله على عباده الرحمة وهو الكثير الشائع عند أهل اللغة وقد تطلق على المغفرة والثناء وهو المناسب هنا حتى لايتكرر مع قوله تعالى (ورحمة) . ثانيها الرحمة . وقد عرفت مما تقدم انها بالنسبة لله تعالى صفة تناسب ذاته التى ليس كمثلها شىء وبها ينعم الله على عباده بنعمه فى الدنيا والاخرة فيمدهم بما يحتاجون اليه فى حياتهم الاولى ويمحو عنهم سيآتهم ويدخلهم جناته فى الحياة الآخرة . ثالثها الاهتداء . وهو الفوز بالمطالب الدنيوية والاخروية والى ذلك يشير قول سيدنا عمر رضى الله عنه - نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين - يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة . وبالعلاوة الهدى . رواه الحاكم وغيره . والعدل بكسر العين الحمل الذى يوضع على البعير مقابل حمل آخر . فالحملان هما العدلان والعلاوة بكسر العين مايوضع فوق الحملين فهو قد شبه الصلاة والرحمة بالحملين وشبه الاهتداء بالعلاوة التى فوقهما . ومتعلق البشارة محذوف مجمل . أى بشرهم يامن يتأتى منه البشارة باحسن البشائر وأجلها وقد فصله الله تعالى بقوله (أولئك عليهم صلوات) الخ

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قال أخبر الله عز وجل أن المسلم اذا سلم لأمر الله فاسترجع عند المصيبة . كتب له ثلاث خصال من الخير . الصلاة من الله والرحمة . وتحقيق سبيل الهدى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا يرضاه » رواه الطبرانى . وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدى فيقولون حمدك

واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد » رواه ابن حبان فى صحيحه . ورواه الترمذى

وروى فى الصحيح أن الرميصاء أم سليم لما مات ولدها من زوجها ابى طلحة فقالت لما دخل لا يذكر أحد ذلك لأبى طلحة قيل فلما جاء وسأل عن ولده قالت هو أسكن ما كان فظن أنه عوفى وقام وأكل وشرب وتزينت له وتطيبت له فنام معها وأصاب معها فلما اصبحت قالت له احتسب ولدك فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « بارك الله لكما فى ليلتكما فجاءت بولد هو عبد الله بن أبى طلحة فأنجب ورزق اولادا قرؤا القرآن منهم عشرة كملا وروى جابر بن عبد الله أنه ﷺ قال رأيتنى دخلت الجنة فاذا بالرميصاء امرأة ابى طلحة »

فانظر الى الجزاء العظيم فلقد نالت أجرها فى الدنيا بما رزقها الله من بنين نجباء وستكون فى جنات النعيم يوم القيامة لأن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لاريب فيها وقوله صدق لاشك فيه وهو الصادق الأمين فى كل حال . وكذلك من يصبر على مرض يصيبه فان الله تعالى يثيبه عليه ويكفر عنه من سيئاته سواء كان قليلا او كثيراً فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيآته رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرطهما ورواه غيرهما وقال عليه الصلاة والسلام ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله له بها من خطاياه رواه البخارى ومسلم . وقال عليه الصلاة والسلام إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا رواه البخارى وغيره وقال ﷺ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه رواه البخارى وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام إن الله ليبتلى عبده بالسقم حتى يكفر عنه ذلك كل ذنب رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما

ولاريب فى أن ذلك الجزاء منوط بالصبر والعمل على مايرضى الله تعالى وقد ورد فى بعض الاحاديث الصحيحة أن الله تعالى يبدل الصابر على المرض الذى لايشكو فيه لعوده عافية خيراً مما كان عليها فاذا قبضه اليه ادخله الجنة . وكل هذا دليل على عظم قدر الصبر على المصيبة فى النفس والولد والمال وعلى علو منزلة الصابرين عند ربهم وعلى ما يدخره الله لهم من الجزاء الاوفى فان من يثنى عليه ربه فى كتابه الكريم ويبشره برحمة منه ومغفرة واهتداء ويخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعته لهو جدير بأن يكون من المقربين الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . وكذلك الصبر على أذى الناس وظلمهم اذا كان لا يستطيع الانتصار منهم أو كان يستطيع ردهم والانتصار منهم ولكنه عفى عنهم وغفر لهم إذا كان العفو يصلحهم ولم يكن الذنب متعلقاً بعرض أو دين كما تقدم غير مرة فمن صبر على ظلم الناس وإيذائهم فان الله تعالى كفيل بنصره فى الدنيا والآخرة وقد مدح الله الصبر فى هذه الحالة فقال تعالى (لتبلون فى اموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) الابتلاء بمعنى التجربة التى تعلم بها حقيقة لم تكن معلومة محال على الله تعالى فمعنى لتبلون لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ماعندكم من الصبر والثبات على الحق وان كان لايخفى على الله خافية من أمركم

فى حاضركم ومستقبلكم والابتلاء فى الأموال بالفرائض التى فرضها الله عليهم وبما يجتاحها من الحوادث وفى الأنفس بالقتل والأسر والجراح وفقد الأهل والأحباب والمخاوف وغير ذلك وقوله ـ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ـ هم اليهود والنصارى ـ ومن الذين أشركوا ـ هم كفار العرب ـ أذى كثيرا ـ كالطعن فى الدين وتخطئة من آمن والافتراء على الله تعالى ورسوله وقوله تعالى ـ فان ذلك من عزم الامور ـ مأخوذ من قولهم عزمت على الامر اذا عقدت القلب على فعله ووطنت النفس عليه ويصح نسبة العزم الى الله تعالى على ان يكون بمعنى الارادة ومنه قولهم عزمات الله تعالى بمعنى ارادته فعزم الامور أى الامور التى ينبغى أن يعزمها كل عاقل لما فيها من الشرف والمكانة الرفيعة وقال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا) وقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وفى هذه الآية دلالة على ان من قدر على أن ينتصر لنفسه فعليه أن لايتجاوز حقه فيعاقب باكثر مما عوقب به واذا صبر وترك القصاص لهو خير له اذا كان يترتب عليه خير . أما اذا كان يترتب على العفو شر فان القصاص يكون لازما كما تقدم

واما القسم الثانى وهو الصبر على المعاصى فانه لازم لسعادة الانسان فى دنياه وآخرته فان الله سبحانه نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا فى هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين لا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ولا يعتدى أحدهم على غيره فى ماله وبدنه ولا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون فى الارض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ولا يقذف ولا يشهد الزور ولا يؤذى به أحدا من خلق الله ولا ينطق بالفحش ولا يمزح الا بالحق ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ولا يجادل بالباطل . ولا يخاصم ليقتطع حق غيره فانه بذلك يتقى آفات اللسان التى تفضى بالمرء الى الهلاك فى الدنيا والآخرة . ومن يصبر على حفظ فرجه فلا يستعمله الا فيما احله الله له فقد نجا من شر غوائل الزنا واللواط وكان أمينا على سلامة عرضه وحفظه من الضياع . ومن صبر عند غضه فلا يبطش بيده ولا يهجو بلسانه ولا يحقد بقلبه فقد سلم من مظالم خلق الله تعالى وكان مسلما حقا كما قال رسول الله ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ومن صبر على مالا يملكه من الشهوات واللذات فقد نجا من الم الحسد والحقد وظفر بسكون النفس وراحتها وهكذا فى كل مانهى الله عنه سواء كان متعلقا بحقوقه أو حقوق عباده

وأما القسم الثالث وهو الصبر على أداء ما فرض الله تعالى فهو مرتبط بالصبر عما نهى عنه فانه سبحانه قد أمر عباده بالفضائل ونهاهم عن الرذائل قال تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فمن صبر على عبادته تعالى من صلاة وصيام وحج فقد طهر قلبه وتنزه عن الفحشاء . ومن صبر على ايتاء الزكاة وبر الوالدين وصلة الارحام ومواساة البؤساء واعانة الفقراء وتربية الأيتام واداء حقوق الجوار والاحسان الى الناس وغير ذلك

من الواجبات والحقوق التى سيأتى بيانها فى الجزء الثانى ان شاء الله فانه بذلك ينجو من شقاء الدنيا ويسلم من عنائها ويظفر فى الآخرة بالسعادة الكاملة من ملك دائم ونعيم مقيم

من أجل ذلك كان الصبر من أحسن صفات النفس وأعظمها ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر » من حديث رواه البخارى ومسلم . وقال تعالى (وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال تعالى (واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

تم الجزء الأول . ويليه الجزء الثانى

obeikandl.com

اصلاح خطأ

وقع أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعية لاتخفى على حضرات القراء . ولكنا رأينا إثبات المهم منها هنا إتماما للفائدة .

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٩	٤	طبيعى	طبيعية
٣٦	٣٠	مدخوا	خدموا
٣٧	٢١	شقاؤها	شقائها
٤٣	١٣	بذلك آثما	بذلك يكون
» »	١٤	يكون يكون	يكون
٥٠	٢٨	لم يجرى	لم يجر
٥٢	١١	وإن كانت	إن كانت
٦٢	١٤	منعهم	منهم
٦٣	٧	عشر ألف	عشر الفاً
» »	٢٨	نسكفيكه	نكفيكه
٦٤	١	لأمر	الأمر
» »	٤	من نشئته	نشأته
٦٥	١	لايثنينى	لايثنى
٧٣	١٥	المسيهجنة	المستهجنة
٧٤	١٢	أضرب للسهام	أضرب للهام
٧٥	٨	الخلقة	الخلقية
٨٢	١١	الميراث	المرانة
٨٥	٢٧	داخـل	داخلان
١١٣	٢٠	الدواء	الدوائر
٤ » »	٢٣	المغرورون	المغرورين
١٢٣	٤	نخطر	يخطر
١٢٦	٢٣	عليها	عليهما
١٢٧	١٥	العالين	العادين
» » »	١٧	السريرة العلانية	السريرة والعلانية
١٥١	٢٠	مالهم وما عليهم	مالهن وما عليهن

سقط من صحيفة (٥٩) سطر (١٧) كلمات « والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله »

obeikandl.com